إعداد وإخراج
موقع مؤسسة الإمام الكاظم عليه السلام ـ المكتبة العامة ـ مكتبة العقائد الإسلامية
www.alkadhum.org

باب الحوائج
الإمام موسى الكاظم (عليه السلام)

مسيرة علوية مستمرة
الدكتور حسين إبراهيم الحاج حسن أستاذ الأدب العربي والحضارة العربية في الجامعة اللبنانية كلية الآداب الفرع الرابع ومشرف في قسم الماجستير والدكتورا
دار المرتضى بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

اقتضت حكمته جلّ جلاله اصطفاء وتشريف آل محمد (عليهم السلام)، ورفع منزلتهم، كما اقتضت حكمته جلّ جلاله اصطفاء آل إبراهيم وآل عمران (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (آل عمران، 34).

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى آيات كثيرة في فضل آل محمد (عليهم السلام)، يكفي منها قوله تعالى: (قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) (الشورى، 33).

لهذا كان الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) يشيد بأهل بيته (عليهم السلام) في كل ناد ومحفل، فمرّة يشبّههم بسفينة نوح (مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركب فيها نجا ومن تخلّف عنها غرق)1.

وشبّههم بباب حطة (مثل أهل بيتي مثل باب حطّة في بني إسرائيل، من دخله غفر له)2.

وقوله (صلّى الله عليه وآله): (إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبدا)3.

وقوله (صلّى الله عليه وآله): (النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي)4.

وقال (صلّى الله عليه وآله): (حبّي وحب أهل بيتي نافع في سبعة مواطن، اهوالهن عظيمة: عند الوفاة، وعند القبر، وعند النشور، وعند الكتاب، وعند الحساب، وعند الصراط، وعند الميزان)5.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: إنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال: (الزموا مودّتنا أهل البيت، فإنّه من لقي الله وهو يودّنا دخل الجنّة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقّنا)6.

كما أنه (صلّى الله عليه وآله) حذّر من بغضهم، قال: من أبغضنا أهل البيت بعثه الله يهوديّاً قيل: يا رسول الله وإن شهد الشهادتين؟

قال: نعم، إنّما احتجب بهاتين الكلمتين عن سفك دمه.7

وقال (صلّى الله عليه وآله): (لو أنّ رجلاً صلّى وصفّ قدميه بين الركن والمقام، ولقي الله ببغضكم أهل البيت دخل النار)8.

وقال (صلّى الله عليه وآله): لو أنّ عبداً عبد الله بين الصفا والمروءة ألف عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام، حتّى يصير كالشن البالي، ثم لم يدرك محبّتنا، كبّه الله على منخريه في النار، ثم تلا: (قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)9.

إلى أحاديث كثيرة ذكرها علماء الحديث في كتبهم.

وأنت أعزّك الله يكفيك من هذا أن الله جلّ جلاله فرض على المصلّين ذكرهم في صلاتهم، فتقول في التشهّد: اللّهمّ صلّ على محمد وآل محمد.

وإلى هذا يشير الإمام الشافعي:

يا آل بيت رسول الله حبّكم***فرض من الله في القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم الفخر أنكم***من لم يصلّ عليكم لا صلاة له10

ومن هذا المنطلق الولائي جاءت المباراة الكتابية عن آل البيت (عليهم السلام)؛ بدأت بأمير المؤمنين (عليه السلام)، ووصلت إلى الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) ـ الإمام السابع من أئمة آل البيت (عليهم السلام) ـ وفي كثير من هذه المباريات كان الدكتور حسين الحاج حسن مشاركاً فيها، وفي كتبه مسحة ولاء يحسّها القارئ، وهذا هو المتعيّن على من له المقدرة على الكتابة والتأليف.

ونسأله تعالى أن يأخذ بأيدينا إلى ما يحب ويرضى إنه سميع مجيب.

بيروت 1999/9/9

علي محمد علي دخيّل

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أيها الإمام العظيم الذي بعثت روح الجهاد في الأجيال.

أيها الإمام الكريم يا من تستحق كل الكلمات المخضبة بالخير والحق، والعابقة بأريج العطاء.

يا إمامي أبا عبد الله الصادق نفسي لك فداء، روحي لك فداء تقبل مني هذا المجهود المتواضع الذي تشرفت فيه بالبحث عن سيرة ولدك الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) وصيك وخليفتك الذي قضى رهين السجون، وحليف الآلام تقياً ورعاً زاهداً عابداً، فتفضل عليّ بالقبول لعلّه يكون ذخراً لي يوم الوفادة على الله.

المؤلف

د. حسين إبراهيم الحاج حسن

شمسطار 21 كانون أول 1997

الموافق 21 شعبان 1418

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)11.
(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)12.
وجاء في الحديث الشريف: (أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم، ألا إني مخلف فيكم كتاب ربي عز وجل وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي فقال: هذا علي مع القرآن، والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض فأسألهما عما خلفت فيهما).
كما روي عنه قوله (صلّى الله عليه وآله): اللّهم إنك تعلم إن هؤلاء أهل بيتي وأكرم الناس عليّ، فأحبّ من يحبهم وأبغض من يبغضهم ووال من والاهم، وعاد من عاداهم، وأهن من أهانهم، واجعلهم مطهرين من كل رجس، معصومين من كل ذنب وأيدهم بروح القدس يا رب العالمين).
وردت هذه الأحاديث في صحيح مسلم ج 7 ص22، وسنن الترمذي ج 2 ص307 وسنن الدارمي ج 2 ص432 ومسند أحمد بن حنبل ج3 ص14 و17 و26 و59 كما رواها جماعة من أكابر العلماء يقرب عددهم من المائتين.

كلمة شكر وتقدير

إنها المباراة العظيمة التي تقام كل عام في مهرجان عظيم لإمام عظيم من أئمة أل البيت (عليهم السلام)، أضاء الدنيا بنمير علومه وعطر المجتمع بأريج أخلاقه، وبعث في ضمير الأمة الإسلامية الجهاد، الأمثل في حلمه وصبره على ما صادف من خطوب جسام من حكام لئام.
تعد هذه المباراة من افضل الأعمال الفكرية والعلمية والأدبية التي تقام على صعيد العالم العربي من إحياء التراث الإسلامي الخالد، كما تدل دلالة واضحة على تعلّق الأمة الإسلامية بعظمائها العظام، ورجالاتها الكرام. إنّ إحياء ذكرى عظمائنا أمر ضروري من أعمالنا وخاصة في هذه الأيام الصعبة التي تحاك فيها المؤامرات علينا من الغزو الفكري والثقافي من قبل أعداء الأمة الإسلامية المستكبرين من أجل قطع الأواصر التي تشدنا إلى تراثنا الإسلامي العريق، وعقيدتنا الإسلامية السمحاء. تعد هذه المباراة الهامة لقاءً أخوياً كريماً تتآلف فيه قلوب أبناء هذه الأمة العربية الخالدة الذين يعشقون محبة أهل البيت على اختلاف مذاهبهم ومناطقهم، فتتعانق الأقلام الملتزمة لتبديد سحب الطمس والتزييف التي مورست وما زالت تمارس لإقصاء رسالة الإسلام عن واقع الحياة، لكن المتآمرين قد فشلوا في إطفاء نور الله الذي يبقى مشرقاً منوراً بهمة علمائنا الأبرار، فلهم منّي أفضل الشكر والتقدير.
كما تعد هذه المباراة الكريمة مناسبة خيّرة للحوار والمناقشة وتلاقح الأفكار وتبادل الآراء لاختيار خلاصة جهود المشاركين من أجل البحث الأمثل لتعرف الأمة بالمزيد من عظمائها، العلماء الأفذاذ الذين سطروا في التاريخ العربي الإسلامي أنصع الصفحات الدالة على سعة أفقهم العلمي، وجهادهم الحضاري، في صيانة الرسالة الإسلامية السامية. ذلك هو:
الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) الذي أكمل المسيرة العلوية بهمم أبيه، مدافعاً عن رسالة جده (صلّى الله عليه وآله) ومناضلاً عن المستضعفين من أبناء أمته بمواقفه التاريخية المشهودة، وتصديه لمناظرة الفرق الضالة عن الحق، مجاهداً صابراً لما لاقى من مؤامرات أموية وعباسية، وعالماً متألقاً بما خلف من تراث حضاري غزير في مختلف مجالات العلم والمعرفة.
فتحية شكر وتقدير لكل من ساهم بهذه الدراسات القيّمة والبحوث العلمية الفاضلة في سبيل الإفادة والتنوير وإحياء القضايا الكبرى في المجتمع الإنساني.

ولا أرى أية قيمة لرسالة أو أطروحة ما لم تكن في خدمة قضية إنسانية في مجتمع إنساني. ولا يطيب قلم باحث أو كاتب ما لم يعالج قضية كبرى يتبناها ويعيش أهدافها الشاهدة على صحتها؛ لأن القضايا الجليلة هي الشعاع الذي يستضيء به فكرنا، والدافع لأشواقنا والمحيي لوجداننا وعقيدتنا.

إن جهودكم المشكورة التي وجهت الدعوة العامة لتقديم مباراة جديدة عن الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) شبيهة هي بالدراسات الناجحة التي قدمت عن الأئمة المعصومين السابقين ـ والتي كان لي الشرف بالمشاركة فيها ـ أمانة صعبة حملوها على عاتقهم وأدّوها بأمانة جميعهم (عليهم السلام).

ومن أجل هذه الأمانة العظيمة شهر الإمام علي (عليه السلام) سيفه ذا الفقار في وجه المنحرفين عن الخط الإسلامي، وغمد الإمام الحسن (عليه السلام) حسامه، حقناً للدماء، وصوناً لوحدة المسلمين.

ومن أجل القضية نفسها سار الإمام الحسين (عليه السلام) من مكة إلى كربلاء لابساً عباءة جده (صلّى الله عليه وآله) التي ما طاب له إلا أن يصبغها بدماء وريده الشريف من أجل مصلحة الأمة الإسلامية، سار وقلبه يطفح بعزيمة الإيمان، والعزيمة تشع كضوء يتماوج بألف لون ولون، ثم رفع بصره إلى فوق فإذا بسمة عريضة من الفم الملائكي وكأنها تقول له: سر في درب الشوق فأنت محاط بالعناية الإلهية.13

ومن أجلها أيضاً ناضل الإمام الباقر (عليه السلام) واستشهد بعد أن ساهم ببناء المدرسة الكبرى التي نهض بها ولده الإمام الصادق (عليه السلام) الذي نعيش مع علمه وفكره ومنهجه في هذه الأيام المباركة ونستلهم من جهوده النضالية، وسيرته المثالية، وأخلاقه المحمدية.

ومن أجل القضية نفسها كافح الإمام الكاظم (عليه السلام) فقام بعد أبيه (عليه السلام) بإدارة شؤون المدرسة التي خرّجت ألمع كوكبة من كواكب العلماء الجهابذة. وصبر على الأحداث الجسام، والمحن الشاقة التي لاقاها من طغاة عصره لعنهم الله.

لقد كانت القضية واحدة، والمسؤولية واحدة، والهدف واحداً، ولكن التعبير جاء مع كل إمام من كواكب الإسلام المشرقة بلون ميّزه عن الآخر وذلك حسب الظروف السياسية والاجتماعية المحدقة به. فشكراً جزيلاً لجهودكم المباركة التي حرّكت في نفسي شوقاً سامياً ألمظ به طعماً لذيذاً من لقاح العنفوان والكرامة تحيى بهما كل النفوس التي تأبى الذل والهوان، وترغب في صون الكرامة الإنسانية، والرسالة الإسلامية على مدى الزمان.

آجركم الله وأمدكم بثوب العافية وطول العمر.

حسين إبراهيم الحاج حسن

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

مهما تحلّى الباحث باطلاع واسع في علم النفس، ومهما أوتي من براعة في علم الاجتماع يسمح له تحليل الواقع النفسي، وإعطاء صورة حيّة عن تركيب الشخصية الإنسانية وعناصر سلوكها وإمكاناتها، فإنّه مهما بلغ من التفوّق في هذا المجال فلا يستطيع أن يلم إلماماً شاملاً بواقع أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، ويكشف عن جوهر حياتهم، وأبعاد نزعاتهم، بما لهم من ظواهر ذاتية وإبداعات فردية.

والواقع أن ما أثر عنهم من صفات مميّزة، ونزعات فذّة في سلوكهم الشخصي والاجتماعي يجعلهم في أعلى مراتب الإنسانية. وهذه الظاهرة تجدها متمثّلة في سلوكهم النبيل الذي بلغوا به أعلى درجات الإنسانية هذه الظاهرة من نزعات الإمام موسى (عليه السلام) وهي الصبر على المحن والخطوب المبرحة والمستمرة التي

لاقاها من طغاة عصره، فقد أمعنوا في اضطهاده والتنكيل به، فاعتقله هارون الرشيد وزجه في ظلمات السجون زمناً طويلاً، ثم حجبه عن جميع الناس ولم يسمح لأحد بمقابلته، ومع هذا كله، لم يأثر عنه أنه أبدى أي تذمّر أو سأم أو شكوى، وإنما حسب ذلك من ضروب النعم التي تستحق الشكر لله لتفرغه لعبادته، وانقطاعه لطاعته، فكان وهو في السجن يقضي نهاره صائماً، وليله قائماً. وهو جذلان بهذه المناجاة، وبهذا الاتصال الروحي بالله العزيز الرحيم وهذا ما أجمع عليه المترجمون فقالوا انه كان من أعظم الناس عبادة، وأكثرهم طاعة لله، حتى أصبح له ثفنات كثفنات البعير من كثرة السجود، كما كانت لجده الإمام السجاد من قبل فلقب بذي الثفنات، وقد أدلى الفضل بن الربيع بحديث له عن عبادته (عليه السلام) حينما كان سجيناً في داره.

فماذا نستطيع تعليل هذا الصبر؟ لم يكن سوى الإيمان العميق بالله تعالى، والتجرد من هذه الدنيا الفانية، والإقبال على الدار الآخرة. حتى أن هارون الظالم بهر بما رآه من تقوى الإمام وكثرة عبادته، وتحمّله هذه الخطوب الثقيلة بصبر وهدوء. فقال متعجباً:

(إنه من رهبان بني هاشم)!!

ولما كان مسجوناً (عليه السلام) في بيت السندي بن شاهك وكل أوقاته عبادة وسجود، كانت عائلة السندي تطل عليه فترى هذه السيرة الزكيّة التي تحاكي سيرة الأنبياء، ممّا دفع شقيقة السندي إلى اعتناق فكرة الإمامة، وحفيد السندي من أعلام الشيعة في عصره إنها سيرة نبوية عريقة تملك القلوب والمشاعر، مترعة بجميع معاني النبل والزهد والسمو والإقبال على الله تعالى.

وهناك صفة أخرى من صفات شخصيته الكريمة، وهي الصمود في وجه الظلم والطغيان، وانطلاقه في ميادين الجهاد المقدّس؛ فقد حمل لواء المعارضة على حكام عصره الطغاة الذين استباحوا جميع حرمات الله، واستبدوا بأرزاق الأمة وحقوقها الشرعية، واستهابوا بكرامة الإسلام، فنبوا حكمهم على الظلم والجور والاستبداد وإرغام الناس على ما يكرهون.. ومن ثم كانت محنة أهل البيت (عليهم السلام) الشاقة جداً فإنّهم بحكم موقعهم ودورهم القيادي الشرعي للأمة مسؤولون عن رعايتها وصيانتها وإنقاذها ممّا ألم بها من المحن الثقيلة، والخطوب الجسام، فأعلنوا معارضتهم الإيجابية تارة، والسلبية أخرى السياسية ملوك عصرهم، فذاقوا من جراء ذلك جميع ألوان الظلم والقهر والاضطهاد، حتى انتهت حياتهم الكريمة ما بين مسموم ومسجون ومقتول، كل ذلك من أجل مصلحة المسلمين وإصلاح أمة جدهم الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله)، والانطلاق بالحكام إلى سياسة العدل الخالص، وتطبيق أحكام القرآن الكريم على واقع الحياة.

وقد تجلّى ذلك الصمود الفذ عند الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) بإصراره البالغ على شجب سياسة هارون الرشيد، وعدم الاعتراف بشرعية خلافته، فأصرّ على هذا الموقف الشريف حتى لفظ أنفاسه الأخيرة في السجون، فلم يصانع، ولم يدار أحداً منهم، ولو سايرهم لأغدقوا عليه الأموال الطائلة ليسكتوا صوت الحق في صدره؛ لكنه آثر رضى الله وطاعته على كل شيء، وأبى إلا أن يساير موكب الحق، ولا يشذ عما جاء به الإسلام من مقارعة الظلم، ومقاومة أئمة الجور والطغيان مهما كلّف الثمن.

وقد حاول يحيى البرمكي (رئيس حكومة هارون) أن يتوسّط في أمر إطلاق سراح الإمام من السجن، شرط أن يعتذر لهارون ويطلب منه العفو حتّى يخلّي سبيله، فأصرّ الإمام (عليه السلام) على الامتناع وعدم الاستجابة له.

هذا ما تميز به موقف الإمام (عليه السلام) بالشدّة والصمود مع هارون وغيره من ملوك عصره، وهو موقف أبيه وجده من قبله الأئمة المعصومين الذين عبّر عن موقفهم سيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) فقال:

(إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي).

وهناك ظاهرة أخرى من ظواهر شخصيته الكريمة، وهي السخاء فقد اتفق المؤرخون أنه كان أندى الناس كفّاً، يشعر مع المحتاجين، ويعطي المعوزين، ويصل المحرومين في غلس الليل البهيم، حتى لا يعرفه أحد، ويكون عطاؤه في سبيل الله، وكانت تضرب بصرره المثل.

فكان الناس يقولون: (عجباً لمن جاءته صرار موسى وهو يشتكي الفقر) أنفق جميع ما يملكه على الضعفاء والمنكوبين، وأنقذ الكثيرين منهم من مرارة الفقر والحرمان.

والإمام الكاظم (عليه السلام) دائرة معارف كاملة، فقد أجمع الرواة انه كان يملك طاقات هائلة من العلم، ومخزوناً فكرياً غنياً جداً بمختلف المعارف. يقصده العلماء والرواة من كل حدب وصوب لينهلوا من نمير علمه، وكان لا يفتي بحادثة إلا بادروا إلى تسجيلها وتدوينها، فرووا عنه مختلف العلوم والأبحاث، وبصورة خاصة فيما يتعلّق بالتشريع الإسلامي.

(فقد زوّدهم بطاقات ندية منه، ويعتبر في هذا المجال أوّل من فتق باب الحلال والحرام من أئمة أهل البيت (عليهم السلام))14.

وما يجدر ذكره ما قام به الإمام الكاظم (عليه السلام) بعد أبيه الإمام الصادق (عليه السلام) من إدارة شؤون جامعته العلمية التي تعتبر أول مؤسسة ثقافية في الإسلام، وأوّل معهد تخرجت منه كوكبة من كبار العلماء، في طليعتهم أئمة المذاهب الإسلامية. فالإمام الشافعي يعتقد أن حبهم وسلوك منهجهم العدل.. وهم حبل الله المتين الذي ينير الطريق للمتمسك بهم إلى رضوان الله عز وجل وهو يرجو أن يظفره حبهم فقال:

آل النبي ذريعتي***وهم إليه وسيلتي

أرجو بهم أعطى غداً***بيدي اليمين صحيفتي

والإمام احمد بن حنبل سأله عبد الله ابنه عن التفضيل بين الخلفاء الراشدين فقال: أبو بكر، وعمر، وعثمان، ثم سكت. فسأله عبد الله: يا أبت!! أين علي بن أبي طالب؟ قال: (هو من أهل البيت لا يقاس به هؤلاء)15.

أما عن فلسفة الحكم عند الأمويين وعند العباسيين فكانت تهدف إلى الأثرة والاستغلال وإشباع الرغبات في الجاه والسلطان، ولم يؤثر عنهم أنهم قاموا بعمل إيجابي في صالح المجتمع الإسلامي، أو ساهموا في بناء الحركة الفكرية والاجتماعية على ضوء ما يهدف إليه الإسلام في بعث التطور الثقافي والإداري والاقتصادي لجميع شعوب الأرض. ففي هذا الجو السياسي والاجتماعي الصعب تميز موقف الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) بالشدة والصرامة في شجب الظلم، وقول كلمة الحق، فكان من الأئمة اللامعين في علمه وعمله على نشر الثقافة الإسلامية، وإبراز الواقع على حقيقته.

يضاف إلى قدراته الفذة التي لا تحصى: حلمه وعلمه وكظمه الغيظ وقد أجمع المؤرخون أنه كان يقابل الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، شأنه شأن جدّه الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله) وقد قابل جميع ما لاقاه من أذى وظلم من الحاقدين عليه بالصبر والصفح الجميل حتى لقب بالكاظم، وكان ذلك من أشهر ألقابه.

وهكذا إذا استعرضنا مقوّمات الإمام (عليه السلام) الفذة وكل ما أثر عنه في ميادين السلوك والأخلاق، فإنا نجده حافلاً بكل معاني الإنسانية، ومقوّمات بناء الأمة الإسلامية، التي عسى أن ألم ببعض جوانبها المشرقة والخيرة والمعطاء.

الوليد المبارك

عاش الإمام الصادق (عليه السلام) مع زوجته حميدة16 حياة بيتية هادئة حافلة بالمودّة والمسّرات. وفي فترات تلك المدة السعيدة عرض لها حمل وسافر الإمام أبو عبد الله إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، فحمل زوجته معه للاطمئنان على صحتها في تلك الفترة. وبعد الانتهاء من مراسم الحج قفلوا راجعين إلى المدينة المنورة، فلما انتهوا إلى الأبواء17 أحست حميدة بالطلق، فأرسلت خلف الإمام (عليه السلام) تخبره بالأمر، وكان عند ذلك يتناول طعام الغذاء مع جماعة من أصحابه، فلما وافاه النبأ السعيد قام مبادراً إليها، فلم يلبث قليلاً حتى وضعت حميدة سيّداً من سادات المسلمين، وإماماً من أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

إنه يوم سعيد، يوم مشرق أشرقت به الدنيا بهذا المولود المبارك فكان باراً بالناس، عاطفاً على الفقراء منهم، لكنه كان أكثرهم عناءً وأكثرهم محنة في سبيل الله.

بادر الإمام الصادق (عليه السلام) فتناول وليده الذي يأمل به أملاً باسماً فأجرى عليه مراسم الولادة الشرعيّة، فأذّن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، وما زالت هذه الطريقة تُحتذى عند جميع المسلمين المؤمنين.

لقد كانت أول كلمة طيّبة قرعت سمعه كلمة التوحيد التي تتضمن الإيمان بكل ما له من معنى.

عاد الإمام الصادق إلى أصحابه والبسمة تعلو ثغره، فبادره أصحابه قائلين: (سرّك الله، وجعلنا فداك، يا سيدنا ما فعلت حميدة؟) فبشّرهم بمولوده المبارك قائلاً لهم: (لقد وهب الله لي غلاماً، وهو خير من برأ الله).

أجل انه من أئمة أهل البيت المعصومين، وخير من برأ الله علماً وتقوى وصلاحاً في الدين، وهذا ما أحاط به الإمام الصادق أصحابه علماً بأنه الإمام الذي فرض الله طاعته على عباده قائلاً لهم:

(فدونكم، فوالله هو صاحبكم)18.

وكانت ولادته في الأبواء سنة 128هـ وقيل سنة 129هـ19 وذلك في أيام حكم عبد الملك بن مروان.

وقال الطبرسي رحمه الله: ولد أبو الحسن موسى (عليه السلام) بالأبواء، منزل بين مكة والمدينة لسبع خلون من صفر سنة ثمان وعشرين ومائة20.

تكريم الوليد

بعد فترة وجيزة ارتحل أبو عبد الله عن الأبواء متجهاً إلى يثرب وفور وصوله مدّ المائدة، وأطعم الناس ثلاثة أيام تكريماً لوليده المبارك (الكاظم) 21 وبدأت وفود من شيعته تتوافد عليه لتهنئته بمولوده، وتشاركه في فرحته الكبرى.

طفولته زاكية مميّزة

تدرّج الإمام موسى بن جعفر في طفولة زاكية مميزة، فتربّى في حجر الإسلام، ورضع من ثدي الإيمان، وتغذى من عطف أبيه الإمام الصادق، حيث أغدق عليه أشعة من روحه الطاهرة وأرشده إلى عادات الأئمة الشريفة وسلوكهم النيّر، فالتقت في سنّه المبكر جميع عناصر التربية الإسلامية السليمة، حتى أحرز في صغره جميع أنواع التهذيب والكمال والأخلاق الحميدة، ومن شبّ على شيء شاب عليه. هذه الطفولة المميزة استقبلها الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) وهو ناعم البال بحفاوة وتكريم خاص؛ فأبوه أغدق عليه عطفاً مستفيضاً، وحمل له من الحب ما لا يحمله لغيره، حيث قدّمه على بقية ولده، فاندفع قائلاً: (الحمد لله الذي جعلك خلفاً من الآباء، وسروراً من الأبناء، وعوضاً عن الأصدقاء)22 ونتيجة هذا الحب الأبوي المميز أخذت جماهير المسلمين تقابل الإمام موسى بالعناية والتكريم، وجماهير الشيعة بصورة خاصة، لأنّهم يعتقدون أن مقام الإمامة كمقام النبوة،

بعيداً عن المحاباة، سوى ما يتصل بتأييد الفضيلة والإشادة بالإيمان، وعلى ضوء ذلك أعلن الإمام الصادق حبّه الكبير ومودته الوثيقة لولده الحبيب لأنه رأى فيه ملامح صادقة عنه، ومواهب مبكرة، وعبقرية خاصة، تؤهله لمنصب الإمامة على أمّة جدّه (صلّى الله عليه وآله).

أوصافه

وصف رواة الأثر ملامح صورة الإمام موسى بن جعفر فقالوا: كان أسمر اللون23، وقالوا: كان ربع القامة، كثّ اللحية، حسن الوجه، نحيف الجسم24.

أما عن صفاته الخلقية: فهو ابن الأوصياء، حاكي في هيبته ووقاره هيبة الأنبياء، فما رآه أحد إلا هابه وأكبره لجلالة قدره، وسموّ مكانته، وحسن سيرته، وكريم أخلاقه.

ومرّة التقى به شاعر البلاط العباسي أبو نواس فانبهر بأنواره فانطلق يصوّر هيبته ووقاره بأبيات قال فيها:

إذا أبصرتك العين من غير ريبة***وعارض فيك الشك أثبتك القلب25

ولو أن ركباً أمموك لقادهم***نسيمك حتى يستدل بك الركب

جعلتك حسبي في أموري كلها***وما خاب من أضحى وأنت له حسب

ولا يخفى أن هذه الأبيات كانت يقظة من يقظات الضمير، ونسمة علوية من نسيمات الروح، ذلك أن أبا نواس الذي كان يعيش على موائد بني العباس، والذي قضى معظم أيام حياته في اللهو المجون، قد انبرى إلى هذا المديح العاطر في الوقت الذي كان يمدح أهل البيت ينال عقوبة كبرى قد تؤدي به إلى الموت! لكن مثالية الإمام وواقعيته التي لا ندّ لها في عصره، قد سيطرت على روح الشاعر العباسي وأنسته النتائج.

كنيته وألقابه

كان يكنّى بعدة أسماء أشهرها: أبو الحسن، قال الشيخ المفيد: كان يكنّى أبا إبراهيم، وأبا الحسن، وأبا علي، ويعرف بالعبد الصالح26.. وقال ابن الصباغ المالكي: أما كنيته فأبو الحسن، وألقابه كثيرة أشهرها: الكاظم، ثم الصابر، والصالح، والأمين27، وألقابه تدل على مظاهر شخصيته، ودلائل عظمته، وهي عديدة منها: الزاهر، لأنه زهر بأخلاقه الشريفة، وكرمه الموروث عن جدّه الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله).

قال ابن شهر آشوب عند ذكره لألقابه: (... والزاهر وسمي بذلك لأنه زهر بأخلاقه الشريفة وكرمه المضيء التام)28.

والكاظم: لقب بذلك لما كظمه عما فعل به الظالمون من التنكيل والإرهاق... ويقول ابن الأثير (إنه عرف بهذا اللقب لصبره ودماثة خلقه، ومقابلته الشرّ بالإحسان)29.

والصابر: لأنه صبر على الخطوب والآلام التي تلقاها من حكام الجور والطغاة، الذين قابلوه بجميع ألوان الإساءة والمكروه30.

والسيّد: لأنه من سادات المسلمين، وإمام من أئمتهم.

والوفي: لأنه أوفى الإنسان في عصره، فقد كان وفيّاً بارّاً بإخوانه وشيعته، وبارّاً حتى بأعدائه والحاقدين عليه.

ذو النفس الزكية: لقّب بهذا اللقب اللطيف لصفاء ذاته، ونقاوة سريرته البعيدة كل البعد عن سفاسف المادة، ومآثم الحياة، نفس أبيّة زكيّة، طاهرة، كريمة، سمت وعلت حتى قلّ نظيرها.

باب الحوائج: هذا اللقب كان من أشهر ألقابه ذكراً، وأكثره شيوعاً، انتشر بين العام والخاص، حتى أنه ما أصاب أحدهم مكروه إلا فرّج الله عنه بذكره الإمام الكاظم، وما استجار بضريحه أحد إلا قضيت حوائجه، ورجع مثلوج القلب، مستريح الضمير ممّا ألّم به من طوارق الزمن التي لابدّ منها.

وقد آمن بذلك جمهور المسلمين على اختلاف مذاهبهم.

يقول أبو علي الخلال شيخ الحنابلة وعميدهم الروحي: (ما همّني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر إلا سهّل الله تعالى لي ما أحب)31.

وقال الإمام الشافعي: (قبر موسى الكاظم الترياق المجرّب)32.

كان الإمام موسى الكاظم في حياته ملجأ لعموم المسلمين، كما كان كذلك بعد موته حصناً منيعاً لمن استجار به من عموم المسلمين، لأن الله سبحانه وتعالى عزّ اسمه منحه حوائج المسلمين المستجيرين بضريحه الطاهر في بغداد.

وقد روى الخطيب البغدادي قضية كان فيها شاهد عيان33، عندما شاهد امرأة مذهولة، مذعورة، فقدت رشدها لكثرة ما نزل بها من الهموم، لأنها أخبرت أن ولدها قد ارتكب جريمة، وألقت عليه السلطة القبض وأودعته في السجن ينتظر الحكم القاسي والظالم. فأخذت تهرول نحو ضريح الإمام مستجيرة به، فرآها بعض الأوغاد، الذي لا يخلو الزمان منهم، فقال لها: إلى أين؟

- إلى موسى بن جعفر، فإنّه قد حُبِس ابني.

فقال لها بسخرية واستهزاء: (إنه قد مات في الحبس).

فاندفعت تقول بحرارة بعد أن لوّع قلبها بقوله:

(اللّهم بحق المقتول في الحبس أن تريني القدرة).

فاستجاب الله دعاءها، وأطلق سراح ابنها، وأودع ابن المستهزئ بها في ظلمات السجن بجرم ذلك الشخص.

فالله سبحانه وتعالى القادر العليم والقاهر العظيم قد أراها القدرة لها ولغيرها، كما أظهر كرامة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام، فما خاب من دعاهم، وما فشل من استجار بهم. ثم يروي الخطيب البغدادي عن محنة ألّمت به فاستجار بالإمام موسى وكشف عنه الهمّ والغمّ. فيقول: (وأنا شخصيّاً قد ألّمت بي محنة من محن الدنيا كادت أن تطوي حياتي، ففزعت إلى ضريح موسى بن جعفر بنيّة صادقة، ففرّج الله عنّي، وكشف ما ألّم بي.

ولا يَشِكّ في هذه الظاهرة التي اختصّ بها الإمام إلا من ارتاب في دينه وإسلامه.

لقد آمن جميع المسلمين الأبرار بالأئمة الأطهار منذ فجر التاريخ ولم يزالوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً في أن أهل البيت (عليهم السلام) لهم المقام الكريم عند الله، وإنه يستدفع بهم البلاء، وتستمطر بهم السماء.

روى الكليني عن محمد بن جعفر الكوفي، عن محمد بن عيسى بن عبيد، عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: تقول ببغداد: (السلام عليك يا وليّ الله، السلام عليك يا حجة الله، السلام عليكَ يا نور الله في ظلمات الأرض، السلام عليك يا من بدا لله في شأنه، أتيتك عارفاً بحقك معادياً لأعدائك فاشفع لي عند ربّك) وادع الله وسلْ حاجتك، قال: وتسلّم بهذا على أبي جعفر (عليه السلام).34

ولا ننسى قصيدة الفرزدق العصماء التي ندرّسها لطلاّبنا في المدارس والجامعات التي مدح بها الإمام زين العابدين وقال فيها:

من معشر حبهم دين وبغضهم***كفر وقربهم منجى ومعتصم

يستدفع السوء والبلوى بحبهم***ويستزادُ به الإحسان والنعم

فالله عزّ وجلّ منح أهل البيت جميل ألطافه، وخصّهم بالمزيد من كراماته، أحياءً وأمواتاً.

ونذكر هنا كوكبة من الشعراء والأدباء قد أثقلت كواهلهم كوارث الدهر ففزعوا إلى ضريح الإمام متوسلين به إلى الله تعالى في رفع محنهم، وكشف ما ألّم بهم من المكروه، ففرّج الله عنهم ولو أردنا أن نذكر ما أثر عنهم في ذلك لبلغ مجلداً ضخماً.

لكنا نذكر بعضاً منهم الحاج محمد جواد البغدادي الذي سعى إلى ضريح الإمام في حاجة يطلب قضاءها فقال:

يا سميّ الكليم جئتك أسعى***نحو مغناك قاصداً من بلادي

ليس تُقضى لنا الحوائج إلا***عند باب الرجاء جد الجواد35

فجاء عباس البغدادي وخمسها بقوله:

لم تزل للأنام تحسن صنعا***وتجير الذي أتاك وترعى

وإذا ضاق الفضا بي ذرعاً***يا سميّ الكليم جئتك أسعى

والهوى مركبي وحبّك زادي

أنت غيث للمجدبين ولولا***فيض جدواكم الوجود اضمحلا

قسماً بالذي تعالى وجلا***ليس تُقضى لنا الحوائج إلا

عند باب الرجاء جد الجواد

وممن نظم في ذلك الشاعر المرحوم السيد عبد الباقي العمري فقال:

لذ واستجر متوسلاً***إن ضاق أمرك أو تعسّر

بأبي الرضا جد الجوا***د محمد موسى بن جعفر36

نقش خاتمه

يدل نقش خاتمه على مدى تعلّقه بالله عزّ وجلّ، ومدى انقطاعه إليه سبحانه وتعالى فكان: (الملك لله وحده).

ويا ليت مجتمع عصره ومجتمع عصرنا اليوم يعقلون هذا الشعار، ويعملون به، لزال الطمع والجشع وحب التملك لهذه الدنيا الفانية، ولضعف وهج الأنانية، ووهنت جاذبيتها في نفوسهم.

أبناؤه

شجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، أنجب الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) ذرية طاهرة من نسل طيّب، فكانوا من خيرة أبناء المسلمين في عصره يتصفون بالتقوى والورع والخير والصلاح والابتعاد عن مآثم الحياة وأباطيلها.

لقد أنشأهم الإمام نشأة دينية خالصة، ووجّههم وجهة صحيحة سليمة، وسكب في نفوسهم الإيمان بالله، والتفاني في سبيل العقيدة، والعمل على قول كلمة الحق، والقيام بها مهما كلّف الثمن. قال ابن الصباغ: (إن لكل واحد من أولاد أبي الحسن موسى (عليه السلام) فضلاً مشهوداً)37.

اختلف النسابون في عدد أولاد الإمام موسى الكاظم اختلافاً كثيراً منهم من قال: ثلاثة وثلاثون، الذكور منهم 16 والإناث 17.

ومنهم من قال: سبعة وثلاثون، الذكور 18 والإناث 19.

ومنهم من قال: ثمانية وثلاثون، الذكور 20 والإناث 18.38

وقال الطبرسي: كان له سبعة وثلاثون ولداً ذكراً وأنثى. علي بن موسى الرضا (عليه السلام)، وإبراهيم والعباس والقاسم من أمهات متعددة.

وأحمد، ومحمد، وحمزة من أم واحدة.

وإسماعيل، وجعفر، وهارون، والحسن من أم واحدة.

وعبد الله، وإسحاق، وعبيد الله، وزيد، والحسن، والفضل، وسليمان من أمهات متعددة.

وفاطمة الكبرى، وفاطمة الصغرى، ورقية، ومكية، وأم أبيها، ورقية الصغرى وكلثم، وأم جعفر، ولبانة، وزينب، وخديجة وعلية، وآمنة، وحسنة، وبريهة، وعائشة، وأم سلمة، وميمونة، وأم كلثوم من أمهات متعددة.

وكان أحمد بن موسى كريماً ورعاً وكان الإمام يحبّه فوهب له ضيعته المعروفة باليسيرية، ويقال أنه أعتق ألف مملوك.

وكان محمد بن موسى (عليه السلام) شجاعاً كريماً، وتقلّد الإمرة على اليمن في عهد المأمون من قبل محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) الذي بايعه أبو السرايا في الكوفة ومضى إليها ففتحها وأقام بها مدة إلى أن كان من أمر أبي السرايا ما كان، وأخذ الأمان من المأمون.

ولكل واحد من أبناء أبي الحسن موسى (عليه السلام) فضل ومنقبة وكان الرضا مشهوراً بالتقدم ونباهة القدر، وعظم الشأن، وجلالة المقام بين الخاص والعام39.

إخوانه (عليهم السلام)

لقد ذكرت عن إخوانه (عليه السلام) في كتاب (الإمام الصادق عطرة النبوة ومنهج حياة) في باب أولاد الإمام الصادق، ولكن سوف نورد باختصار عنهم حتى لا يخلو هذا الكتاب من ذكرهم العطر.

1- إسماعيل بن جعفر (عليه السلام): كان أكبر أولاده، وكان الإمام الصادق يحبّه حباً جمّاً. قال الشيخ المفيد: إنه مات في حياة أبيه بالعريض، وحمل على رقاب الرجال إلى أبيه بالمدينة حتى دفن بالبقيع؛ روي أن أبا عبد الله حزن عليه حزناً شديداً، وأمر بوضع سريره على الأرض عدة مرات قبل دفنه، وكان يكشف عن وجهه وينظر إليه، ويريد بذلك تحقيق أمر وفاته عند الظانين خلافته له من بعده، وإزالة الشبهة عنهم في حياته.40

2- عبد الله بن جعفر (عليه السلام): كان أكبر إخوانه بعد إسماعيل.

3- علي بن جعفر (عليه السلام): هو المحدث المشهور صاحب المسائل، عن أخيه موسى (عليه السلام)، عاش دهراً طويلاً حتى أدرك الإمام الجواد (عليه السلام).

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي رضوان الله عليه: علي بن جعفر أخو موسى بن جعفر بن محمد (عليهم السلام)، جليل القدر، ثقة، له كتاب المناسك ومسائل لأخيه موسى الكاظم بن جعفر (عليهم السلام) سأله عنها.41

4- إسحاق بن جعفر (عليه السلام): الملقب بالمؤتمن، زوج السيّدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن السبط (عليه السلام) صاحبة الروضة المشهورة بالقاهرة المعروفة بالست نفيسة؛ سافر مع زوجته إلى مصر وأقام بالفسطاط.

قال الشيخ المفيد: كان إسحاق بن جعفر من أهل الفضل والصلاح والورع والاجتهاد، قد روى عنه الناس الحديث والآثار وكان ابن كاسب يقول إذا حدث عنه: حدّثني الثقة الرضي إسحاق بن جعفر وكان إسحاق يقول بإمامة أخيه موسى بن جعفر (عليه السلام).42

5- عباس بن جعفر: قال الشيخ المفيد: كان العباس بن جعفر رحمه الله فاضلاً نبيلاً.43

6- محمد بن جعفر (عليه السلام): من الزهّاد والعبّاد، كان يسكن مكة ويروي بها الأحاديث، وفي أيام ظهور الفتنة بين الأمين والمأمون خرج في مكة وادعى الخلافة، أرسل إليه المأمون جيشاً بإمارة الجلودي، فلما وصل جيش المأمون مكة خلع نفسه وبايع المأمون. ثم سافر إلى خراسان وأقام بمرو، ولما وصل المأمون جرجان قتله بالسم وكان قبره معروفاً بجرجان في القرن الرابع الهجري.

بوّابه:

هو محمد بن الفضل، وفي المناقب: المفضل بن عمر.

شاعره

السيد الحميري.

ملوك عصره

1- المنصور 754م - 775م.

2- المهدي: 775م - 785م.

3- الهادي: 785م - 786م.

4- هارون الرشيد: 786م - 809م.

مدة إمامته

خمس وثلاثون سنة.

النص عليه بالإمامة

أجمعت الروايات بالنص عليه بالإمامة من الله تعالى، كخبر اللوح، وأن الإمام لا يكون إلا الأفضل في العلم والزهد والعمل، وأنه معصوم كعصمة الأنبياء (عليهم السلام).

والنصوص المروية على إمامته عن أبيه أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قد رواها شيوخ أصحاب أبي عبد الله وخاصته، وثقاته الفقهاء الصالحون رضوان الله عليهم.

قال محمد بن الوليد: سمعت علي بن جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد (عليه السلام) يقول لجماعة من خاصته، وأصحابه: استوصوا بابني موسى خيراً، فإنه أفضل ولدي، ومن أخلّفه من بعدي، وهو القائم مقامي، والحجّة لله تعالى على كافة خلقه من بعدي44.

وروى منصور بن حازم، قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) بأبي أنت وأمي، إن الأنفس يغدى عليها ويراح، فإذا كان ذلك فمن؟ فقال أبو عبد الله (عليه السلام): إذا كان ذلك فهو صاحبكم وضرب على منكب أبي الحسن الأيمن، وهو فيما أعلم يومئذ خماسي، وعبد الله بن جعفر جالس معنا)45.

وقال سليمان بن خالد: دعا أبو عبد الله أبا الحسن يوماً، ونحن عنده، فقال لنا: عليكم بهذا، فهو والله صاحبكم بعدي46.

ومن الغريب ما يدعيه غير الشيعة من أن النبي (صلّى الله عليه وآله) مات ولم يوص إلى أحد من بعده يقوم مقامه ويسد فراغه، فترك الأمة من بعده بلا إمام يدير أمرها، ويجمع شملها، ويرشد ضالها، ويقيم لها الحدود، ويقوّم الاعوجاج، ويوضح السنن. وقد أجمعت الأمة على أنه (صلّى الله عليه وآله) كان يستخلف على المدينة إذا أراد سفراً، ولا يرسل جيشاً حتى يعيّن له قائداً، وربما عيّن لجيوشه أكثر من قائد.47

ولو أنصف الناس الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لاكتفوا بنص الغدير وحده ـ دون غيره من النصوص الكثيرة ـ فقد شهد جل المسلمين بيعة يوم الغدير، وشاهدوا بأم أعينهم المراسم التي أجراها الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) في ذلك اليوم، وما نزل من القرآن الكريم.

ومن العجيب أيضاً أن تنسى الأمة بعد وفاة الرسول (صلّى الله عليه وآله) ذلك اليوم والعهد قريب، والرسول (صلّى الله عليه وآله) بعد لما يقبر، والشهود حضور.

وكيفما كان فالإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وحده المنصوص عليه بالخلافة من قبل الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) وكذلك أولاده عليهم أزكى الصلاة وأفضل السلام.

وقد التزم الأئمة (عليهم السلام) في نص بعضهم على بعض، السابق على اللاحق والوالد على ولده، إقامة للحجة، وإعذاراً للأمة.48

هارون الرشيد يعترف بإمامة الكاظم (عليه السلام)

قال المأمون: كنت أجرأ ولد أبي عليه، وكان المأمون متعجباً من إكبار أبيه لموسى بن جعفر وتقديره له. قال: قلت: لأبي: يا أمير المؤمنين، من هذا الرجل الذي أعظمته وأجللته، وقمت من مجلسك إليه فاستقبلته وأقعدته في صدر المجلس، وجلست دونه؟ ثم أمرتنا بأخذ الركاب له؟

قال: هذا إمام الناس، وحجة الله على خلقه، وخليفته على عباده فقلت: يا أمير المؤمنين، أو ليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟

فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حق، والله يا بني إنه لأحق بمقام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مني ومن الخلق جميعاً، والله لو نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك، فإن الملك عقيم.49

مناقبه وفضائله (عليه السلام)

مناقب الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) بحر زاخر لا يمكن حصره أو الخوض فيه إلى النهاية، لكننا سوف نذكر بعض هذه المناقب الكريمة على سبيل الذكر لا الحصر؛ من هنا كان قول محمد بن صلحة:

(أما مناقبه فكثيرة، ولو لم يكن منها إلا العناية الربانية لكفاه ذلك منقبة)50.

1- العلم

فقد روى عنه العلماء أكثر فنون العلم من علم الدين وغيره ممّا ملأ بطون الكتب، وألّفوا في ذلك المؤلفات الكثيرة المروية عنهم بالأسانيد المتصلة.

جاء في تحف العقول عن الحسن بن علي بن شعبة قال أبو حنيفة51:

حججت في أيام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) فلما أتيت المدينة دخلت داره فجلست في الدهليز انتظر إذنه إذ خرج صبي فقلت: يا غلام ممن المعصية؟ فقال: أن السيئات لا تخلو من إحدى ثلاث:

أ. إما أن تكون من الله وليست منه فلا ينبغي للرب أن يعذب العبد على ما لا يرتكب.

ب. وإما أن تكون منه ومن العبد وليست كذلك فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف.

ج. وإما أن تكون من العبد وهي منه، فإن عفا فكرمه وجوده، وإن عاقب فبذنب العبد وجريرته.

قال أبو حنيفة فانصرفت ولم ألق أبا عبد الله، واستغنيت بما سمعت.

قال الشيخ المفيد في الإرشاد عن أبي الحسن موسى (عليه السلام): أكثر الناس في الرواية عنه، وكان أفقه أهل زمانه وأحفظهم لكتاب الله، وأحسنهم صوتاً بتلاوة القرآن.

وقال علي بن شعبة الحراني في تحف العقول: سأل رجل موسى بن جعفر عن الجواد فقال: إن كنت تسأل عن المخلوقين فإن الجواد الذي يؤدي ما افترض الله عليه والبخيل من بخل بما افترض الله، وإن كنت تعني الخالق، فهو الجواد إن أعطى، وهو الجواد إن منع، أعطاك لأنه إن أعطاك ما ليس لك وإن منعك منعك ما ليس لك.

2- الحلم

جاء في مقاتل الطالبيين قال أبو الفرج بسنده عن يحيى بن الحسن: كان موسى بن جعفر إذا بلغه عن الرجل ما يكره بعث إليه بصرّة دنانير وكانت صراره ما بين الثلاثمائة إلى المائتين إلى المائة دينار. وكانت صرار موسى مثلاً شائعاً بين الناس.

وجاء في الإرشاد للشيخ المفيد: أخبرني الشريف أبو محمد الحسن بن محمد عن جده عن غير واحد من أصحابه ومشايخه أن رجلاً من ولد عمر بن الخطاب كان بالمدينة يؤذيه ويشتم علياً. فقال له بعض أصحابه: دعنا نقتله. فنهاهم عن ذلك أشد النهي وزجرهم أشد الزجر. وسأل عن العمري فذكر له انه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب إليه في مزرعته فوجده فيها، فدخل المزرعة بحماره فصاح به العمري لا تطأ زرعنا! فتوطأه بالحمار حتى وصل إليه فنزل فجلس عنده، وضاحكه وقال له: كم غرمت في زرعك؟ قال له: مائة دينار، قال الإمام: فكم ترجو أن تصيب؟ قال: أنا لا اعلم الغيب. قال: إنما قلت لك كم ترجو إن يجيئك فيه؟ قال: أرجو أن يجيئني مائتا دينار فأعطاه الإمام (عليه السلام) ثلاثمائة دينار. وقال: هذا زرعك على حاله فقام العمري وقبل رأسه وانصرف. فراح إلى المسجد فوجد العمري جالساً، فلما نظر إليه قال: الله أعلم حيث يجعل رسالته. فوثب أصحابه فقالوا له: ما قصتك؟ قال كنت تقول خلاف هذا فخاصمهم وشاتمهم وجعل يدعو لأبي الحسن موسى كلما دخل وخرج، فقال أبو الحسن موسى لحاشيته الذين أرادوا قتل العمري: أيما كان خيراً ما أردتم أو ما أردت أن أصلح أمره بهذا المقدار.

3- التواضع ومكارم الأخلاق

مر برجل من أهل السواد دميم المنظر، فسلّم عليه، ونزل عنده وحادثه طويلاً، ثم عرض عليه نفسه في القيام بحاجة إن عرضت له فقيل له: يا ابن رسول الله أتنزل إلى هذا ثم تسأله عن حوائجه وهو إليك أحوج؟ فقال (عليه السلام): عبد من عبيد الله، وأخ في كتاب الله، وجار في بلاد الله، يجمعنا وإياه خير الآباء آدم، وأفضل الأديان الإسلام، ولعل الدهر يرد من حاجتنا إليه فيرانا بعد الزهو عليه متواضعين بين يديه، ثم قال:

نواصل من لا يستحق وصالنا***مخافة أن نبقى بغير صديق52

وروي عن الحسن بن علي بن حمزة عن أبيه قال: رأيت أبا الحسن يعمل في أرض وقد استنقعت قدماه في العرق.

فقلت جعلت فداك، أين الرجال؟!

قال: يا علي قد عمل باليد من هو خير مني في أرضه ومن أبي.

فقلت: ومن هو؟

فقال: رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) وآبائي كلهم كانوا قد عملوا بأيديهم، وهو من عمل النبيين والمرسلين والأوصياء والصالحين.53

4- عبادته (عليه السلام)

لقد شهدت له ألقابه على حسن عبادته، وشدة خوفه من الله تعالى، فمن زين المجتهدين، إلى العبد الصالح،والنفس الزكيّة، والصابر، إلى غير ذلك من الألقاب المشيرة إلى صفاته الموقرة، وعبادته المتواصلة؛ ولم يحدثنا التاريخ عن مسجون غير الإمام موسى بن جعفر كان يشكر الله تعالى على ما أتاح له من نعمة التفرغ للعبادة بين جدران السجن، ويحسب ذلك نعمة، وجب بها عليه الشكر.

قال ابن الصباغ المالكي: إن شخصاً من بعض العيون التي كانت عليه في السجن، رفع إلى عيسى بن جعفر أنه سمعه يقول في دعائه: (اللّهم إنك تعلم أني كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك وقد فعلت، فلك الحمد)54.

وعن أبي حنيفة انه دخل على أبي عبد الله (عليه السلام) فقال: رأيت ابنك موسى يصلي والناس يمرون بين يديه.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): ادعوا لي موسى، فدعوه، فقال له في ذلك. فقال: نعم يا أبة، إن الذي كنت أصلّي إليه كان أقرب إليّ منهم، يقول الله تعالى: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فضمه أبو عبد الله إلى نفسه ثم قال: بأبي أنت وأمي يا مودع الأسرار.55

وجاء في كشف الغمة: كان يبكي من خشية الله حتى تخضل لحيته بالدموع وكان إذا قرأ القرآن يحزن ويبكي ويبكي السامعون لتلاوته.56 ولكثرة سجوده كان له غلام يقص اللحم من جبينه، وعرنين أنفه، فقد نظم بعض الشعراء ذلك بقوله:

طالت لطول سجود منه ثفنته***فقرحت جبهة منه وعرنينا

رأى فراغته في السجن منيته***ونعمة شكر الباري بها حينا57

5- كرمه وصدقاته

من أبرز خصائص أئمة أهل البيت (عليهم السلام) البر والإحسان إلى الناس كافة، وبصورة خاصة الطبقة الضعيفة، فكانوا يخصّونهم بجزيل فضلهم، ونبل عطاياهم، حتى كان من منهجهم في الليالي المظلمة هو التطواف على بيوت الفقراء والمساكين بالأغذية والمال وهم لا يعرفونهم.

قال ابن الصباغ المالكي: كان موسى الكاظم (عليه السلام) أعبد أهل زمانه، وأعلمهم وأسخاهم كفاً وأكرمهم نفساً وكان يتفقد فقراء المدينة ويحمل إليهم الدراهم والدنانير إلى بيوتهم والنفقات، ولا يعلمون من أي جهة وصلهم ذلك، ولم يعلموا بذلك إلا بعد موته.58

وقال محمد بن عبد الله البكري: قدمت المدينة أطلب ديناً فأعياني، فقلت لو ذهبت إلى أبي الحسن موسى فشكوت إليه، فأتيته في ضيعته، فذكرت له قضيّتي، فدخل ولم يقم إلا يسيراً حتى خرج إليّ، فقال لغلامه: إذهب، ثم مدّ يده إليّ فرفع إليّ صرة فيها ثلاثمائة دينار، فركبت دابتي وانصرفت.59

كما رووا عن عيسى بن محمد بن مغيث القرطبي قال: زرعت بطّيخاً وقثاءاً وقرعاً في موضع بالجوانية، على بئر يقال لها (أم عظام) فلما قرب الخير، واستوى الزرع بغتني الجراد فأتى على الزرع كله، وكنت غرمت على الزرع وفي ثمن جملين مائة وعشرين ديناراً، فبينما أنا جالس إذ طلع موسى بن جعفر بن محمد، فسلّم ثم قال: أي شيء حالك؟ فقلت: أصبحت كالصريم، بغتني الجراد فأكل زرعي.

قال (عليه السلام) وكم غرمت فيه؟ فقلت: مائة وعشرين ديناراً مع ثمن الجملين.

فقال (عليه السلام): يا عرفة زن لأبي المغيث مائة وخمسين ديناراً، فربحك ثلاثون ديناراً والجملان. فقلت يا مبارك ادخل وادع لي فيها بالبركة. فدخل ودعا وحدثني عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنه قال: تمسّكوا ببقايا المصائب، ثم علقت عليه الجملين وسقيت، فجعل الله فيها البركة وزكت، فبعث منها بعشرة آلاف.60

وقال علي بن عيسى الأربلي61:

(مناقب الكاظم وفضائله ومعجزاته الظاهرة، ودلائله وصفاته الباهرة تشهد أنه افترع قبة الشرف وعلاها، وسماها إلى أوج المزايا فبلغ أعلاها، وذللت له كواهل السيادة فركبها وامتطاها، وحكم في غنائم المجد فاختار صفاياها واصطفاها.

طالت أصوله، فسمت إلى أعلى رتب الجلال، وسمت فروعه فعلت إلى حيث لا تنال، يأتيه المجد من كل أطرافه، ويكاد الشرف يقطر من أعطافه.

فكان كما قال الشاعر:

أتاه المجد من هنا وهنا***وكنا له كمجتمع السيول

السحاب الماطر قطرة من كرمه، والعباب الزاخر نغبة من نغبه، واللباب الفاخر من عد من عبيده وخدمه، كأن الشعرى علّقت في يمينه ولا كرامة للشعرى العبور، وكأن الرياض أشبهت خلائقه ولا نعمى لعين الروضة الممطور.

وهو (عليه السلام) غرّة في وجه الزمان وما الغرر والحجول، وهو أضوأ من الشمس والقمر، وهذا جهد من يقول: بل هو والله أعلى مكانة من الأوصاف وأسمى، وأشرف عرفاً من هذه النعوت وأنمى، فكيف تبلغ المدائح كنه مقداره، أو ترتقي همة البليغ إلى نعت فخاره، أو تجري جياد الأقلام في جلباب صفاته، أو يسري خيال الأوهام في ذكر حالاته؟

كاظم الغيظ، وصائم القيظ، عنصره كريم، ومجده حادث وقديم، وهو بكل ما يوصف به زعيم، الآباء عظام، والأبناء كرام، والدين متين، والحق ظاهر مبين، والكاظم في أمر الله قوي أمين، وجوهر فضله غالٍ ثمين وواصفه لا يكذب ولا يمين، قد تلقى راية الإمامة باليمين، فسما (عليه السلام) إلى الخيرات منقطع القرين، وأنا أحلف على ذلك فيه وفي آبائه وأبنائه (عليهم السلام) باليمين.

كم له من فضيلة جليلة، ومنقبة بعلو شأنه كفيلة، وهي وإن بلغت الغاية بالنسبة إليه قليلة، ومهما عد من المزايا والمفاخر فهي فيهم صادقة، وفي غيرهم مستحيلة. إليهم ينسب العظماء، وعنهم يأخذ العلماء، ومنهم يتعلم الكرماء، وهم الهداة إلى الله فبهداهم اقتده وهم الأدلاء على الله فلا تحل عنهم ولا تنشده، وهم الأمناء على أسرار الغيب، وهم المطهرون من الرجس والعيب، وهم النجوم الزواهر في الظلام، وهم الشموس المشرقة في الأيام،

وهم الذين أوضحوا شعائر الإسلام وعرفوا الحلال من الحرام، من تلق منهم تقل لاقيت سيداً، ومتى عددت منهم واحداً كان بكل الكمالات منفرداً، ومن قصدت منهم حمدت قصدك مقصدا، ورأيت من لا يمنعه جوده اليوم أن يجود غداً، ومتى عدت إليه عاد كما بدا، المائدة والإنعام يشهدان بحالهم، والمائدة والإنعام يخبران بنوالهم، فلهم كرم الأبوة والنبوة، وهم معادن الفتوة والمروءة، والسماح في طبائعهم غريزة، والمكارم لهم شنشنة ونحيزة، والأقوال في مدحهم وإن طالت وجيزة، بحور علم لا تنزف، وأقمار عز لا تخسف وشموس مجد لا تكسف. مدح أحدهم يصدق على الجميع وهم متعادلون في الفخار فكلهم شريف رفيع. بذوا الأمثال طريفهم وتالدهم ولا مثيل، ونالوا النجوم بمفاخرهم ومحامدهم فانقطع دون شأوهم العديل ولا عديل. فمن الذي ينتهي في السير إلى أمدهم وقد سد دونه السبيل، أمن لهم يوم كيومهم أو غدٍ كغدهم، ولو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم صلى الله عليه وآله صلاة نامية الأمداد، باقية على الآباد مدخرة ليوم المعاد، إنه كريم جواد)62.

كل ما صدر عن الأئمة المعصومين (عليهم السلام) من وصايا ورسائل وخطب وشعر كان في سبيل الدعوة الإسلامية والحث على طاعة الله تعالى والدعوة إلى التحلّي بمكارم الأخلاق والتمسك بالفضائل. فكانوا (عليهم السلام) يعملون على تثقيف الأمة الإسلامية وتعليمها وتوعيتها، ويبذلون أقصى الجهود في تقويمها وهدايتها إلى الطريق السليم.

وموضع الشعر كان ينشد عند عامة الناس في التشبيب واللهو والمجون، أما أهل البيت فكانوا ينظمونه في الدعوة إلى الخير والعقيدة الإسلامية، والأخلاق والتحلّي بالفضائل النبيلة. وهذه هي الفوارق التي تميزهم عن غيرهم من الشعراء الآخرين.

جاء في البحار أنه دخل (عليه السلام) وهو طفل على أبيه الإمام الصادق (عليه السلام) وبيده لوح فقال له أبوه يا بني اكتب ما سأمليه عليك:

تنح عن القبيح ولا ترده.

ثم قال: اجزه.

فقال (عليه السلام): ومن أوليته حسناً فزده.

فتابع الإمام الصادق القول:

ستلقى من عدوك كل كيد.

فقال الإمام الطفل (عليه السلام): إذا كان العدو فلا تكده.

فقال: (ذرية بعضها من بعض)63.

وقال (عليه السلام) أيضاً في أفعال العباد:

لم تخل أفعالنا التي نذم بها***إحدى ثلاث حين نبديها

إما تفرّد بارينا بصنعتها***فيسقط اللوم عنا حين نأتيها

أو كان يشركنا فيها فيلحقه***ما كان يلحقنا من لائم فيها

أو لم يكن لآلهي في جنايتها***ذنب فما الذنب إلا ذنب جانيها64

وقال (عليه السلام) في اللجوء إلى الله:

أنت ربي إذ ظمئت إلى الماء***وقوتي إذا أردت الطعاما65

والإمام الكاظم لم يكن شاعراً محترفاً بل كان نظمه للشعر قليلاً جداً. ذكر الشيخ المفيد أبياتاً له تلاها الإمام الرضا (عليه السلام) على المأمون ونسبها (عليه السلام) إلى أبيه:

كن للمكاره بالعزاء مدافعاً***فلعل يوماً لا ترى ما تكره
فلربما استتر الفتى فتنافست***فيه العيون وانه لمموه
ولربما ابتسم الوقور من الأذى***وضميره من حره يتأوّه66

كان (عليه السلام) يعلم كل شيء يدور حوله ولكن عيون المراقبين تترصده دائماً فلم يكن له إلا أن يموه ما يقول حذراً فيبتسم من الأذى المحدق به وضميره من حره يتأوه في صدره. وذكر ذو النون المصري أنه اجتاز أثناء سياحته على قرية تسمى بتدصر فرأى جداراً قد كتبت عليه هذه الأبيات:

أنا ابن منى والمشعرين وزمزم***ومكة والبيت العتيق المعظم
وجدّي النبي المصطفى وأبي الذي***ولايته فرض على كل مسلم
وأمي البتول المستضاء بنورها***إذا ما عددناها عديلة مريم
وسبطا رسول الله عمي ووالدي***وأولاده الأطهار تسعة أنجم
متى تتعلق منهم بحبل ولاية***تفز يوم يجزى الفائزون وتنعم
أئمة هذا الخلق بعد نبيهم***فإن كنت لم تعلم بذلك فاعلم
أنا العلوي الفاطمي الذي ارتمى***به الخوف والأيام بالمرء ترتمي
فالمحت بالدار التي أنا كاتب***عليها بشعري فاقران شئت والمم
وسلم لأمر الله في كل حالة***فليس أخو الإسلام من لم يسلم

قال ذو النون فعلمت أنه علوي قد تخفى عن السلطة في خلافة هارون، واحتمل المجلسي أن تكون هذه الأبيات للإمام الكاظم (عليه السلام) ذهب إلى ذلك المكان وكتبها لإتمام الحجة على أعدائه.67

وما نراه أن الإمام (عليه السلام) لم يتخف ولم يتهرّب من السلطة في يوم من الأيام بل كان في يثرب مقيماً ينكر على هارون وعلى غيره من ملوك عصره بكل جرأة وإقدام، وهذا الذي أوصل به إلى السجن.

ما قاله العلماء والعظماء في فضائله

أجمع المسلمون على اختلاف مذاهبهم على أفضلية أئمة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، وأعلميتهم، ورفعة منزلتهم، وسموّ مقامهم وقرب مكانتهم من الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) كما تنافسوا في ذكر الكتابة عنهم وبيان سيرهم، وذكر أحاديث الرسول (صلّى الله عليه وآله) فيهم.

ولا غرو في ذلك بعد أن قرنهم الرسول (صلّى الله عليه وآله) بالقرآن الكريم ـ كما في حديث الثقلين ـ ووصفهم بسفينة نوح التي من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق وهوى... إلى كثير من الأحاديث التي له (صلّى الله عليه وآله) في بيان فضلهم، والتنويه بسموّ مقامهم.

1ـ قال هارون الرشيد لابنه المأمون: (هذا إمام الناس، وحجّة الله على خلقه، وخليفته على عباده)68

2ـ وقال احمد بن يوسف الدمشقي القرماني:

هو الإمام الكبير القدر، الأوحد، الحجة، الساهر ليله قائماً، القاطع نهاره صائماً، المسمى لفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين (كاظماً) وهو المعروف عند أهل العراق بـ(باب الحوائج) لأنه ما خاب المتوسل به في قضاء حاجة قط... له كرامات ظاهرة، ومناقب باهرة، انتزع قمة الشرف وعلاها، وسما إلى أوج المزايا فبلغ علاها...69

3ـ وقال عبد الله بن أسعد اليانعي:

الإمام موسى كان صالحاً عابداً، جواداً حليماً، كبير القدر، وهو أحد الأئمة الإثني عشر المعصومين في اعتقاد الإمامية، وكان يدعى بالعبد الصالح لعبادته واجتهاده، وكان سخياً كريماً، كان يبلغه عن الرجل ما يؤذيه فيبعث إليه بصرة فيها ألف دينار.70

4- وقال خير الدين الزركلي:

موسى بن جعفر الصادق بن الباقر، أبو الحسن، سابع الأئمة الإثني عشر عند الإمامية، كان من سادات بني هاشم، ومن أعبد أهل زمانه وأحد كبار العلماء الأجواد...)71.

5- وقال محمد بن علي بن شهر اشوب:

(وكان الإمام أجلّ الناس شأناً، وأعلاهم في الدين مكاناً، وأسخاهم بناناً، وأفصحهم لساناً، وأشجعهم جناناً، قد خصّ بشرف الولاية، وحاز إرث النبوة، وتبوأ محل الخلافة، سليل النبوة، وعقدي الخلافة)72.

6- وقال احمد بن حجر الهيثمي:

وموسى الكاظم، هو وارث أبيه علماً ومعرفة وكمالاً وفضلاً سمّي الكاظم لكثرة تجاوز وحلمه، وكان معروفاً عند أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله، وكان أعبد أهل زمانه، وأعلمهم وأسخاهم.73

7- وقال الدكتور محمد يوسف موسى:

(ونستطيع أن نذكر أن أوّل من كتب في الفقه هو الإمام موسى الكاظم الذي مات سجيناً عام 183هـ وكان ما كتبه إجابة عن مسائل وجّهت إليه تحت اسم (الحلال والحرام)74.

8- وقال علي بن عيسى الأربلي:

مناقب الكاظم (عليه السلام) وفضائله ومعجزاته الظاهرة، ودلائله وصفاته الباهرة، ومخاتله تشهد أنه افترع قمة الشرف وعلاها وسما إلى أوج المزايا فبلغ أعلاها، وذللت له كواهل السيادة فركبها وامتطاها وحكم في غنائم المجد فاختار صفاياها واصطفاها:

تركت والحسن تأخذه***تصطفي منه وتنتجب

فانتقت منه أحاسنه***واستزادت فضل ما تهب75

9- وقال الشيخ سليمان المعروف بخواجه كلان:

(موسى الكاظم هو وارث أبيه جعفر بن محمد، علماً ومعرفة وكمالاً وفضلاً، سمّي الكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه، وكان عند أهل العراق معروفاً بباب قضاء الحوائج، وكان أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم)76.

10- وقال النسابة احمد بن علي:

(كان موسى الكاظم عظيم الفضل، رابط الجأش، واسع العطاء، لقّب بالكاظم لكظمه الغيظ، وحلمه، وكان يخرج في الليل وفي كمه صرر من الدراهم فيعطي من لقيه ومن أراد برّه، وكان يضرب المثل بصرّة موسى وكان أهله يقولون: عجباً لمن جاءته صرّة موسى فشكا القلّة)77.

هذه بعض الآراء الموجزة التي دوّنها كبار العلماء والتي تحمل طابع الإكبار والتقدير للإمام، وهذه الصفات التي اتّصف بها هي السرّ في عظمته، والسرّ في إجماع العلماء على إكباره، وإجماع المسلمين على محبّته. وسوف نوجزها بما يلي:

1- أحلم الناس وأكظمهم للغيظ، يقابل الجاني عليه بالإحسان إليه.

2- أعلم أهل زمانه، وأفقههم، يحل مشاكلهم ويساعدهم في قضاء حاجاتهم.

3- أعبد أهل زمانه اجتهد في العبادة إلى حد لا يجاريه أحد.

4- كان من أجود الناس وأسخاهم وأنداهم كفّاً، يعطي بيمينه ولا تعرف به شماله، حتى أصبح يضرب به المثل فقالوا: (مثل صرر موسى).
5- أنه من أفصح الناس وأبلغهم، ورث الفصاحة من آبائه وأجداده.
6- هو باب الحوائج عند الله، قد خصّه تعالى بهذه الكرامة ومنحه بهذا اللطف، فضمن لمن توسّل به أن يقضي حاجته ولا يرجع من عنده إلا وهو مثلوج الفؤاد ناعم البال.
7- أوصل الناس لأهله ورحمه.
8- حافل بالتواضع والورع والزهد ودماثة الخلق.
9- إمام معصوم من أئمة المسلمين ومن حجج الله على خلقه.
هكذا كان الإمام الكاظم الإمام السابع من الأئمة الإثني عشر المعصومين يعالج بروحه الفوّاحة بالإيمان والتقوى النفوس المريضة التي اترعت بالآفات الاجتماعية والأنانية.

أدعيته (عليه السلام)

تميّز أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بمحاسن كثيرة لم يشاركهم فيها غيرهم من الناس، وامتازوا بمكارم اختصوا بها وحدهم من بين الأمة.
والدعاء أحد هذه المميّزات الكثيرة، فقد ورد لكل إمام منهم (عليهم السلام) أدعية كثيرة جمعها علماؤنا الأبرار رضوان الله عليهم فبلغت مئات المصنفات. فهم أول من أرشدوا الناس على الطريقة المثلى التي يجب أن يسلكها العبد في خطابه مع الله سبحانه وتعالى، وما ينبغي أن يكون عليه من التوسل والانقطاع للمولى جلّ شأنه. والإمام الكاظم انقطع إلى الله فكان في جميع أوقاته يلهج بذكر الله تعالى ويدعوه دعاء المنيبين.

فائدة الدعاء
أما عن فائدة الدعاء فقد تحدث عنها بقوله: (عليكم بالدعاء، فإن الدعاء لله والطلب إلى الله يردّ البلاء وقد قدّر وقضي ولم يبق إلا إمضاؤه، فإذا دعي الله عز وجلّ وسئل صرف البلاء).
ثم قال في موضع آخر:
(ما من بلاء يقع على عبد مؤمن فيلهمه الله عز وجل الدعاء إلا كان كشف ذلك البلاء وشيكاً، وما من بلاء يقع على عبد مؤمن فيمسك عن الدعاء إلا كان ذلك البلاء طويلاً، فإذا نزل البلاء فعليكم بالدعاء والتضرّع إلى الله عزّ وجلّ)78.
نعود لنذكر بعض أدعيته (عليه السلام):

من دعاء له (عليه السلام) في القنوت
(يا مفزع الفازع، ويا مأمن الهالع، ومطمع الطامع، وملجأ الضارع، يا غوث اللهفان، ومأوى الحيوان، ومروي الظمآن، ومشبع الجوعان، وكاسي العريان، وحاضر كل مكان، بلا درك ولا عيان، ولا صفة ولا بطان، عجزت الأفهام، وضلّت الأوهام عن موافقة صفة دابة من الهوام، فضلاً عن الأجرام العظام، ممّا أنشأت حجاباً لعظمتك، وأنّي يتغلغل إلى ما وراء ذلك بما لا يرام.

تقدّست يا قدّوس عن الظنون والحدوس، وأنت الملك القدوس بارئ الأجسام والنفوس، ومنخر العظام ومميت الأنام، ومعيدها بعد الفناء والتطميس، أسألك يا ذا القدرة والعلاء، والعز والثناء، أن تصلي على محمد وآله أولي النهى، والمحل الأوفى، والمقام الأعلى، وأن تعجل ما قد تأجل، وتقدم ما تأخر، وتأتي بما قد أوجبت إثباته، وتقرّب ما قد تأخر في النفوس الحصرة أوانه، وتكشف البأس وسوء البأس، وعوارض الوسواس الخناس في صدور الناس، وتكفينا ما قد رهقنا، وتصرف عنا ما قد ركبنا، وتبادر اصطلام الظالمين، ونصر المؤمنين والادالة من المعاندين، آمين رب العالمين)79.

ومن دعاء له (عليه السلام)

(بسم الله الرحمن الرحيم. اللّهم اعطني الهدى وثبّتني عليه، واحشرني عليه آمناً أمن من لا خوف عليه ولا حزن ولا جزع إنك أهل التقوى وأهل المغفرة)80.

ومن دعاء له (عليه السلام) لوفاء الدين

(اللّهم اردد على جميع خلقك مظالمهم التي قِبَلِي صغيرها وكبيرها في يسر منك وعافية، وما لم تبلغه قوتي، ولم تسعه ذات يدي، ولم يقوَ عليه بدني ويقيني ونفسي فأدّه عنّي من جزيل ما عندك من فضلك، ثم لا تخلف عليّ منه شيئاً تقضيه من حسناتي يا أرحم الراحمين، أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله)81.

ومن دعاء له (عليه السلام)

(يا سابق كل فوت، يا سامعاً لكل صوت قوي أو خفي، يا محيي النفوس بعد الموت، لا تغشاك الظلمات الحندسية، ولا تشابه عليك اللغات المختلفة، ولا يشغلك شيء عن شيء، يا من لا يشغله دعوة داع دعاه من السماء، يا من له عند كل شيء من خلقه سمع سامع، وبصر نافذ، يا من لا تغلظه كثرة المسائل ولا يبره إلحاح الملحّين، يا حيّ حين لا حيّ في ديمومة ملكه وبقائه، يا من سكن العلى، واحتجب عن خلقه بنوره، يا من أشرقت لنوره دجا الظلم، أسألك باسمك الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي هو من جميع أركانك، صلّ على محمد وأهل بيته) ثم يسأل حاجته82.

ومن دعاء له (عليه السلام)

(توكّلت على الحيّ الذي لا يموت، وتحصّنت بذي العزة والجبروت، واستعنت بذي الكبرياء والملكوت. مولاي استسلمت إليك فلا تسلمني، وتوكّلت عليك فلا تخذلني، ولجأت إلى ظلّك البسيط فلا تطرحني، أنت المطلب، واليك المهرب، تعلم ما أخفي وما أعلن وتعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فامسك عنّي اللَّهمَّ أيدي الظالمين من الجنّ والإنس أجمعين، واشفني يا ارحم الراحمين)83.

ومن دعاء له عند الحاجة

(يا الله، أسألك بحق من حقّه عليك عظيم أن تصلّي على محمد وآل محمد وأن ترزقني العمل بما علّمتني من معرفة حقك، وأن تبسط عليّ ما حظرت من رزقك)84.

ومن أدعيته دعاء على ظالم له

وهذا دعاء طويل نقدم نصه الكامل ليتضح منه ما قاساه الإمام (عليه السلام) من طواغيت زمانه، وقد دعاه في قنوته على بعض ظالميه من ملوك بني العباس المعاصرين له الذين جرّعوه أنواع الغصص والآلام قال (عليه السلام):

اللّهمّ، إني وفلان ابن فلان، عبدان من عبيدك، نواصينا بيدك تعلم مستقرنا ومستودعنا ومنقلبنا، ومثوانا، وسرّنا، وعلانيتنا، تطلع على نياتنا، وتحيط بضمائرنا، علمك بما نبديه كعلمك بما نخفيه ومعرفتك بما نبطنه كمعرفتك بما نعلنه، ولا ينطوي عندك شيء من أمورنا، ولا ينسرّ دونك حال من أحوالنا، ولا لنا منك معقل يحصننا ولا حرز يحرزنا، ولا مهرب لنا نفوتك به، ولا تمنع الظالم منك حصونه، ولا يجاهدك عنه جنوده، ولا يغالبك مغالب يمنعه، أنت مدركه أينما سلك، وقادر عليه أينما لجأ، فمعاذ المظلوم منّا بك وتوكّل المقهور منّا عليك، ورجوعه إليك، يستغيث بك إذا خذله المغيث، ويستصرخك إذا قعد عنه النصير، ويلوذ بك إذا نفته الأقنية، ويطرق بابك إذا أغلقت عنه الأبواب المرتجة ويصل إليك إذا احتجبت عنه الملوك الغفلة، تعلم ما حلّ به من قبل أن يشكوه إليك، وتعرف ما يصلحه قبل أن يدعوك له، فلك الحمد بصيراً عليماً لطيفاً.

اللَّهُمَّ، وإنه قد كان في سابق علمك، ومحكم قضائك، وجاري قدرك، ونافذ أمرك، وماضي مشيئتك في خلقك أجمعين، شقيّهم وسعيدهم، وبرّهم وفاجرهم، إن جعلت (لفلان ابن فلان) عليّ قدرة فظلمني بها وبغى عليّ بمكانها، واستطال وتعزز بسلطانه الذي خوّلته إيّاه، وتجبّر وافتخر بعلوّ حاله الذي نولته، وغرّه املاؤك، وأطغاه حلمك عنه، فقصدني بمكروه عجزت عن الصبر عليه، وتعمّدني بشرّ ضعفت عن احتماله ولم أقدر على الاستنصاف منه لضعفي، ولا على الانتصار لقلّتي فوكلت أمره إليك، وتوكّلت في شأنه عليك، وتوعّدته بعقوبتك، وحذّرته ببطشك، وخوّفته بنقمتك، فظنّ أن حلمك عنه من ضعف، وحسب أن إملاءك له من عجز، ولم تنهه واحدة عن أخرى ولا انزجر عن ثانية بأولى، لكنّه تمادى في غيّه، وتتابع في ظلمه، ولجّ في عدوانه، واستشرى في طغيانه، جرأة عليك يا سيدي ومولاي، وتعرّضاً لسخطك الذي لا تحبسه عن الباغين، فها أنا يا سيدي مستضام تحت سلطانه مستذل بفنائه، مبغيّ عليّ، وجلّ خائف، مروع مقهور قد قلّ صبري، وضاقت حيلتي، وتغلّقت عليّ المذاهب إلا إليك، وانسدّت عنّي الجهات إلا جهتك، والتبست عليّ أموري في دفع مكروهه، واشتبهت عليّ الآراء في إزالة ظلمه، وخذلني من استنصرته من خلقك، وأسلمني من تعلّقت به من عبادك فاستشرت نصحي فأشار عليّ بالرغبة إليك، واسترشدت دليلي فلم يدلّني إلا إليك، فرجعت إليك يا مولاي صاغراً راغماً مستكيناً عالماً أنه لا فرج لي إلا عندك، ولا خلاص لي إلا بك انتجز وعدك في نصرتي وإجابة دعائي، لأن قولك الحق الذي لا يردّ ولا يبدّل، وقد قلت تباركت وتعاليت، (ومن بغي عليه لينصرنّه الله) وقلت جل ثناؤك، وتقدّست أسماؤك: (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) فأنا فاعل ما أمرتني به لا منّا عليك، وكيف أمنّ به وأنت دللتني عليه، فاستجب لي كما وعدتني يا من لا يخلف الميعاد، وإني لأعلم يا سيدي إن لك يوماً تنتقم فيه من الظالم للمظلوم، وأتيقن أن لك وقتاً تأخذ فيه من الغاصب للمغصوب لأنه لا يسبقك معاند، ولا يخرج من قبضتك منابذ، ولا تخاف فوت فائت، ولكن جزعي وهلعي لا يبلغان الصبر على أناتك، وانتظار حلمك، فقدرتك يا سيدي فوق كل قدرة، وسلطانك غالب كل سلطان، ومعادِ كلّ أحد إليك وإن أمهلته، ورجوع كل ظالم إليك وأن انظرته، وقد أضرني ـ يا سيدي ـ حلمك عن (فلان) وطول أناتك له، وإمهالك إيّاه، ويكاد القنوط أن يستولي عليّ لو لا الثقة بك، واليقين بوعدك، فإن كان في قضائك النافذ، وقدرتك الماضية أنه ينيب، أو يتوب، أو يرجع عن ظلمي، ويكفّ عن

مكروهي، وينتقل عن عظيم ما ركب منّي، فصلّ على محمد وآله، وأوقع ذلك فيقلبه قبل إزالة نعمتك التي أنعمت بها عليه، وتكدير معروفك الذي صنعته إليه، وإن كان علمك به غير ذلك من مقامه على ظلمي، فإنّي أسالك يا ناصر المظلومين المبغي عليهم اجابة دعوتي، فصلّ على محمد وآله وخذه من مأمنه أخذ عزيزٍ مقتدر، وأفجأه في غفلته مفاجأة مليك منتصر، واسلبه نعمته وسلطانه، وافضض عنه جموعه وأعوانه، ومزّق ملكه كل مزّق، وفرّق أنصاره كل مفرق، واعزله من نعمتك التي لم يقابلها بالشكر والإحسان، وانزع عنه سربال عزّك الذي لم يجازه بالإحسان، واقصمه يا قاصم الجبابرة، وأهلكه يا مهلك القرون الخالية، وابره يا مبير الأمم الظالمة، واخذله يا خاذل الفرق الباغية، وابتر عمره، وابتز ملكه، واعف أثره، واقطع خبره، واطف ناره، واظلم دياره، وكوّر شمسه، وازهق نفسه، واهشم سوقه، وجب سنامه، وارغم أنفه، وعجل حتفه، ولا تدع له جنة إلا هلكتها، ولا دعامة إلا قصمتها، ولا كلمة مجتمعة إلا فرّقتها، ولا قائمة علو إلا وضعتها ولا ركناً إلا وهنته، ولا سبباً إلا قطعته، وأرنا أنصاره وجنوده عبيداً بعد العزّة، واجعلهم متفرّقين بعد اجتماع الكلمة ومقنعي الرؤوس بعد الظهور على الأمة، واشف بزوال أمره القلوب الوجلة، والأفئدة اللهيفة، والأمّة المتحيّرة، والبريّة الضابعة، واظهر بزواله الحدود المعطّلة، والسنن الداثرة، والأحكام المهملة والمعالم المتغيّرة، والآيات المحرّفة، والمدارس المهجورة، والمحاريب المجفوّة، والمشاهد المهدومة، واشبع به الخماص السابغة، واروا به اللهوات اللاغبة، والأكباد الضامية، وأرح به الأقدام المتعبة واطرقه ببليّة لا أخت لها، وبساعة لا مثوى فيها، وبنكبة لا انتعاش معها، وبعثرة لا إقالة منها، وأبح حريمه، ونغّص نعيمه، وأره بطشتك الكبرى، ونقمتك المثلى، وقدرتك التي هي فوق قدرته، وسلطانك الذي هو أعز من سلطانه، وأغلبه لي بقوّتك القوية، ومحالك الشديد، وامنعني منه بمنعك، وابتله بفقر لا يجبره، وبسوء لا يستره، وكله إلى نفسه فيما تريد، انك فعال لما تريد، وابره من حولك وقوتك، وكله إلى حوله وقوّته، وأزل مكره بمكرك، وادفع مشيئته بمشيئتك، واسقم جسده، وايتم ولده، ونقّص أجله، وخيّب أمله، وأزل دولته، وأطل عولته، واجعل شغله في بدنه، ولا تفكّه من حزنه وصيّر كيده في ضلال، وأمره إلى زوال ونعمته إلى انتقال وجده في سفال، وسلطانه في اضمحلال، وعاقبته إلى شر مآل، وأمته بغيظه إن أمتّه، وابقه بحسرته أن ابقيته، وقني شره وهمزه ولمزه وسطوته وعداوته، والمحه لمحة تدمر بها عليه، فإنّك أشد بأساً وأشد تنكيلا..)85.

استجابة دعاء الإمام الكاظم (عليه السلام)

عاش أهل البيت (عليهم السلام) مظلومين مضطهدين طيلة الحكم الأموي الغاشم ولما انتقل الحكم إلى العباسيين باسم العلويين حسب الناس أن الحكم العباسي سوف يخفف عنهم الوطأة، ويرفع عنهم الحيف.

ولما جاءت رايات أبي مسلم الخراساني بانتصار العلويين، وللأخذ بثأرهم وظلامتهم، أصبح الأمر معكوساً، فإذا بالعباسيين يظلمون وينكّلون بأئمة أهل البيت، ويتتبعونهم قتلاً وسجناً وتشريداً حتى كانت مدة ملكهم أشد قسوة من بني أمية. فقال أحد الشعراء:

تالله ما فعلت علوج أمية***معشار ما فعلت بنو العباس

وقال آخر:

يا ليت ظلم بني أمية دام لنا***وليت عدل بني العباس في النار

ولم يلجأ أئمة أهل البيت إلى الدعاء على ظالميهم إلا عندما يبلغ الظلم منتهاه، والجور غايته، ويطفح الكيل...

وجاء في كتاب عيسى بن جعفر للرشيد: (لقد طال أمر موسى بن جعفر ومقامه في حبسي، وقد اختبرت حاله ووضعت عليه العيون طوال هذه المدة، فما وجدته يفتر عن العبادة، ووضعت من يسمع منه ما يقوله في دعائه، فما دعا عليك ولا عليّ، ولا ذكرنا بسوء وما يدعو لنفسه إلا بالمغفرة والرحمة..)86.

إذا عرفنا هذا منه صلوات الله وسلامه عليه، نقدر شدة الظروف التي مرّت عليه فاضطرته للدعاء على ظالميه.

وسوف نذكر بعض ما ورد من استجابة دعائه (عليه السلام):

1- قال عبد الله بن صالح: حدثنا صاحب الفضل بن الربيع قال: كنت ذات ليلة في فراشي، مع بعض جواريي، فلما كان في نصف الليل سمعت حركة باب المقصورة، فراعني ذلك، فقالت الجارية: لعلّ هذا من الهواء، فلم يمض إلا يسير حتى رأيت باب البيت الذي كنت فيه قد فتح وإذا مسرور الكبير قد دخل عليّ، فقال: أجب الرشيد، ولم يسلّم عليّ، فيئست من نفسي، وقلت: هذا مسرور، ويدخل بلا إذن ولم يسلّم، ما هو إلا القتل؛ فقالت الجارية لما رأت تحيّري: ثق بالله عزّ وجلّ وانهض، فنهضت ولبست ثيابي، وخرجت معه حتى أتيت الدار، فسلمت على أمير المؤمنين وهو في مرقده، فرد علي السلام فسقطت.

فقال: تداخلك رعب!

قلت: نعم يا أمير المؤمنين.

فتركني ساعة حتى سكنت ثم قال: صر إلى حبسنا فاخرج موسى بن جعفر بن محمد، وادفع إليه ثلاثين ألف درهم، واخلع عليه خمس خلع، واحمله على ثلاثة مراكب، وخيره بين المقام معنا أو الرحيل عنا إلى أي بلاد أحب.

فقلت له: يا أمير المؤمنين! تأمر بإطلاق موسى بن جعفر؟!

قال: نعم. فكررت ثلاث مرات.

فقال: نعم، ويلك! أتريد أن أنكث العهد؟!

فقلت: يا أمير المؤمنين! وما العهد؟!

قال: بينا أنا في مرقدي هذا إذ ساورني أسد، ما رأيت من الأسود أعظم منه، فقعد على صدري وقبض على حلقي، وقال لي: حبست موسى بن جعفر ظالماً له.

فقلت: وأنا أطلقه، وأهب له، وأخلع عليه، فأخذ عليّ عهد الله عزّ وجلّ وميثاقه وقام عن صدري وقد كادت نفسي أن تخرج فقال: فخرجت من عنده ووافيت موسى بن جعفر (عليه السلام) وهو في حبسه، فرأيته قائماً يصلّي، فجلست حتى سلّم، ثم أبلغته سلام أمير المؤمنين وأعلمته بالذي أمرني به في أمره، وإني قد أحضرت ما وصله به.

فقال: إن كنت أمرت بشيء غير هذا فأفعله.

فقلت: لا وحق جدك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ما أمرت إلا بهذا.

فقال: لا حاجة لي في الخلع والحملان والمال إذا كانت فيه حقوق الأمة.

فقلت: ناشدتك الله أن لا تردّه فيغتاظ.

فقال: اعمل به ما أحببت.

وأخذت بيده (عليه السلام) وأخرجته من السجن، ثم قلت له: يا ابن رسول الله أخبرني ما السبب الذي نلت به هذه الكرامة من هذا الرجل فقد وجب حقّي عليك لبشارتي إيّاك، ولما أجراه الله تعالى من هذا الأمر؟

فقال (عليه السلام): رأيت النبي (صلّى الله عليه وآله) ليلة الأربعاء في النوم فقال لي: يا موسى أنت محبوس مظلوم.

فقلت: نعم يا رسول الله محبوس مظلوم.

فكرّر علي ثلاثاً، ثم قال: (لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين).

أصبح غداً صائماً، واتبعه بصيام الخميس والجمعة، فإذا كان وقت الإفطار فصل اثنتي عشرة ركعة، تقرأ في كل ركعة: الحمد واثنتي عشرة قل هو الله أحد. فإذا صليت منها أربع ركعات فاسجد، ثم قال: (يا سابق الفوت، يا سامع كل صوت ويا محي العظام وهي رميم بعد الموت، أسألك باسمك العظيم الأعظم أن تصلي على محمد عبدك ورسولك، وعلى أهل بيته الطاهرين وأن تعجل لي الفرج ممّا أنا فيه). ففعلت فكان الذي رأيت.87

2- ونقل صاحب كتاب نثر الدرر: أن موسى بن جعفر الكاظم ذكر له، أن الهادي قد هم بك، قال لأهل بيته ومن يليه: ما تشيرون به عليّ من الرأي؟

فقالوا: نرى أن تتباعد عنه، وأن تغيب شخصك عنه، فإنّه لا يؤمن عليك من شره. فتبسم ثم قال:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب.

ثم رفع يده إلى السماء فقال:

(الهي كم من عدو شحذ لي ظبة مديته، وأرهف لي شبا حدّه، وداف لي قواتل سمومه، ولم تنم عني عين حراسته، فلما رأيت ضعفي عن احتمال الفوادح، وعجزي عن ملمّات الحوائج، صرفت ذلك عني بحولك وقوتك لا بحلوي وقوتي، وألقيته في الحفيرة التي احتفرها لي خائباً ممّا أمله في دنياه، متباعداً عما يرجوه في أخراه فلك الحمد على قدر ما عممتني فيه نعمك، وما توليتني من جودك وكرمك. اللّهم فخذه بقوتك، وافلل حده عني بقدرتك، واجعل له شغلاً فيما يليه، وعجزاً به عما ينويه. اللَّهُمَّ واعدني عليه عدوة حاضرة تكون من غيظي شفاءً، ومن حنقي عليه وفاءً، وصل اللّهم دعائي بالإجابة، وانظم شايتي بالتغيير، وعرفه عما قليل ما وعدت به من الإجابة لعبيدك المضطرين إنك ذو الفضل العظيم، والمن الجسيم).

ثم إن أهل بيته انصرفوا عنه، فلما كان بعد مدة يسيرة اجتمعوا لقراءة الكتاب الوارد على موسى الكاظم بموت الهادي، وفي ذلك يقول بعضهم:

وسارية لم تسر في الأرض تبغي***محلاً ولم يقطع بها الأرض قاطع

3- وروى الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير قال: حدثني أبو جعفر الشامي قال: حدثني رجل بالشام يقال له هلقام. قال: أتيت أبا إبراهيم (عليه السلام) فقلت له: جعلت فداك علمني دعاء جامعاً للدنيا والآخرة وأوجز، فقال: قل في دبر الفجر إلى أن تطلع الشمس: (سبحان الله العظيم وبحمده استغفر الله وأسأله من فضله).

قال هلقام: لقد كنت من أسوء أهل بيتي حالاً فما علمت حتى أتاني ميراث من قبل رجل ما ظننت أن بيني وبينه قرابة وإني اليوم من أيسر أهل بيتي وما ذلك إلا بما علمني مولاي العبد الصالح (عليه السلام))88.

4- ومن دعائه (عليه السلام) عندما كان محبوساً يقلب خديه على التراب:

(يا مذل كل جبار ومعزّ كل ذليل وحقك بلغ مجهودي، فصلّ على محمد وآل محمد وفرّج عني)89.

5- وقال داود بن زربي:

سمعت أبا الحسن الأول (عليه السلام) يقول:اللّهم إني أسالك العافية، وأسألك جميل العافية، وأسألك شكر العافية، وأسألك شكر شكر العافية.

وكان النبي (صلّى الله عليه وآله) يدعو ويقول: أسألك تمام العافية ثم قال: تمام العافية الفوز بالجنة، والنجاة من النار)90.

ولا ريب أن الدعاء من قلب العبد الصالح المؤمن، التقي، الورع يستجاب من الله العزيز القدير. وجاء ذلك في القرآن الكريم:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)91.

أدعية الأسبوع

روى الشيخ الطوسي، قدس الله سره، بإسناده عن أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام):

دعاء يوم الجمعة

مرحباً بخلق الله الجديد وبكما من كاتبين وشاهدين أكتبا:

بسم الله، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن الإسلام كما وصف، والدين كما شرع، وأن الكتاب كما أنزل، والقول كما حدث، وإن الله هو الحق المبين، وصلوات الله وبركاته وشرايف تحياته وسلامه على محمد وآله؛أصبحت في أمان الله الذي لا يستباح، وفي ذمة الله التي لا تخفر وفي جوار الله الذي لا يُضام، وكنفه الذي لا يرام، وجار الله آمن محفوظ، ما شاء الله، كل نعمة فمن الله، ما شاء الله، لا يأتي الخير إلا الله ما شاء الله، نعم القادر الله ما شاء الله، توكّلت على الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، اللّهم اغفر لي كل ذنب يحبس رزقي، ويحجب مسألتي، أو يقصر بي عن بلوغ مسألتي، أو يصد بوجهك الكريم عني.

اللّهم اغفر لي، وارزقني، وارحمني، واجبرني، وعافني، واعف عنّي وارفعني، واهدني، وانصرني، والق قلبي الصبر والنصر يا مالك الملك، فإنه لا يملك ذلك غيرك. اللّهم وما كتبت عليّ من خير فوفّقني واهدني له، ومُنَّ عليّ به، وأعني وثبّتني عليه، واجعله أحب إليّ من غيره، وأثر عندي ممّا سواه، وزدني من فضلك. اللّهم إني أسألك رضوانك والجنة، وأعوذ بك من سخطك والنار، وأسألك النصيب الأوفر في جنّات النعيم.

اللّهم طهّر لساني من الكذب، وقلبي من النفاق، وعملي من الرياء وبصري من الخيانة، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور اللّهم إن كنت عندك محروماً مقتراً عليّ رزقي فامح حرماني وتقتير رزقي، واكتبني عندك مرزوقاً موفّقاً للخيرات، فإنك قلت تباركت وتعاليت (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) صلى الله على محمد وآله إنك حميد مجيد.

دعاء يوم السبت

مرحباً بخلق الله الجديد وبكما من كاتبين وشاهدين؛ اكتبا بسم الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الإسلام كما وصف، وإن الدين كما شرع، وإن الكتاب كما أنزل، والقول كما حدث، وإن الله هو الحق المبين، وصلوات الله وسلامه على محمد وآله أصبحت.

اللّهم في أمانك اسلمت إليك نفسي، ووجهت إليك وجهي، وفوضت إليك أمري، وألجأت إليك ظهري، رهبة منك، ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ورسولك الذي أرسلت.

اللّهم إني فقير إليك فارزقني بغير حساب، إنّك ترزق من تشاء بغير حساب.
اللّهم إني أسألك الطيّبات من الرزق، وترك المنكرات وحب المساكين، وأن تتوب عليّ.
اللّهم إني أسألك بكرامتك التي أنت أهلها أن تتجاوز عن سوء ما عندي بحسن ما عندك يا الله، وأن تعطيني من جزيل عطائك أفضل ما أعطيته أحداً من عبادك. اللّهم إني أعوذ بك من مال يكون عليّ فتنة، ومن ولد يكون لي عدواً.
اللّهم قد ترى مكاني، وتسمع ندائي وكلامي، وتعلم حاجتي، اسالك بجميع أسمائك أن تقضي لي كل حاجة من حوائج الدنيا والآخرة.
اللّهم إني أدعوك دعاء عبد ضعفت قوّته، واشتدت فاقته، وعظم جرمه وقلّ عدده، وضعف عمله، دعاء من لا يجد لفاقته ساداً غيرك، ولا لضعفه عوناً سواك، أسألك جوامع الخير وخواتمه وسوابقه وفوائده وجميع ذلك بدوام فضلك وإحسانك، ويمنك ورحمتك، فارحمني واعتقني من النار. يا من كبس الأرض على الماء، يا من سمك السماء في الهواء، ويا واحداً قبل كل أحد، ويا واحداً بعد كل شيء، ويا من لا يعلم ولا يدري كيف هو إلا هو، ويا من لا يقدّر قدرته إلا هو، ويا من كل يوم هو في شأن، يا من لا يشغله شأن عن شأن، ويا غوث المستغيثين، ويا صريخ المكروبين، يا مجيب دعوة المضطرين، ويا رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما.
رب ارحمني رحمة لا تضلّني لا تشقني بعدها أبداً، أنت حميد مجيد وصلى الله على محمد وآله وسلم.

دعاء يوم الأحد

مرحباً بخلق الله الجديد وبكما من كاتبين وشاهدين، اكتبا: باسم الله، اشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن الإسلام كما وصف، والدين كما شرع، وأن الكتاب كما أنزل، والقول كما حدث وأن الله هو الحق المبين حيّا الله محمداً بالسلام، وصلى عليه كما هو أهله وعلى آله، أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والأمر والليل والنهار وما يكون فيهما لله وحده لا شريك له.
اللهم اجعل أوّل هذا النهار صلاحاً، وأوسطه نجاحاً وآخره فلاحاً وأسألك خير الدنيا والآخرة.
اللّهم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا همّاً إلا فرجته، ولا ديناً إلا قضيته، ولا غائباً إلا حفظته، وأديته، ولا مريضاً إلا شفيته، وعافيته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضى ولي فيها صلاح إلا قضيتها.
اللّهم تمّ نورك فهديت، وعظم حلمك فعفوت، وبسطت يدك فأعطيت، فلك الحمد، وجهك خير الوجوه، وعطيّتك أنفع العطيّة، فلك الحمد تطاع ربنا فتشكر، وتعصى ربنا فتغفر، تجيب المضطر وتكشف الضر، وتشفي السقم، وتنجي من الكرب العظيم؛ لا تجزي بآلائك، ولا يحصي نعمائك أحدٌ، رحمتك وسعت كل شيء فارحمني، ومن الخيرات فارزقني.
تقبل صلاتي، واسمع دعائي، ولا تعرض عني يا مولاي حين أدعوك، ولا تحرمني الهي حين أسألك من أجل خطاياي؛ الهي لا تحرمني لقاءك، واجعل محبّتي وإرادتي محبتك وإرادتك، واكفني هول المطلع.
اللّهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفذ، ومرافقة محمد (صلّى الله عليه وآله) في أعلى جنة الخلد.
اللّهم وأسألك العفاف والتقى، والعمل بما تحب وترضى، والرضا بالقضاء والنظر إلى وجهك.
اللّهم لقّني حجّتي عند الممات، ولا ترني عملي حسرات.
اللّهم اكفني طلب ما لم تقدر لي من الرزق، وما قسمت لي فاتني به يا الله في يسر منك وعافية.

اللّهم إني أسألك توبة نصوحاً تقبلها مني، تبقي عليّ بركتها وتغفر بها ما مضى من ذنوبي وتعصمني بها فيما مضى من عمري يا أهل التقوى والمغفرة، وصلّى الله على محمد وآل محمد إنك حميد مجيد.

دعاء يوم الاثنين

مرحباً بخلق الله الجديد وبكما من كاتبين وشاهدين، اكتبا: بسم الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الإسلام كما وصف، وأن الدين كما شرع، وأن القول كما حدث، وأن الكتاب كما أنزل، وأن الله هو الحق المبين، حيّا الله محمداً بالسلام، وصلى عليه وعلى آله. اللّهم ما أصبحت فيه من عافية في ديني ودنياي فأنت الذي أعطيتني ورزقتني ووفقتني له وسترتني، ولا حمد لي يا الهي في ما كان مني من خير، ولا عذر لي منه.

اللهم إنّه لا حول ولا قوّة لي على جميع ذلك إلا بك، يا من بلغ أهل الخير وأعانهم عليه بلغني الخير وأعني عليه.

اللّهم أحسن عاقبتي في الأمور كلها، وأجرني من مواقف الخزي في الدنيا والآخرة، إنك على كل شيء قدير.

اللّهم إني أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، وأسألك الغنيمة من كل برّ والسلامة من كل إثم، وأسألك الفوز بالجنّة، والنجاة من النار.

اللّهم رضّني بقضائك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجّلت عليّ.

اللّهم اعطني ما أحببت واجعله خيراً لي.

اللّهم ما انسيتني فلا تنسني ذكرك وما أحببت فلا أحب معصيتك.

اللّهم امكر لي ولا تمكر عليّ، واعني ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، واهدني ويسر لي الهدى، واعني على من ظلمني حتى أبلغ فيه ثأري.

اللّهم اجعلني لك شاكراً ذاكراً لك، محبّاً لك، راهباً، واختم لي منك بخير.

اللّهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أن تحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وإن تتوفاني إذا كانت الوفاة خيراً لي، وأسألك خشيتك في السر والعلانية، والعدل في الرضى والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن تحبب إليّ لقاءك في غير ضرّاء مضرّة، ولا فتنةٍ مضلّة، واختم لي بما ختمت به لعبادك الصالحين إنك حميد مجيد.

دعاء يوم الثلاثاء

مرحباً بخلق الله الجديد وبكما من كاتبين وشاهدين، اكتبا: بسم الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الإسلام كما وصف، وأن الدين كما شرع، وأن القول كما حدث، وأن الكتاب كما أنزل، وأن الله هو الحق المبين، حيّا الله محمداً بالسلام، وصلى عليه وعلى آله؛ وأصبحت أسألك يا الله والعافية في ديني ودنياي وآخرتي وأهلي ومالي وولدي.

اللّهم استر عوراتي وأجب دعواتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي. اللّهم إن رفعتني فمن ذا الذي يضعني، وإن تضعني فمن ذا الذي يرفعني.

اللّهم لا تجعلني للبلاء عرضاً، ولا للفتنة نصباً، ولا تتبعني ببلاء على اثر بلاء، فقد ترى ضعفي وقلّة حيلتي وتضرّعي، أعوذ بك من جميع غضبك فأعذني، واستجير بك فأعنّي، وأتوكّل عليك فاكفني، واستهديك فاهدني، واستعصمك فاعصمني، واستغفرك فاغفر لي، واسترحمك فارحمني، واسترزقك فارزقني؛ سبحانك من ذا يعلم ما أنت ولا يخافك، ومن يعرف قدرتك ولا يهابك، سبحانك ربّنا.

اللّهم إنّي أسألك إيماناً دائماً، وقلباً خاشعاً، وعلماً نافعاً ويقيناً صادقاً، وأسألك ديناً قيّماً، وأسألك رزقاً واسعاً.
اللّهم لا تقطع رجاءنا، ولا تخيّب دعاءنا، ولا تجهد بلاءنا، وأسألك العافية والشكر على العافية، وأسألك الغنى عن الناس أجمعين يا ارحم الراحمين، ويا منتهى همّة الراغبين والمفرّج عن المغمومين، ويا من إذا أراد شيئاً فحسبه أن يقول له كن فيكون.
اللّهم إنّ كل شيء لك، وكل شيء بيدك، وكل شيء إليك يصير، وأنت على كل شيء قدير؛ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ميسّر لما عسّرت، ولا معقّب لما حكمت، ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ، ولا قوّة إلا بك، ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن.
اللّهم فما قصر عنه عملي (رأيي)، ولم تبلغه مسألتي من خير وعدته أحداً من خلقك، وخير أنت معطيه أحداً من خلقك، فإنّي أسألك وأرغب إليك فيه يا أرحم الراحمين.
اللّهم صل على محمد وآله إنك حميد مجيد.

دعاء يوم الأربعاء

مرحباً بخلق الله الجديد وبكما من كاتبين وشاهدين، اكتبا: بسم الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الإسلام كما وصف، والدين كما شرع، وأن الكتاب كما أنزل، وأن القول كما حدث، وأن الله هو الحق المبين، حيّا الله محمداً بالسلام، وصلى عليه وعلى آله.
اللّهم اجعلني من أفضل عبادك نصيباً في كل خير تقسمه في هذا اليوم، من نور تهدي به، أو رزق تبسطه، أو ضرّ تكشفه، أو بلاء تصرفه، أو شرّ تدفعه، أو رحمة تنشرها، أو معصية تصرفها.
اللّهم اغفر لي ما قد سلف من ذنوبي، واعصمني فيما بقي من عمري، وارزقني عملاً ترضى به عنّي.
اللّهم إني أسألك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك، أو أنزلته في شيء من كتبك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أو علّمته أحداً من خلقك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، وشفاء صدري، ونور بصري، وذهاب همي وحزني إنه لا حول ولا قوّة إلا بك.
اللّهم رب الأرواح الفانية، ورب الأجساد البالية، أسألك بطاعة الأرواح البالغة إلى عروجها، وبطاعة القبور المشتقة عن أهلها، وبدعوتك الصادقة فيهم، وأخذك الحق بينهم وبين الخلائق مثلاً ينطقون من مخافتك، يرجون رحمتك، ويخافون عذابك، أسألك النور في بصري، واليقين في قلبي، والإخلاص في عملي، وذكرك على لساني أبداً ما أبقيتني.
اللّهم ما فتحت لي من باب طاعة فلا تغلقه عنّي أبداً، وما أغلقت عنّي من باب معصية فلا تفتحه عليّ أبداً.
اللّهم ارزقني حلاوة الإيمان، وطعم المغفرة، ولذّة الإسلام، وبرد العيش بعد الموت، إنّه لا يملك ذلك غيرك.
اللّهم إنّي أعوذ بك أن أضل أو أذل أو أظلم أو آمر أو أجهل أو يجهل عليّ، أو أجور أو يجار عليّ، أخرجني من الدنيا مغفوراً لي ذنبي، ومقبولاً عملي، واعطني كتابي بيميني، واحشرني في زمرة النبي محمد وآله.

دعاء يوم الخميس

مرحباً بخلق الله الجديد وبكما من كاتبين وشاهدين، اكتبا: بسم الله أشهد أن لا إله إلا الله واشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الإسلام كما وصف، وأن الدين كما شرع، والقول كما حدث، والكتاب كما أنزل، وإنّ الله هو الحق المبين؛ حيا الله محمداً بالسلام، وصلى عليه وعلى آله.

أصبحت أعوذ بوجه الله الكريم، واسمه العظيم، وكلماته التامة، من شر السامة، والهامة، والعين اللامة، ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر كل دابة ربّي أخذ بناصيتها، إنّ ربّي على صراط مستقيم.
اللّهم إني أعوذ بك من جميع خلقك، وأتوكّل عليك في جميع أموري، فاحفظني من بين يدي ومن خلفي ومن فوقي ومن تحتي ولا تكلني في حوائجي إلى عبد من عبادك فيخذلني، أنت مولاي وسيّدي فلا تخيّبني من رحمتك.
اللّهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحويل عافيتك، استعنت بحول الله وقوّته من حول خلقه وقوّتهم، وأعوذ برب الفلق من شر ما خلق، حسبي الله ونعم الوكيل.
اللّهم أعزّني بطاعتك، وأذلّ أعدائي بمعصيتك، واقصمهم يا قاصم كل جبار عنيد، يا من لا يخيب من دعاه ويا من إذا توكل العبد عليه كفاه، اكفني كل مهم من أمر الدنيا والآخرة.
اللّهم إنّي أسألك عمل الخائفين، وخوف العاملين وخشوع العابدين، وعبادة المتقين، وإخبات المؤمنين، وإنابة المخبين، وتوكل الموقنين، ويسر المتوكلين، وألحقنا بالأحياء المرزوقين، وأدخلنا الجنة، واعتقنا من النار، واصلح لنا شأننا كله.
اللّهم إني أسألك إيماناً صادقاً يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، إنك بكل خير عليم غير معلم أن تقضي لي حوائجي، وأن تغفر لي ولوالدي ولجميع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، وصلى الله على سيدنا محمد وآله إنك حميد مجيد.92

قيمة الدعاء

والدعاء باب كبير يستحق الدراسة بعناية خاصة من جميع جوانبه: الأدبية والاجتماعية والنفسية والدينية والأخلاقية..
والدعاء راحة للنفس فيه اعتزاز وكبرياء وإخلاص، لأن الداعي يدعو ربّ العالمين، وفاطر السماوات والأرض ورب العرش العظيم وهل أعظم وأرفع وأفضل وأنبل من الله عزّ وجلّ، الرحمان الرحيم، الذي يقول للشيء كن فيكون؟!
ألم يخلق الإنسان بأحسن تقويم، وخلق له جميع ما في الدنيا من الطيّبات إلا يحق أن يسبّحه في كل أوان، ويدعوه عند اشتداد البلايا والأحزان؟
فالدعاء يصبح ذوب أنفاس أفعمت بحب الخالق، وفيض أرواح تقطّعت في سبيل العشق الإلهي، وهو ابتهالات تأخذ بمجامع القلوب ونبضات الجوارح وإطلالة شوق إلى عالم القدسية والطهارة.
والدعاء هو الذي ينمي في روح الإنسان الصلة الروحية بالله حيث يشعر الداعي بأن الله عزّ وجلّ قريب منه وقريب من آلامه، وحلال لمشاكله، وملبّي حاجاته، فيدعو ربّه ليفتح عليه أبواب رحمته، وليخفف عنه ما ثقل عليه من ذلك، ويقضي له ما صعب حله، وبعدها يأتيه الفرج، ويدخل إلى قلبه الفرح.
يقول الإمام الكاظم: (... يا رحيماً بكل مسترحم، ويا رؤوفاً بكل مسكين، ويا أقرب من دعي وأسرعه إجابة، ويا مفرّجاً عن كل ملهوف، ويا خير من طلب منه الخير وأسرعه عطاءً ونجاحاً، وأحسنه عطفاً وتفضّلاً) والدعاء هو الفناء في الله جل وعلا حيث تعقبه حياة أبدية، والرحيل إليه بشوق يبعث حرارة الشعور وصدق العاطفة، ونبل الأحاسيس، وشفافية الروح إلى من إليه ترجع الأمور.
والدعاء أيضاً هو نموذج لنقاء السريرة، وإخلاص القلوب، وصفاء الرؤى.
يقول الإمام الكاظم:

(السر عندك علانية، والغيب عندك شهادة، تعلم وهم القلوب، ورجم الغيوب، ورجع الألسن، وخائنة الأعين وما تخفي الصدور وأنت رجاؤنا عند كل شدة، وغياثنا عند كل محل، وسيّدنا في كل كريهة، وناصرنا عند كل ظلم، وقوّتنا عند كل ضعف، وبلاغنا في كل عجز؛ كم من كريهة وشدة ضعفت فيها القوة، وقلّت فيها الحيلة، أسلمنا فيها الرفيق وخذلنا فيها الشفيق، أنزلتها بك يا رب ولم نرج غيرك، ففرّجتها وخففت ثقلها، وكشفت غمرتها، وكفيتنا إيّاها عمن سواك).

ولا يخفى على الأدباء أن أدعية الإمام الكاظم (عليه السلام) كأدعية جده الإمام زين العابدين (عليه السلام) 93 جاءت محببة إلى النفوس بما انطوت عليه من فنون البلاغة والفصاحة، وجمال الأسلوب، وسعة العرض، وحسب التعبير، وهي خير منهل يغرف منه طلاب الأدب والبلاغة والفصاحة والبيان وصناعة الكتابة.

وهذه الأدعية عند الأئمة المعصومين يمكن أن تعطى أطروحة دراسات عليا بعنوان: الفن الأدبي في الدعاء، أو أدب الدعاء عند أهل البيت (عليهم السلام) أو قيمة الدعاء وأثره في الأدب العربي.

الإمامة

الذي دفعني إلى الحديث عن الإمامة هو سؤال بعض الأساتذة الزملاء في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب قوله: لماذا الشيعة يعظمون دور الإمامة اكثر ممّا تستحق؟ وما هو دور الإمام بعد وفاة النبي (صلّى الله عليه وآله)؟ قبل الجواب على هذا السؤال أرى من الغريب جداً ما يدعيه غير الشيعة من أن النبي (صلّى الله عليه وآله) رحل من هذه الدنيا ولم يوص إلى أحد من بعده ليقوم مقامه، ويتحمّل مسؤولية تنفيذ الدعوة الإسلامية، فترك الأمة بلا إمام يدير شؤونها، ويجمع شملها، ويوضح السنن، ويقوّم الاعوجاج، ويقيم الحدود، ويرشد الضالين عن الخط الإسلامي الصحيح؟!!

وما هو ثابت عند المؤرخين وكتاب السنن أنه (صلّى الله عليه وآله) كان يستخلف على المدينة إذا أراد سفراً، ولا يرسل جيشاً في مهمة حتى يعيّن له قائداً، وربّما عين لبعض جيوشه أكثر من قائد.94

ومن المؤسف أنه عندما يريدون تنزيه شخص أو جماعة يخلقون أفضل المبررات في نظرهم، ويعتذرون عنهم بأحسن الأعذار. من ذلك ابتدع معاوية فرقة القصاصين الذين يشيدون بمآثره، ويعيبون على عليّ وأنصاره. ثم اخترع فرقة المرجئة الذين يرجئون معايب ونقائص الخليفة إلى يوم الحساب، ويعفى من محاسبة الجماعة له إن ظلم أو أخطأ. كما نسب إلى الرسول (صلّى الله عليه وآله) وإلى الله سبحانه وتعالى ما لم ينزل به سلطان. كل ذلك من أجل تصحيح عمل قام به السلف، أو من أجل مصالح دنيوية ضيّقة، وقد نسوا أو تناسوا قول الله تعالى: (... أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)95.

ولو أنصف الناس الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) لاكتفوا بنص الغدير وحده دون غيره من النصوص الكثيرة، فقد شهد بيعة يوم الغدير جل المسلمين، وشاهدوا المراسيم التي اجراها الرسول (صلّى الله عليه وآله) في ذلك اليوم التاريخي ومن العجيب كيف نسيت الأمة بعد وفاة الرسول (صلّى الله عليه وآله) ذلك اليوم، هذا والعهد قريب والرسول (صلّى الله عليه وآله) بعد لم يدفن والشهود الكثر حضور. ولا أريد أن أخوض في هذا الحديث المؤلم الذي دب الاختلاف بين المسلمين وفرّقهم فرقاً وشيعاً.

ولا يخفى على كل ذي بصر أن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وحده المنصوص عليه بالخلافة من قبل الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله)، وكذلك أولاده عليهم الصلاة والسلام.96

وقد التزم الأئمة (عليهم السلام) في نص بعضهم على بعض، السابق منهم على اللاحق، والوالد على ولده، إقامة للحجة، وإعذاراً للأمة. وهنا أحد النصوص الكثيرة في حق الإمام موسىالكاظم (عليه السلام) من قبل أبيه الصادق (عليه السلام):

قال محمد بن الوليد: سمعت علي بن جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد (عليه السلام) يقول لجماعة من خاصته وأصحابه: استوصوا يا بني موسى خيراً، فإنه أفضل ولدي، ومن أخلفه من بعدي، وهو القائم مقامي، والحجّة لله تعالى على كافة خلقه من بعدي).97

والإمام موسى (عليه السلام) بلغ أعلى مستويات الإنسانية وقيمها في مواهبه وعبقرياته، فكان عنواناً فذاً من أفذاذ العقل الإنساني، ومثلاً رائعاً من أمثلة الخير والكمال في الأرض؛ وذلك لما أثر عنه من الفضائل والمآثر كدماثة الأخلاق، والإحسان إلى الناس، والصمود أمام الأحداث، وسعة العلم، ونبل الحلم، إلى غير ذلك من النزعات الكريمة التي يقدّسها كل إنسان يقدّر المثل العليا، ويؤمن بالانسانية الكريمة؛ وقد منحه الله تعالى الإمامة، وخصّه بالنيابة العامة عن جده الرسول الأعظم، فهو أحد أوصيائه المعصومين، وأحد خلفائه على أمته.

والإمامة حسب مفهوم الشيعة، كالنبوة لا يمنحها الله إلا للذوات الخيّرة التي طهرت من الأرجاس والآثام. وهي من أسمى المناصب الإلهية لا يتوّج بها إلا أفضل الخلق وأكرمهم عند الله. وهنا لابدّ من توضيح معنى الإمامة.

معنى الإمامة

الإمام لفظاً

يقال للطريق الواسع الواضح، ولدليل المسافرين، ولحادي الإبل، والقدر الذي يتعلمه التلميذ كل يوم في المدرسة يقال: حفظ الصبي إمامه. والقرآن للمسلمين جاء في التنزيل: (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)99،98.

والإمامة اصطلاحاً

(رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص إنساني).

والإمام حسب هذا التحديد هو الزعيم العام والرئيس المتبع الذي له السلطة الشاملة على جميع شؤون الناس الدينية والدنيوية فالنبي (صلّى الله عليه وآله) أولى بالمؤمنين من أنفسهم فكذلك الإمام حسب ما نص عليه النبي (صلّى الله عليه وآله) في خطابه بغدير خم حينما نصب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) خليفة وإماماً على المسلمين من بعده.

حاجة الإمة إلى الإمامة

الإمامة اصل من أصول التشريع الإسلامي، اتفق المسلمون على ضرورتها، لأن الشريعة الإسلامية مجموعة من الأحكام والقواعد فيها الحدود والعقوبات، وفيها الحكم بما أنزل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيها الجهاد في سبيل الله، والدفاع عن حياض الدين، والإرث والزواج وكل ما يتعلق بتنظيم الحياة الدنيوية والدينية تنظيماً سليماً مباركاً يعود بالفائدة على الفرد والمجتمع. جاء في السياسة الشرعية لابن تيمية:

(إن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة المظلوم وكذلك سائر ما أوجبه الله من الجهاد والعدل، وإقامة الحدود، ولا تتم إلا بالقوة والإمارة..)100.

فلابد لوجود المسلمين السياسي والديني والاجتماعي من إمام يسوس أمرهم ويعالج قضاياهم على ضوء كتاب الله، وسنّة نبيه المصطفى (صلّى الله عليه وآله)، ويسير فيهم سيرة حسنة قوامها العدل الخالص، وإظهار الحق وإرجاعه إلى مستحقه.

وبذلك تصبح الإمامة ضرورة من ضروريات الحياة الإسلامية لا يمكن الاستغناء عنها، فبها تتحقق العدالة الكبرى التي ينشدها الله في الأرض عن طريق الأئمة العلماء. ومن هنا كان القول المأثور: العلماء ورثة الأنبياء.

ومن الأمور الضرورية الداعية إلى قيام الإمامة: ايصال الناس إلى معرفة الله وطاعته، وارشاد المجتمع إلى الخير والحق والصلاح وتغذيته بروح الإيمان والتقوى وإبعاده عن الشرور والمفاسد.

الاتفاق على وجوبها

اتفق عامة المسلمين على وجوب الإمامة بمعناها القيادي للامة سوى الخوارج فإنهم قالوا: لا يلزم الناس فرض الإمامة، وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق فيما بينهم.101

وقد أجمع المسلمون على زيف ذلك وبطلانه أما الأخبار التي تضافرت على ضرورتها هي كثيرة اخترنا منها:

1- قول الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله): (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية وقال (صلّى الله عليه وآله): من فارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عصبية يغضب لغضبها أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة فقتل فقتلته جاهلية)102.

وقال ابن خلدون: (إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين ولم تترك الناس فوضى في عصر... واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام...)103.

يبدو واضحاً ممّا تقدم أن المسلمين قد أجمعوا منذ فجر التاريخ على ضرورة الإمام، وإنها من الواجبات الشرعية التي لا تستقيم الحياة في البلاد الإسلامية بدونها.

تعيين الإمام

أجمع الشيعة أن الانتخاب في الإمامة باطل، والاختيار فيها مستحيل، فحالها كحال النبوة، ليس بيد الأمة، ولا بيد أهل الحل والعقد فكما أن النبوة لا تكون بإيجاد الإنسان ورغبته كذلك الإمامة، لأنّ العصمة التي هي شرط من شروط الإمامة عند الشيعة، لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، المطلع على دخائل القلوب وخفايا النفوس، فهو عزّ وجلّ وحده يمنحها لمن يشاء من عباده ويختاره لمنصب الإمامة والخلافة.

فالنبوة والإمامة، كونهما منصباً إلهياً فإن تعيينهما من مختصاته تعالى ولا يجوز فيهما الترشيح والانتخاب. وقد أعلن ذلك في القرآن الكريم. قال تعالى: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ)104.

وقال تعالى أيضاً: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)105.

والنصوص المتضافرة عن أئمة أهل البيت تدل بوضوح على وجوب تعيين الإمامة من الله عزّ وجلّ. من تلك النصوص ما استدل به حجة الله على أرضه وخليفته على عباده الذي يصلح ما فسد من نظام الدين ويقوم

الاعوجاج، مهدي هذه الأمة عجل الله فرجه الشريف وذلك عندما سأله سعد بن عبد الله عن العلة التي تمنع من اختيار الناس إماماً لأنفسهم فأجابه (عليه السلام) قائلاً:

ـ يختارون مصلحاً أو مفسداً؟ ـ بل مصلحاً.

ـ فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد بما يخطر ببال غيره من إصلاح أو فساد؟

ـ بلى.

ـ فهي العلة أوردها لك ببرهان يثق به عقلك، اخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله وأنزل الكتب عليهم، وأيدهم بالوحي والعصمة، إذ هم أعلام الأمم، وأهدى إلى الاختيار، منهم مثل موسى وعيسى هل يجوز مع وفور عقلهما، وكمال علمهما إذا هما بالاختيار أن تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنان أنه مؤمن.

ـ لا.

ـ هذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه، ونزول الوحي عليه اختار من أعيان قومه، ووجوه عسكره لميقات ربه سبعين رجلاً ممن لا يشك في إيمانهم وإخلاصهم، فوقعت خيرته على المنافقين.

قال تعالى في ذلك:

(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)106 الى قوله تعالى:

(...فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ)107 فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه الله للنبوة واقعاً على الأفسد دون الأصلح، وهو يظن أنه الأصلح علمنا ان الاختيار ليس الا لمن يعلم ما تخفي الصدور، وتكن الضمائر)108.

من هنا نعلم أن الطاقات البشرية قاصرة عن إدراك الأصلح الذي تسعد به الأمة وإنما أمر ذلك بيد الله تعالى العالم بخفايا الأمور قال تعالى: (إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)109.

واجبات الإمام

حمل الإسلام مسؤولية كبيرة على عاتق الإمام، فأوجب عليه السهر على مصالح المسلمين ورعاية شؤونهم الدينية والدنيوية، وأناط به العمل على تطوير حياتهم وارشادهم إلى الخير والصلاح.

وقد ذكر المعنيون بهذه البحوث أهم الواجبات التي يجب على الإمام القيام بها من أجل صيانة الإسلام كما أراده الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله):

1ـ حراسة الإسلام وحفظ الدين وصيانته من المستهترين بالقيم الإنسانية والأخلاقي الحميدة.

2ـ حماية بيضة الإسلام لينصرف الناس في معايشهم وينتشروا في أسفارهم، آمنين على أنفسهم وأموالهم.

3ـ الدفاع عن الثغور بالعدد والعُدَد حتى لا يطمع العدو بهم فينتهك محارمهم، ويسفك دماء المسلمين، من هنا وجب الجهاد.

4ـ الجهاد ضد الكفار المحاربين للإسلام حتى يسلموا أو يدخلوا في ذمة المسلمين قياماً بحق الله بظهور دينه على الدين كله.

قال تعالى: (وَيَأْبَى اللهُ إِلاَ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)110.

5- تنفيذ الأحكام الشرعية بالحق، وقطع الخصومات حتى لا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم، وإقامة الحدود لتتوقى المحارم، وتصان الأنفس والأموال.

6- اختيار الأمناء والأكفاء، وتقليد الولايات للثقات النصحاء لتضبط الأعمال وتحفظ الأموال.

7- جباية أموال الفيء، والخراج على ما أوجبه الشرع نصاً أو اجتهاداً من غير حيف ولا عسف.

8- العطاء المحق لكل واحد من بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعه إلى المسلمين في وقت معلوم لا تقديم فيه ولا تأخير.

9- الإشراف على الأمور العامة بنفسه غير معتمد على ولاته وعماله، فقد يغش الناصح ويخون الأمين فينجرف وراء أهوائه وأطماعه. قال تعالى: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ)111.

وجاء في الصحيحين من رواية ابن عمر قال: سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول: (كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالمرأة في بيت زوجها راعية ومسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)112.

وأخرج الترمذي من حديث عمرو بن مرة الجهني قال لمعاوية: سمعت النبي (صلّى الله عليه وآله) يقول: (ما من إمام يغلق بابه دون ذوي الحاجات والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته)113.

ومن يمعن النظر فيما أثر عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) يرى أن واجبات الإمام أشمل من ذلك فانها تصل إلى إقامة مجتمع يعيش أفراده في ضلال العدل والحق والحرية، ونشر الأخلاق والفضائل التي دعا إليها الدين الإسلامي، ونبذ الرذائل والبغي والفساد التي نهى عنها. فواجبات الإمام مهمة وشاملة نتمنى أن يأخذ بها رؤساء العالم اليوم أو ببعض منها.

هذا من حيث الواجبات أما عن صفات الإمام، فما هي الصفات التي نص عليها الفقه الإسلامي والتي يجب أن يتحلى بها الإمام؟

صفات الإمام

لابدّ أن تتوفر في الإمام جميع الصفات الرفيعة، والنزعات الخيرة والمثل الكريمة، من علم وتقوى، ورجاحة في الرأي وأصالة في التفكير ودراية تامة بما تحتاج إليه الأمة في جميع مجالاتها وقد ذكر المعنيون بالفقه الإسلامي الشروط الأساسية التي يجب أن تتوفر في الإمام عند الشيعة. أهمها114:

1- العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.

2- العدالة بشروطها الجامعة وهي الامتناع من ارتكاب الذنوب، وعدم الإصرار على صغائرها.

3- سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان... ليصح معه مباشرة ما يدرك بها.

4- سلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة، وسرعة النهوض.

5- الرأي المفضي إلى سياسة الرعيّة، وتدبير المصالح.

6- الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية بيضة الإسلام وجهاد العدو، لأن الجهاد في سبيل إحقاق الحق باب من أبواب الجنة كما قال أمير المؤمنين في خطبة الجهاد.

7- النسب وهو أن يكون الإمام من قريش لأنها أفصح العرب وأعلمهم ويعتقد الشيعة أن الإمام يجب أن تتوفر فيه صفات أخرى فيكون أفضل الناس في ملكاته الفكرية وإبداعاته الشخصية ألا وهي العصمة.

العصمة

العصمة عند الشيعة هي قاعدة أساسية في الإمامة، وهي من المبادئ الأولية في كيانهم العقائدي وقد عرفها المتكلمون فقالوا:

إنها لطف من الله يفيضها على أكمل عباده، وأفضلهم عنده، وبها يمتنع من ارتكاب الآثام والجرائم عمداً أو سهواً.. هذه العقيدة أثارت عليهم التهم والطعون، فاتهمهم قوم بالغلو والإفراط في الحب، حب أهل البيت (عليهم السلام).

لكنا إذا رجعنا إلى الأدلة الموضوعية نجدها مؤيدة لما تذهب إليه الشيعة، ويكفي في ذلك القرآن الكريم وآية التطهير:

قال تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)115.

تدل هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على عصمة أهل أئمة البيت (عليهم السلام) من الذنوب وطهارتهم من الزيغ والرجس116، وذلك بما جاء فيها في علم صناعة الكلام من حصر وتأكيد.

فحصر إذهاب الرجس بكلمة إنما التي هي من أقوى أدوات الحصر.

ـ ودخول اللام في الكلام الخبري.

ـ وتكرار لفظ الطهارة، وكل ذلك يدل على الحصر والاختصاص.

ـ كما أن إرادة الله بإذهاب الرجس عنهم يستحيل فيها أن يتخلف المراد عن الإرادة. قال تعالى:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)117.

وبهذا يتم الاستدلال الأكيد على عصمة أئمة أهل البيت من كل ذنب ومعصية.

ومن منا لا يذكر حديث الثقلين الذي يدل بوضوح تام على العصمة فقد قرن الرسول (صلّى الله عليه وآله) بين الكتاب والعترة، فكما أن الكتاب العزيز معصوم من الخطأ والزلل فكذلك العترة، وإلاّ لما صحت المقارنة والمساواة بينهما. وبعد توفر الأدلة الموضوعية فلا مساغ للإنكار على الشيعة بذلك.

وما نراه أن نصوص القرآن هي التي قادتهم إلى ذلك وصحاح السنة ودلائل العقل. حتى أن طبيعة الإسلام ذاتها اضطرتهم إلى هذه العقيدة.

ونحن لسنا في صدد الدفاع عن الشيعة، لأننا نبغي الحقيقة أينما كانت فالعصمة التي يشترطونها في إمام المسلمين، لا تخرج به عن مصاف البشر، ولا تلحقه بعداد الآلهة كما يتقول المتقولون!

ثم هل العصمة في ذاتها جزء الهي حتى إذا اشترطناها نكون قد قلنا في الخليفة بالحلول؟!

ولا يخفى على أحد من العلماء أن العصمة رصيد نفساني كبير يتكون من تعادل جميع القوى النفسانية، وبلوغ كل واحدة منها أقصى درجة يمكن أن يبلغها الإنسان، ثم سيطرة القوى العقلية على جميع هذه القوى والغرائز سيطرة كاملة حتى لا تشذ في أمر ولا تستغل دونها في عمل.118. ثم يزيد فيقول:

هذه الحصانة الذاتية التي يرتفع بها الإنسان الأعلى عن الاتضاع في طبيعته، ويمتنع بها عن الانزلاق في إرادته وعن الانحرافات التي تترسب في منطقة اللاشعوري، وتتحول عقداً نفسية تتحكم في دوافع المرء وفي سلوكه وفي اتجاهاته وملكاته وتسوقه من حيث لا يريد إلى النشوز عن الحق والشرود عن العدل.

هذه الحصانة الذاتية التي توقظ مشاعر الإنسان الكامل فلا يغفل، ويعتلي بملكاته واشراقه فلا ينزلق، ولا يكبو، والتي تحفظ له صحته النفسية من كل وجه، هذه هي العصمة التي يشترطها مذهب أهل البيت في الرئيس الأعلى لحكومة الإسلام، وفي ظني أنه شرط بمنتهى الجلاء كما أنه بمنتهى الحكمة..)119.

إن المنطق العلمي بجميع أبعاده يقضي بصحة ما تذهب إليه الشيعة من اعتبار العصمة في أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أما القول المعاكس فلا يستند إلى منطق عقلي ودليل علمي.

وصفة أخرى هامة جداً يقول بها الشيعة وهي:

العلم

يعتقد الشيعة بأن الإمام لابدّ أن يكون أعلم الناس في عصره وأفضلهم في مقدراته العلمية. وقد أوضح هذه الجهة توضيحاً دقيقاً سماحة المغفور له الشيخ محمد رضا المظفر فقال: (أما علمه، فهو يتلقى المعارف والأحكام الإلهية، وجميع المعلومات من طريق النبي (صلّى الله عليه وآله) أو الإمام (عليه السلام) قبله، وإذا استجد شيء لابدّ أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التي أودعها الله تعالى فيه، فإنّ توجه إلى شيء وشاء أن يعلمه من طريق على وجهه الحقيقي لا يخطئ فيه، كل ذلك مستنداً إلى البراهين العقلية، ولا يستند إلى تلقينات المعلمين، وإن كان علمه قابلاً للزيادة والاشتداد، ولذا قال الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله): (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً).

وأضاف يقول بعد الاستدلال على ذلك: ويبدو واضحاً هذا الأمر في تاريخ الأئمة (عليهم السلام) كالنبي محمد (صلّى الله عليه وآله) فإنهم لم يتربوا على أحد، ولم يتعلّموا على يد معلم، من مبدأ طفولتهم إلى سن الرشد حتى القراءة والكتابة، ولم يثبت عن أحدهم أنه دخل الكتاتيب أو تتلمذ على يد أستاذ في شيء من الأشياء مع مالهم من منزله علمية لا تجارى. وما سئلوا عن شيء إلا أجابوا عليه في وقته، ولم تمر على ألسنتهم كلمة (لا أدري) ولا تأجيل الجواب إلى المراجعة أو التأمل أو نحو ذلك في حين أنك لا تجد شخصاً مترجماً له من فقهاء الإسلام ورواته وعلمائه إلا ذكرت في ترجمته وتربيته وتلمذته على غيره وخذ الرواية أو العلم على المعروفين وتوقفه في بعض المسائل أو شكه في كثير من المعلومات كعادة البشر في كل عصر ومصر)120.

أما الإمام كاشف الغطاء فقد عرض إلى صفات الإمام (عليه السلام) وقال فيما يختص في مواهبه العلمية:

(وأن يكون أفضل أهل زمانه في كل فضيلة، وأعلمهم بكل علم، لأن الغرض منه تكميل البشر وتزكية النفوس، وتهذيبها بالعلم والعمل الصالح (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)121.

والناقص لا يكون مكملاً، والفاقد لا يكون معطياً، فالإمام في الكمالات دون النبي وفوق البشر)122.

وكما ترى هذا هو الرأي الصريح للشيعة في علم الإمام، وليس فيه أي غلو أو هوى كما يتهمهم الخصوم.

وهنا يحضرني قول من وصف كلام الإمام علي (عليه السلام) أمير المؤمنين في نهج البلاغة فقال:

(كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق).

وأفضل كلام يقال في هذا المجال كلمة الإمام الرضا (عليه السلام) فهي من أعمق الأدلة على الإمامة، واكثرها استيعاباً وشمولاً وبياناً لمنصبها فقال (عليه السلام):

هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم؟

إن الإمامة أجل قدراً، وأعظم شأناً، وأعلى مكاناً، وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم، أو يقيمون إماماً باختيارهم.

إن الإمامة خصّ الله بها إبراهيم الخليل (عليه السلام) بعد النبوة، والخلّة مرتبة ثالثة، وفضيلة شرفه بها، وأشاد بها ذكره، فقال عزّ وجلّ: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) فقال الخليل سروراً بها: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي)؟ قال عزّ وجلّ: (لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) 123.

فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة، وصارت في الصفوة. ثم أكرمه الله تعالى وجعل ذريته أهل الصفوة والطهارة.

فقال عزّ وجلّ: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)124.

ولم تزل الإمامة في ذريته يرثها بعض عن بعض قرناً بعد قرن حتى ورثها النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) قال عزّ وجلّ:

(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)125.

فكانت الخلافة للنبي الأكرم محمد (صلّى الله عليه وآله) التي قلّدها علياً بأمر الله عزّ وجلّ فصارت له في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان بقوله عزّ وجلّ: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ)126.

فالامامة أصبحت في ولد علي خاصة إلى يوم القيامة إذ لا نبي بعد النبي محمد (صلّى الله عليه وآله)، فمن يختار هؤلاء الجهال؟

إن الإمامة هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، وخلافة الله عزّ وجلّ وخلافة الرسول ومقام أمير المؤمنين، وميراث الحسن والحسين (عليهما السلام) حتى وصلت إلى الإمام زين العابدين، ومنه إلى الإمام الباقر، ومنه إلى الإمام الصادق، ومنه إلى الإمام الكاظم عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى السلام، وهكذا تتابعت في هذه الذرية الطاهرة إلى الإمام المهدي الثاني عشر عجّل الله فرجه الشريف.

وتعرض (عليه السلام) بعد هذا إلى علم الأنبياء والأئمة فقال:

(إن الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم يوفقهم الله، ويؤتيهم من مخزون علمه. وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم، فيكون علمهم فوق كل علم أهل زمانهم، ثم انظروا إلى قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)127. وقال عزّ وجلّ: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) 128 وقال عزّ وجلّ في الأئمة من أهل بيت نبيه (صلّى الله عليه وآله) وعترته وذريته (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً)129.

فالعبد الصالح الذي اختاره الله عزّ وجلّ لأمور عباده شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم الهاماً، فهو معصوم، مؤيد، موفق، مسدد، قد أمن الخطايا والزلل، والعثار؛ يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده، وشاهده على خلقه.

(ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)130.

فهل يقدرون على مثل هذا فيختارون؟! أو يكون مختارهم بهذه الصفة فيقدموه، تعدوا وبيت الله الحق، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون، وفي كتاب الله الهدى والشفاء فنبذوه واتبعوا أهواءهم فذمهم الله ومقتهم وأتعسهم، فقال عزّ وجلّ: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)131. وقال

عزّ وجلّ: (فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)132. وقال عزّ وجلّ: (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)133.

انتهى بذلك حديث الإمام الرضا (عليه السلام) 134 وهو حافل بأكمل وأروع صور الاستدلال والحجة الدامغة على ضرورة الإمامة، واستحالة الاختيار والانتخاب من قبل سائر الناس، ووجوب رجوع التعيين في ذلك إلى الله تعالى وحده فهو الذي يختار لهذا المنصب الرفيع من يشاء من عباده ممن تتوفر فيه صفات العلم الغزير والمعرفة الواسعة الشاملة لشؤون الحياة الفردية والجماعية. وممن يتحلى بطهارة النفس، وصفاء الذات، وعدم الانقياد والخضوع لدواعي الهوى، ونوازع الشرور والغرور. وبهذه الصفات الكاملة الشاملة يصلح الإمام لهداية الناس واصلاحهم، وارشادهم إلى طرق الخير والكمال، وغرس روح الثقة والفضيلة في نفوسهم ليكونوا كما أرادهم الله عزّ وجلّ وكما أرادهم نبي الله (صلّى الله عليه وآله): (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)135.

النص على الإمامة

ينحصر تعيين الإمام عند الشيعة في النص، وعليه فيجب على النبي (صلّى الله عليه وآله) أن يعين من يخلفه من بعده، وكذلك يجب على الإمام أن ينص على الخلف من بعده الذي يجب أن يرجع إليه الناس. وقد أجمعت كل كتب الحديث التي تعرضت لهذه المواضيع بتدوين النصوص في ذلك فقد أوصى الرسول الأكرم (يوم الدار) في أمير المؤمنين فقال (صلّى الله عليه وآله): (هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا) 136 وأخرج الطبراني الاستناد إلى سلمان الفارسي، قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): إن وصيي وموضع سري، وخير من أترك بعدي وينجز عدتي، ويقضي ديني علي بن أبي طالب)137.

وجاء في حلية الأولياء عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): يا أنس أول من يدخل عليك من هذا الباب إمام المتقين، وسيد المسلمين، وقائد الغر المحجلين، وخاتم الوصيين قال أنس: فجاء علي، فقام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مستبشراً فاعتنقه وقال له: أنت تؤدّي عني، وتسمعهم صوتي، وتبيّن لهم ما اختلفوا فيه بعدي.138

ووردت نصوص نبوية متواترة رواها الفريقان في إمامة السبطين والريحانتين (عليهما السلام) فقد قال (صلّى الله عليه وآله) فيهما: (أنتما الإمامان ولأمكما الشفاعة)139. وقال (صلّى الله عليه وآله) وهو يشير إلى الحسين: (هذا إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسعة)140 وجاء في المراجعات بالاستناد إلى سلمان قال: دخلت على النبي (صلّى الله عليه وآله) فإذا الحسين بن علي على فخذه وهو يلثم فاه، ويقول: (أنت سيد ابن سيد، أنت إمام ابن إمام أخو إمام أبو الأئمة، وأنت حجة الله وابن حجته، وأبو حجج تسعة من صلبك تاسعهم قائمهم)141.

واستفاضت كتب الحديث بنصوص نبوية أخرى تحصر الإمامة في اثني عشر إماماً كلهم من قريش فقد روى جابر بن سمرة قال:

سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول: (لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، ويكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش)142.

وجاء في المراجعات أيضاً أخرج الصدوق بسنده إلى الإمام الصادق (عليه السلام) عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): (الأئمة اثنا عشر أولهم علي وآخرهم القائم المهدي هم خلفائي وأوصيائي)143.

وروى الحافظ أبو نعيم بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): (من سره يحيى حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسها ربي فليوال علياً من بعدي، وليوال وليه، وليقتد بالأئمة من بعدي فإنّهم عترتي خلقوا من طينتي، ورزقوا فهماً وعلماً، وويل للمكذبين بفضلهم من أمتي القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي)144.

ويضاف إلى هذه النصوص النبوية، النصوص التي رواها الثقات والعلماء الأتقياء عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في نص كل إمام منهم على الإمام الذي يخلفه من بعده، فقد أوصى أمير المؤمنين (عليه السلام) حينما حضرته الوفاة إلى ولده الإمام الحسن (عليه السلام) وقال له:

(يا بني أمرني رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ودفع إليّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين) ثم أقبل على الحسين فقال: (وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك هذا ـ وأشار إلى علي زين العابدين ـ ثم أخذ بيد علي بن الحسين وقال: (وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك محمد فاقرأه من رسول الله السلام)145.

هذه النصوص تدل بوضوح وتأكيد على لزوم النص في الإمامة، وبطلان غيره وقد أخذت بها الشيعة واعتمدتها في بناء عقيدتها في الإمامة.

عصر الإمام الكاظم (عليه السلام)

اتسم عصر الإمام الكاظم بموجات رهيبة من الاتجاهات العقائدية التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما تميز بالنزعات الشعوبية والعنصرية والنحل الدينية، الإسلام بريء منها كل البراءة.

وقد تصارعت تلك الحركات الفكرية تصارعاً بعيد المدى أحدث هزاتاً اجتماعية خطيرة. والسبب في ذلك كما يرى علماء الاجتماع يعود إلى الفتح الإسلامي الذي نقل ثقافات الأمم مع سائر علومها وعاداتها وتقاليدها إلى العالم إسلامي، بالإضافة إلى أن الإسلام قد دعا المسلمين في الوقت نفسه إلى الاستزادة من العلوم والمعارف في شتى الحقول. وهذا ما أحدث انقلاباً فكرياً في المجتمع الإسلامي فتلقحت الأفكار وتبلورت بألوان من الثقافة لم يعهد لها المجتمع نظيراً في العصور السالفة. وقد حدث ما لابدّ منه حيث تسربت تلك الطاقات العلمية إلى الجانب العقائدي من واقع الحياة، فحدثت المذاهب الإسلامية، والفرق الدينية، ممّا جعل الأمة تتشعب إلى طوائف وقع فيما بينها الكثير من المناظرات والمخاصمات والجدل، فكانت النوادي التي حفلت بالمعارك الكلامية والصراع العنيف وبصورة خاصة: خلق القرآن، وصفات الخالق الإيجابية والسلبية والقضاء والقدر.. وكان من أبرز المتصارعين في هذه الساحة علماء الكلام، والفلاسفة، علماء الحديث.

من هنا نرى العديد من الكتب التي تناولت هذه المواضيع وهي حافلة بصور كثيرة من تلك الخصومات والمشاجرات والمناظرات.

وكان من أخطر الدعوات المحمومة التي اندلعت في ذلك العصر هي (الإلحاد) قام به دخلاء حملوا في قرارة نفوسهم الحقد على الإسلام والكره للمسلمين، وقد ثقل عليهم امتداد الحكم الإسلامي وانتشار سلطانه في الأرض، وتثبيت شريعته الإنسانية السمحاء.

فرأوا أن لا حول لهم ولا طول إلى محاربته بالقوة، فأخذوا عن طريق الخداع والحيل يبثون سمومهم في نفس الناشئة الإسلامية، وما زالوا حتى اليوم يلقون الشبه والأوهام في النفوس حتى أننا وجدنا من استجاب لهم من المسلمين المخدوعين والمغرورين، وكان لهم بالمرصاد الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) وكبار رجال الفكر

والقادة من أصحابه وطلابه فتصدوا لتلك الأفكار الوافدة بالأدلة العلمية القاطعة وبيّنوا فسادها وبعدها عن المنطق والعقل. فكانت تحمل احتجاجاتهم طابع الجهاد في سبيل الحق والحرص على مصالح الأمة الإسلامية. بسبب ذلك قام علماء الشيعة الجهابذة فحاضروا وناقشوا وحاوروا الملحدين والخارجين على الدين حتى دان لهم عدد غفير وعادوا إلى حظيرة الإسلام مقتنعين راضين. لكن هذا الأمر لم يرق للحكام العباسيين فتصدوا لقاعدة الحركة العلمية من الشيعة واضطهدوهم ونكّلوا بهم ومنعوهم في أغلب الأحيان من الكلام في مجالات العقيدة خوفاً على مناصبهم عندما يظهر الحق الصريح، حتى اضطر الإمام الكاظم (عليه السلام) في أيام المهدي أن بعث إلى هشام أن يكف عن الكلام نظراً لخطورة الموقف، فكفّ هشام عن ذلك حتى مات المهدي.

سياسة الحكم العباسي

قام الحكم العباسي في أكثر أدواره على الظلم والجور نهج فيه العباسيون منهجاً فردياً خاصاً بعيداً عن العدل السياسي والعدل الاجتماعي، تسلموا جميع السلطات الإدارية والقضائية، ولم يكن عندهم ثمة مجلس إداري أو استشاري تعالج فيه أمور الرعيّة ومصالحها ووسائل تطورها وتقدمها. فالخليفة يحكم بحسب رأيه وهواه وكأنّه ظل الله على الأرض ـ كما يقولون ـ فالطابع الاستبدادي للحكم العباسي واضح لا لبس فيه. استبداد ونهب أموال، ومصادرة الحريات، وظلم، وإرغام الناس على ما يكرهون.

والواقع أن الحكم العباسي لا يختلف في مادته وصورته عن الحكم الأموي فالنظام الإداري العباسي هو نفسه في جوهره نظام الأمويين.

الدوائر الرسمية في العصر العباسي أجحفت كثيراً بحقوق العامة في الوقت نفسه كانت تصانع ذوي النفوذ والوجوه المعروفة فتمارس الظلم والجور على الأهالي المساكين الذين يدفعون الضرائب ويلبون الدعوة للجهاد، بينما كان الحكام ينفقون أموال الشعوب الإسلامية على شهواتهم وحواشيهم، ولا نغالي إذا قلنا أن التاريخ يعيد نفسه في أكثر العصور.

جاء في تاريخ الإسلام أن العتابي سُئل: لماذا لا تتقرّب بأدبك إلى السلطان؟

فقال: (إني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء، ويرمي من السور في غير شيء، ولا أدري أي الرجلين أكون!!) ولما قتل المأمون ووزيره الفضل بن سهل، عرض الوزارة على أحمد بن أبي خالد فأبى أن يقبلها وقال: (لم أر أحداً تعرض للوزارة وسلمت حاله) والسبب واضح في ذلك أن الحكم العباسي لم يكن جارياً على قانون معروف أو دستور مكتوب، بل كان يجري حسب نزعات الحاكم ويمول الخليفة، فهو الذي كان يوزع الموت أو الحياة على من كره أو على من أحب.

فالأحكام بالإعدام كانت تصدر من البلاط بمجرد وشاية من غير أن يطمئن أو يوثق بقول المخبر، مرة تصدر بالمفرد ومرة تصدر بالجملة.

ونعطي مثلاً نموذجاً على ذلك: فقد وشي برجل يقال له: (الفضيل بن عمران) إلى أبي جعفر المنصور، وكان كاتباً لابنه جعفر ووليّاً لأمره، فقد وشي به أنه يعبث بجعفر، فبعث المنصور برجلين أو جلادين، وأمرهما يقتل الفضيل حيث وجداه، وكتب إلى جعفر يعلمه ما أمرهما به وقال للرجلين: لا تدفعا الكتاب إلى جعفر حتى تفرغا من قتله. فلما انتهيا إليه ضربا عنقه، وكان الفضيل عفيفاً صالحاً، فقيل للمنصور: إنه أبرأ الناس ممّا رمي به، وقد عجلت عليه، فندم على ذلك، ووجه رسولاً، وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل، فقدم الرسول فوجده جثة هامدة، فاستنكر جعفر ذلك وقال لمولاه:

(ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل، مسلم، عفيف، دين، بلا جرم ولا جناية؟!) فأجابة مولاه سويد:
(هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء، وهو أعلم بما يصنع).
هكذا كان يعتقد أصحاب العقول البسيطة الساذجة، وهكذا كانت أرواح الناس يتصرفون بها حسب ما يشاءون، وما العجب فالملك في نظرهم يفعل ما يحلو له، فهو ظل الله على الأرض، لا يسأل عن ذنب ولا عن جرم. فمن يحاسبه؟ ليس هناك من سلطة قضائية معروفة، وليس عنده من ضمير يردعه عن المحرمات. ومع ذلك يعد نفسه خليفة المسلمين. أين هم وأين الإسلام؟! هوة ساحقة تفصل بينما هم أشبه بالقياصرة والأكاسرة!! والحقيقة أن البلاد الإسلامية أيام الحكم العباسي كانت ترزح تحت كابوس ثقيل من الظلم والجور والتعسّف، حيث كان حكام بني العباس ينفذون خططهم بالعنف والقتل على الظن. ولأوّل مرة في تاريخ الإسلام نجد النطع إلى جانب كرسي الخلافة، كما نجد الجلاد أداة للوصول إلى العرش على حد قول المؤرخ المعروف فليب حتي.
على هذه الحال كان الحكم العباسي في اكثر أدواره وعهوده، وكان خاضعاً للأهواء الشخصية والعواطف القبلية. فالغلمان والنساء والندماء والعابثون كان لهم الضلع الكبير في إدارة شؤون الحكم وتوزيع الهبات والجوائز على المغنين والمغنيات.
فالحكم عندهم لم يخضع لمنطق الحق والعدل اللذين أمر بهما الإسلام.
هذا الوضع غير السليم جعل العصر يحفل بقيام فرق إسلامية عديدة ومذاهب وطوائف اختلفت فيما بينها في أصول الدين وفروعه.

الفرق الإسلامية

أهم ما حصل من أحداث في العصر العباسي الأول قيام المذاهب الإسلامية وحدوث نزاع بين المسلمين فانقسموا إلى عدة طوائف، وفرق اختلفت فيما بينها في اكثر أمور الدين.
والطريق أن الحكم العباسي هو الذي شجع على أحداث المذاهب الإسلامية، فغذاها ونمّاها، وحمل الناس بالقوّة والقهر على اعتناقها. وما نرجح في ذلك:
إبعاد المسلمين عن أئمة أهل البيت الذين يمثلون واقع الدين الإسلامي الصحيح واتجاهاته الثورية في القضاء على الظلم والغبن، وإنقاذ الناس المقهورين من الجور السياسي والاستبداد الظالم، وإذا ما رجعنا قليلاً إلى الوراء نجد: العلويين قد اندفعوا في العصر الأموي إلى ساحات الجهاد المقدس لحفظ الدين وصيانة المجتمع من ظلم الأمويين وبطشهم، لقد حاولوا بتكليف شرعي إعادة المبادئ الكريمة التي ينشدها الإسلام، ويؤمن بضرورة توفيرها على جميع المواطنين، وهي تتلخص على الإيمان الكامل بحق الفرد، ونشر الاستقرار في الربوع الإسلامية، وبسط العدالة والحرية والمساواة والأخوة بين المسلمين، وتوفير كل أسباب المعيشة الهانئة والرزق الكريم والأمن على كافة الأراضي الإسلامية.
هذه المبادئ اعتبرها العلويون القاعدة الأساسية لتقدم المجتمع وتطويره لينطلق في ميدان الحياة الحضارية الحرة الكريمة.
وفي العصر العباسي أكمل العلويون جهادهم من أجل هذه المبادئ العليا فهبّوا إلى ميادين النضال لأن السكوت على الظالم مساعدة له على ظلمه. لذلك واجهوا صعوبات كثيرة ومشاكل معقدة، فسجنوا في السجون، ودس لهم السم، وأريقت دماؤهم، وارتفعت أجسادهم على أعواد المشانق، ولم يتخلوا عن مبادئهم المقدسة ونضالهم الشرعي في مقاومة الظلم من سلطة أي كان، داخلي أم خارجي. فالتف حولهم العدد الغفير من جماهير المؤمنين

لأن العلويين حماة هذه الأمة وقادتها الشرعيين وولاة أمرها، وإنه لا يمكن بأي حال أن تتوفر للمجتمع في ذلك العصر أسباب معيشته ورخائه إلا في ظل حكمهم العادل، فالتف حولهم الثوار والمتظاهرون وهتفوا بأعلى أصواتهم (الدعوة إلى الرضا من آل محمد).

وكان لابدّ من قيام ثورة عارمة اندلعت في جميع أنحاء البلاد على الحكم الأموي فأطاحت به ودكت أركانه، وقامت الدولة العباسية بمؤازرة العلويين الذين كان لهم اليد الطولى في مناصرتها وتثبيت أركانها، ولما استتب لهم الأمر وتملّكوا زمام الحكم، عملوا جاهدين على التنكيل بالعلويين وإبادتهم بأبشع الطرق والأساليب.

وكان المخطط الرهيب الذي أتبعه الحكام العباسيون من السفاح إلى المنصور إلى هارون إلى المأمون إلى الهادي... كلهم عملوا على القضاء على الشيعة ومن ناصرهم من القوى المعارضة، والقوى المؤمنة التي تعرف الحق وأهله.

هذا المخطّط العباسي اعتمد على عدة أمور خلاصتها: أشغال المسلمين بالقضايا العقائدية وتفرقتهم وإبعادهم عن الشؤون السياسية، من هنا وجدنا النوادي في بغداد ويثرب والبصرة وسائر أنحاء العالم الإسلامي تعج بالمناظرات الكلامية، والجدل الفلسفي واحتجاج كل فريق على الفريق الآخر لتثبيت نظريته ودحض نظرية الآخرين، وكل هذه الفرق كانت تدور وتجول حول الإطار العقائدي في الإسلام. وقد وجهت الحياة العلمية في العصور العباسية إلى أحداث المذاهب الإسلامية بعيداً عن الحياة السياسية التي يعيشها عامة المسلمين.

ونقطة هامة أخرى اعتمدها المخطط العباسي هي:

عزل أئمة أهل البيت (عليهم السلام) عن الحياة السياسية، والرقابة المشددة عليهم، ومنع الاتصال بهم، وابعاد الناس عن الأخذ منهم فيما يعود إلى الأمور العقائدية ومعالم الدين الإسلامي.

لذلك وجدنا المنصور الدوانيقي يعهد إلى الإمام مالك، أحد رؤساء المذاهب الأربعة وضع كتاب في الفقه يحمل الناس على العمل به قهراً، فامتنع مالك أوّل الأمر، وهو تلميذ الإمام جعفر الصادق، ثم رضخ لأوامر المنصور بعد الترهيب والترغيب فوضع كتابه المعروف بالموطأ.

منذ ذلك الوقت بدأت الحكومات العباسية تساند أئمة المذاهب الأربعة، وتنشر فقههم، حتى أنها حملت الناس على العمل بهذه المذاهب بعد أن أغدقت عليهم الأموال الطائلة، وكرمتهم تكريماً عظيماً لإبعاد الناس عن المذهب الجعفري، مذهب الإمام الصادق ومذهب أئمة أهل البيت المتخذ برمته عن جدهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، المتخذ عن النبي الأكرم (صلّى الله عليه وآله) الذي هو أول من وضع بذرة التشيع، هذه البذرة الطيبة المباركة، ونماها وتعاهدها بالسقي والعناية.146

وأول من شجع على انتشار مذهب مالك الرشيد حيث أمر عامله على المدينة بان لا يقطع أمراً دون أن يأخذ رأي مالك، كما كان يجلس على الأرض لاستماع حديثه تكريماً لمالك وتعظيماً لمذهبه.

ثم أصدر أوامره بأن لا يهتف أيام الحج إلا مالك، فأخذ الناس يزدحمون عليه وتوافدت إليه الوفود من سائر الأقاليم لاستماع حديثه وأخذ الأحكام الشرعية منه. وكان لا يدنو إليه أحد لما أحيط به من التقدير الرسمي. فقد اجتمع به غلمان من السود غلاظ شداد يأتمرون بأمره، وينكلون بمن شاء أن ينكل به.

لقد علا شأن مالك بما أعطي من السلطة من مكانة مرموقة وعناية بالغة أولتها له الحكومة العباسية كما أولت غيره من أئمة المذاهب الثلاثة الأخرى. والغرض من ذلك واضح كل الوضوح وهو إضعاف كيان أئمة أهل البيت (عليهم السلام) والقضاء على الشيعة الذين كانوا من أقوى الجبهات المعادية للحكم العباسي الظالم. لكنهم

فشلوا وبقي الشيعة يجاهدون وما زالوا في إعلاء كلمة الحق وصيانة الدين الإسلامي من الانحراف والتزوير.
قال تعالى:
(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)147.
ولا يخفى على أحد من المؤرخين وعلماء الحديث والصحابة المؤمنين أن الطائفة الشيعية حملت لواء الإصلاح وثارت في وجه الطغاة والظالمين المستبدين، وحفل تاريخها بالمآثر الطيّبة والمفاخر الحميدة وخدمة الإسلام مهما كلف الثمن. لقد جاهدوا ضد الظالمين لأن السكوت عن الظلم خيانة شرعية، والسكوت عن الظالم يعني مساعدته على ظلمه فلابد إذن من المقاومة الشرعية.
وأول المقاومين للظلم بعد النبي (صلّى الله عليه وآله) الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وقد كلفه ذلك جهاداً مريراً وحروباً دامية ضد المنحرفين عن الدين القويم أمثال معاوية بن أبي سفيان وأعوانه. ثم استلم راية الجهاد في سبيل الله ابنه الإمام الحسين (عليه السلام) ضد يزيد الفاجر العاهر وأعوانه الذين اشتروا الضلالة بالهدى، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، واشتروا الكفر بالإيمان.
أراد الإمام الحسين (عليه السلام) الخروج من أجل الإصلاح في أمة جده التي ظللها معاوية وتابع بعده ابنه يزيد في الانحراف والظلم والضلال، فكان لابدّ للإمام المعصوم إلا أن يقوم بالمسؤولية الإلهية فقال (عليه السلام):
(عهد عهده إليّ أبي عن جدي رسول الله (صلّى الله عليه وآله)) وهكذا تابع الأئمة (عليهم السلام) الجهاد في سبيل الله في جميع العصور.

التنكيل بالعلويين
مع المنصور

أصاب العلويون ألواناً من شتى المحن في العهدين الأموي والعباسي ومحنتهم في عهد المنصور كانت من أقسى المحن وأفجعها، فقد أذاقهم جميع أنواع العنف والجور والعذاب، فحاو عدة مرات إبادة شبابهم وشيوخهم، وكان ما حل بهم من التنكيل مع الحكام العباسيين وخاصة المنصور، أضعاف ما واجهوه أيام الحكم الأموي حتى قيل في ذلك:
يا ليت جور بني أمية دام لنا***وليت عدل بني العباس في النار
لقد واجهوا عنف الخطوب وأقسى الرزايا من أجل تحرير المجتمع الإسلامي وإنقاذه من الجور والظلم والاستبداد.
لم يضعفوا أمام هذا الطاغية وأمام غيره من الحكام الظالمين، بل اندفعوا بكل فخر واعتزاز إلى ساحات الجهاد، وناضلوا في سبيل إعلاء كلمة الله حتى استشهدوا أحراراً كراماً مشجعين الأحرار والمناضلين في عصرهم وفي كل عصر على متابعة طريق النضال، فاتحين لهم أبواب الكفاح، راسمين لهم طريق الخلاص من حكم الذل والعبودية.
وسوف نذكر حادثة أليمة من حوادث جسام كثيرة فعلها المنصور مع العلويين. لقد زجهم في سجن مظلم لا يعرف فيه الليل من النهار، حتى باتوا لا يعرفون وقت الصلاة فجزأوا القرآن الكريم خمسة أجزاء فكانوا يصلون الصلاة

على فراغ كل واحد منهم لجزئه148 أمر الطاغية بإحضار محمد بن إبراهيم وكان أية في بهاء وجهه وجماله ولما حضر عند المنصور التفت إليه بسخرية قائلاً:

أنت المسمى بالديباج الأصفر؟ فقال: نعم.

أما والله لأقتلنك قتلة ما قتلتها أحداً من أهل بيتك.

ثم أمر باسطوانة مبنية ففرغت، وأدخل فيها، فبنيت عليه وهو حي149 وبقي العلويون في سجن المنصور وهم يعانون أهوالاً من الخطوب والمصائب، حتى مرضوا ومات أكثرهم، ثم أمر الطاغية بهدم السجن على من بقي منهم، فهدم عليهم، ومات أكثرهم وفيهم عبد الله بن الحسن150.

حفلت هذه المأساة الغريبة والعجيبة بأنواع الرزايا والخطوب، فقد انتهكت فيها حرمة الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) في ذريته وأبنائه، ولم يراقب المنصور الله فيهم ولم يرع أي حرمة لهم.

لقد وهبت تلك النفوس الزكية أرواحها لله لتنقذ من شر تلك الطغمة الحاكمة عباد الله، حكام ظالمون همهم الدنيا والسلطان والجاه والمال، وفي سبيل ذلك كفروا بجميع القيم الإنسانية، وتنكّروا لجميع المبادئ الإسلامية.

هذه المأساة الكبرى أثارت موجات من السخط على بني العباس فتجمهر الأحرار حول أهل البيت متمسكين بعد لهم ومبادئهم بغية إنقاذهم من هذا الوضع المتردي الأليم. وقد اندفع الشعراء بعد أحقاب من السنين المريرة بهجاء الحكام العباسيين على جرائمهم النكراء وخاصة الجريمة الأخيرة التي ذهب ضحيتها عبد الله بن الحسن.

من هؤلاء الشعراء نذكر أبا فراس الحمداني الشاعر العربي الأصيل، استنكر الجريمة النكراء واندفع قائلاً في قصيدة طويلة بلغت ما يقارب الستين بيتاً نذكر منها:

الدين مخترم، والحق مهتضم؛***وفيء آل رسول الله مقتسم

يا للرجال! أما لله منتصف***من الطغاة؟ أما للدين منتقم؟!

بنو عليّ رعايا في ديارهم*** والأمر تملكه النسوان والخدم!

للمتقين، من الدنيا، عواقبها***وإن تعجل منها الظالم الأثم

لا يطغينّ بني العباس ملكهم! ***بنو علي مواليهم وإن زعموا

أتفخرون عليهم؟ لا أبالكم***حتى كأنّ رسول الله جدكم

وما توازن، يوماً بينكم شرف***ولا تساوت بكم، في موطن، قدم

ولا لكم مثلهم، في المجد، متصل***ولا لجدكم مسعاة جدهم

ولا لعرقكم من عرقهم شبه***ولا نفيلتكم من أمهم أمم

قام النبي بها، يوم الغدير، لهم***والله يشهد، والأملاك والأمم

حتى إذا أصبحت في غير موضعها***لكنهم ستروا وجه الذي علموا

ثم ادعاها بنو العباس إرثهم***وما لهم قَدَم، فيها، ولا قِدَم

بئس الجزاء جزيتم في بني حسن***أبوهم العلم الهادي وأمهم

لا بيعة ردعتكم عن دمائهم***ولا يمين، ولا قربى، ولا ذمم

هلا صفحتم عن الأسرى بلا سبب***للصافحين ببدر عن أسيركم؟

هلا كففتم عن الديباج السنكم***وعن بنات رسول الله شتمكم؟

ما نزهت لرسول الله مهجته***عن السياط! فهلا نزّه الحرم؟

ما نال منهم بنو حرب، وإن عظمت***تلك الجرائر، إلا دون نيلكم

كم غدرة لكم في الدين واضحة!***وكم دم لرسول الله عندكم!
أأنتم آله فيما ترون، وفي***أظفاركم، من بنيه الطاهرين دم؟
هيهات لا قربت قربى ولا رحم***يوماً، إذا أقصت الأخلاق والشيم!
كانت مودة سلمان له رحم***ولم يكن بين نوح وابنه رحم!151
ليس الرشيد كموسى في القياس ولا***مأمونكم كالرضا إن أنصف الحكم
الركن والبيت والأستار منزلهم***وزمزم، والصفا، والحجر والحرم
صلى الإله عليهم، أينما ذكروا***لأنهم للورى كهف، ومعتصم

يبدو واضحاً من هذا الشعر الأسى العميق على ما أصاب العلويين من النكبات والرزايا في عهد المنصور وسائر ملوك بني العباس الذين تنكروا للاحسان الذي أسداه إليهم الرسول الأعظم وعلى جدهم العباس فقد قابلوا الإحسان بالاساءة، والعفو بالعقاب المرير لذرية النبي الشريفة، وعترته الطاهرة.

مصادرة أموال العلويين

لما اعتقل المنصور العلويين، وأودعهم في السجون المظلمة، عهد إلى عامله بمصادرة جميع أموالهم وبيع رقيقهم.152

كما صادر اموال الإمام الصادق (عليه السلام)، ولما هلك المنصور يروى أن المهدي أرجعها إلى ابنه الإمام موسى الكاظم (عليه السلام).

وضعهم في الاسطوانات153

بدأ المنصور يفتش على من بقي من العلويين فمن ظفر به جعله في الاسطوانات المجوفة المبنية من الجص والآجر، حتى ظفر بغلام من ولد الحسن وكان حسن الوجه فسلمه إلى البناء وأمره أن يجعله في جوف اسطوانة ويبني عليه، فدخلت البناء رقة على هذا الولد الوسيم فترك له في الاسطوانة منفذاً يدخل منها الهواء، وقال للغلام: لا بأس عليك فاصبر فإني سأخرجك من جوف هذه الاسطوانة عندما يرخى الليل سدوله.

ولما جن الليل جاء البناء فأخرج العلوي المظلوم، وقال له: اتق الله في دمي ودم العملة الذين معي، وغيّب شخصك، فإني إنما أخرجتك في ظلمة هذه الليلة لأني خفت أن يكون جدك رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يوم القيامة خصمي بين يدي الله، وأكد عليه بأن يواري نفسه فطلب منه الغلام أن يخبر أمه لتطيب نفسها، ويقل جزعها، فهرب الغلام ولا يدري بأي أرض أقام، وجاء البناء إلى دار أم الغلام ليعلمها بخلاص ابنها من قبضة ذلك الطاغية فسمع دوياً كدوي النحل قبل أن يدخل من البكاء فعرف أنها أمه فأسرها بخبر ولدها، وانصرف عنها.154

هلاك المنصور

عهد المنصور بأمره إلى ولده المهدي، ونصبه ملكاً من بعده وأوصاه بهذه الوصية: (إني تركت بعض المسيئين من الناس على ثلاثة أصناف، فقيراً لا يرجو إلا غناك، وخائفاً لا يرجو إلا أمنك، ومسجوناً لا يرجو الفرج إلا منك، فإذا وليت فأذقهم طعم الرفاهية، لا تمدد لهم كل المد.. وقد جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلي، وبنيت لك مدينة لم يكن في الإسلام مثلها..)155.

هلك الطاغية الجبار الذي أذاق جميع الناس صنوف الظلم والجور والفقر سنة (158هـ) وانطوت بذلك صفحة سوداء من حياة الأمة الإسلامية مملوؤة بالاثم والموبقات وكان عمر الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) آنذاك ثلاثين سنة، مضى خلالها زهرة شبابه في عهد هذا الطاغية مكلوم القلب، حزين النفس، كاظم الغيظ حزناً على المسلمين عامة، وعلى ما لاقاه العلويون خاصة من التنكيل البشع، والعذاب الأليم. وسوف نرى صفحة أخرى مع ولده المهدي.

في عهد المهدي

كان المهدي ألين جانباً من أبيه فقد عرف بالسخاء، وبسط الكف، وعدم القسوة على الناس عموماً، لذلك استقبله العالم الإسلامي بمزيد من الفرح والبهجة لما لاقاه من العنف والجور في حكم أبيه المنصور. وحينما استقل بالحكم أصدر مرسوماً ملكياً بالعفو عن جميع المساجين والمعتقلين السياسيين، سوى من كان في عنقه دم أو كان ذا فساد في الأرض؛ كما رد جميع الأموال المنقولة والثابتة التي صادرها أبوه من أهلها ظلماً وعدواناً، ومن هؤلاء كان الإمام موسى (عليه السلام) رد عليه كل ما صادره أبوه المنصور من الإمام الصادق (عليه السلام).

يقول المؤرخون عن سبب ذلك أنه يعود إلى الوضع العام في البلاد حيث أصبح الملك على جانب عظيم من الطمأنينة والاستقرار.

وسبب آخر هو ما ظفر به من الثراء العريض ممّا جمعه أبوه المنصور الذي يعده الجاحظ، من أصحاب الجمع والمنع ومن أبخل البخلاء.

لكن ممّا يؤسف له أن هذا المال الذي جمعه أبوه بالتقتير والظلم قد أنفقه المهدي على اللهو والمجون والهبات الكبيرة للماجنين والمغنين والعملاء، دون أن يهتم بالطبقة الضعيفة الفقيرة فكان كل همه إشباع شهواته الشخصية، والبذخ والترف والمجون. أمّا ما ورثه من أبيه وبقي على الخط نفسه: عداؤه للعلويين وشيعتهم، فقد كان يكرههم كرهاً شديداً، ورث ذلك من أبيه المنصور الذي كان يعتقد أن لا بقاء له في الحكم إلا بالقضاء على العلويين وشيعتهم وفيما يلي نعرض بعض نزعاته الحاقدة وأعماله الجائرة وما لاقاه الإمام موسى (عليه السلام) في عهده من ظلم وجور وسجن.

شاع اللهو في عهد المهدي، وساد المجون، وانتشر التحلل بين الناس، فقد ذاع شعر بشار بن برد وتغزله بالنساء حتى ضجّ منه الأشراف والغيارى على الدين. دخل على المهدي يزيد بن منصور وطلب منه أن يوقف بشاراً عند حده، فضيق عليه في بادئ الأمر ثم أطلق سراحه، وانجرف هو بتيار مكشوف من المجون والدعارة، ويعد بنظر الجاحظ المؤسس الأول للهو في دولة بني العباس.

يقول الجاحظ:

(إنه احتجب بادئ ذي بدء عن المغنين ثم قال: إنما اللذة في مشاهدة السرور في الدنو ممن سرني، فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها؟) وبلغه حسن صوت إبراهيم الموصلي وجودة غنائه فقرّبه إليه، وأعلى من شأنه 156 وكان مولعاً بشرب الخمر حتى نهاه عن ذلك وزيره يعقوب بن داود قائلاً له: (أبعد الصلاة في المسجد تفعل هذا؟!).

فلم يلتفت لنصحه وقد سمع نصيحة بعض الشعراء الماجنين الذين حبذ له الاستمرار في شربها وعدم الاعتناء بقول وزيره قائلاً:

فدع عنك يعقوب بن داود جانباً***وأقبل على صهباء طيبة النشر157

الرشوة والظلم

انشغل المهدي بلهوه وملذاته عن الرعيّة، فأخذ عماله الذئاب ينهبون الأموال ويستلبون الثروات، وانتشرت الرشوة انتشاراً هائلاً عند جميع القائمين على شؤون الدولة. كما عمد إلى ظلم الناس والاجحاف بحقوقهم، فأمر بجباية أسواق بغداد، وجعل الأجرة عليها.158

كما شدد في الخراج إلى حد لا يطاق، وإذا ما اشتكى أحد من رعيته المظلومين مستغيثاً يكون مصيره السجن أو القبر.159

اهتمامه بالوضاعين

قرّب المهدي منه طائفة من علماء السوء الذين باعوا ضمائرهم بثمن رخيص، وفتكوا بالإسلام، وشوهوا معالمه، فأخذوا ينمّقون الأباطيل ويلفّقون الأكاذيب في مدح المهدي والثناء عليه، أمثال:

أبي جعفر السندي، وغياث بن إبراهيم الذي عرف هوى المهدي في الحمام فحدثه عن أبي هريرة أنه قال: (لا سبق إلا في حافراً ونصل، وزاد فيه أو جناح..) فأمر له المهدي على حديثه الكاذب بعشرة آلاف درهم، ولما ولّى عنه جلساؤه قال: (أشهد أنه كذب على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ما قال رسول الله ذلك، ولكنه أراد أن يتقرّب إليّ..) 160. ومع علمه بكذبه فقد أوصله وأعطاه وبذلك شجع حركة وضع الحديث وهي من أعظم الكوارث التي مني بها الإسلام.161

عداؤه للعلويين

كان المهدي يكن في أعماق نفسه البغض للعلويين وشيعتهم، وقد ورث هذه البغضاء والكراهية عن أبيه المنصور، ويعود السبب في ذلك إلى الحق في تولي الحكم؛ فالثورة على الحكم الأموي قامت على أكتاف العلويين حماة العدل والحق في الإسلام؛ وكانت تحمل طابع التشيع وواقعه الذي اتخذه الثوار شعاراً لهم، فناضلوا من أجله وانضم العباسيون إلى الدعوة على هذا الأساس.

روى الطبري قال: دخل المهدي على أبي عون عائداً له، وطلب منه المهدي أن يعرض عليه حوائجه ليقوم بقضائها لأنه كان من أعز أصحابه وآثارهم عنده. فقال له أبو عون:

ـ حاجتي أن ترضى عن ولدي عبد الله، فقد طالت موجدتك عليه.

فقال المهدي: ـ يا أبا عبد الله أنه على غير الطريق، وعلى خلاف رأينا ورأيك، إنه يسيء القول في الشيخين.

فقال أبو عون: ـ هو والله يا أمير المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه، ودعونا إليه، فإن كان قد بدا لكم فمرونا بما أحببتم حتى نطيعكم)162 فالثورة على الحكم الأموي كما يتضح إنما كانت شيعية بجميع أبعادها، فالمهدي متأكد من ذلك وعموم العباسيين يجزمون أن الثورة قامت من أجل التشيع.

وشاهد آخر يدل أن الحق في تسلّم الحكم للعلويين وأن العباسيين اختلسوا الحكم من أجل أطماعهم وهو: أن القاسم بن مجاشع بعث بوصيته إلى المهدي ليشهد فيها يقول بالرسالة الوصيّة:

(شهد الله أن لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الإسلام يشهد بذلك،ويشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن علي بن أبي طالب وصيّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ووارث الإمامة من بعده).

فلما قرأ المهدي الفقرات الأخيرة من الوصية رماها من يده ولم ينظر في باقيها)163.
لقد آمن بذلك خواص العباسيين لكن طمع العباسيين في تولي السلطة وانحرافهم من أجل أطماعهم أحدث في نفوس حكامهم الطامعين هذا البغض للعلويين.

المهدي والإمام موسى (عليه السلام)
في بداية حكمه لم يتعرض المهدي إلى الإمام بمكروه، وقد اكتفى بوضعه تحت الرقابة المشددة. ولما شاع ذكره في الأوساط الإسلامية عامة، والشيعية خاصة، ثار غضب المهدي، وعمد إلى التضييق عليه، ثم إلى اعتقاله، لكنه سرعان ما أطلق سراحه لأنه رأى برهاناً إلهياً منعه عن ذلك. وذاك البرهان:

إطلاق سراح الإمام (عليه السلام)
سئم الإمام (عليه السلام) من السجن، وضاق صدره من طول المدة، فلجأ إلى الله تعالى في أن يخلصه من هذه المحنة. قام في غلس الليل فجدد طهوره وصلّى لربه أربع ركعات واخذ يناجي الله ويدعوه، فاستجاب الله جلّ جلاله دعاء الإمام (عليه السلام)، فأخرج من السجن.

عودة اعتقال المهدي للإمام (عليه السلام)
لما انتشر ذكر الإمام وذاع صيته في جميع الآفاق الإسلامية، خاف المهدي على كرسيه ولم يتمالك حقده وغيظه، واعتقد أن ملكه لا يستقر إلا باعتقال الإمام، فكتب إلى عامله على المدينة يأمره بارسال الإمام إليه فوراً، ولما وصلت الرسالة وبلغ الإمام الخبر، تجهز للسفر من وقته، فسار (عليه السلام) حتى انتهى إلى (زبالة) فاستقبله أبو خالد بحزن، نظر إليه الإمام نظرة رأفة ورحمة وقال له:
ـ ما لي أراك منقبضاً؟!!
ـ كيف لا أنقبض وأنت سائر إلى هذا الطاغية ولا آمن عليك. هدأ الإمام من روعه وأخبره أنه لا ضير عليه في سفره هذا.
ثم انصرف الإمام متوجهاً إلى بغداد. فلما وصل إليها أمر المهدي باعتقاله وإيداعه السجن، ونام المهدي تلك الليلة فرأى في منامه الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فخاطبه:
يا محمد (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ)164.
فنهض المهدي من نومه مذعوراً واستدعى حاجبه الربيع فوراً فلما مثل بين يديه سمع المهدي يردد هذه الآية المباركة، وأمره بإحضار الإمام موسى، فلما أقبل إليه عانقه وأجلسه إلى جانبه ثم قال له بعطف غير مألوف منه: (يا أبا الحسن، إني رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقرأ عليّ الآية المذكورة، أفتؤمنني أن لا تخرج عليّ أو على أحد من ولدي؟
ـ والله ما فعلت ذلك ولا هو من شأني.
ـ صدقت، يا ربيع، أعطه ثلاثة آلاف دينار ورده إلى أهله إلى المدينة، فقام الربيع فشايعه وأحكم أمره وسرحه في الليل.

وسارت قافلة الإمام (عليه السلام) تطوي البيداء حتى انتهت إلى (زبالة) وكان اليوم الذي عينه لأبي خالد الذي يترقب قدومه بفارغ الصبر. فلما قدم (عليه السلام) عليه بادر يلثم يديه والفرح باد عليه فأدرك الإمام سروره وقال له: (إن لهم إليّ عودة لا أتخلص منها)165. وأشار إلى ما يصنعه له هارون من اعتقاله في سجونه.

الإمام الكاظم (عليه السلام) في عهد الهادي

تولى الهادي الخلافة في أيام شبابها الغض، وفي إبان قوتها الكاملة، وثروتها الموفورة، وقد بويع له وهو في غضارة العمر وريعان الشباب، فدفعه ذلك إلى التمادي في الغرور والطيش، ومن مظاهر ذلك أنه كان إذا مشى مشت الشرطة بين يديه بالسيوف المشهورة، والأعمدة والقسي الموتورة 166 ليظهر بذلك أبهة السلطة، اتصف بنزعات شريرة ظهرت في سلوكه وفي أعماله.

ومن هواياته الخاصة اللهو والغناء، أحب صوت إبراهيم الموصلي وغناه فأطربه، فوهب إليه ثلاثين ألف دينار، وهو القائل: لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب.167

وقد بالغ هذا الطاغية المغرور في عدائه للعلويين والتنكيل بهم، فقطع ما أجراه لهم المهدي من الأرزاق والأعطيات، وكتب إلى جميع الآفاق في طلبهم، وحملهم إلى بغداد.168

ومن الكوارث الفظيعة التي حلّت بعترة النبي (صلّى الله عليه وآله) وذريته كارثة (فخ) التي تحدث عنها الإمام الجواد بقوله:

(لم يكن لنا بعد الطف مصرع أعظم من فخ).

لقد اقترف العباسيون في هذه الجريمة أضعاف ما اقترفه الأمويون في مأساة كربلاء، فرفعوا رؤوس العلويين على الرماح ومعها الأسرى يطاف بها في الأقطار، وتركوا الجثث الطاهرة ملقاة على الأرض مبالغة منهم في التشفي والانتقام من أهل البيت (عليهم السلام).

أرسلت رؤوس الأبرار الطاهرين إلى الطاغية الهادي ومعها الأسرى مقيدون بالسلاسل، وفي أيديهم وأرجلهم الحديد.

أمر الطاغية بقتل الأسرى فقتلوا وصلبوا على باب الحبس.169

تهديد الهادي للإمام موسى (عليه السلام)

بعد أن أتم الهادي نكبته بالعلويين أخذ يتوعّد الأحياء منهم بالقتل والدمار وعلى رأسهم عميدهم وسيدهم الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) فقال: (والله ما خرج حسين إلا عن أمره، ولا اتبع إلا محبته لأنه صاحب الوصية في أهل هذا البيت قتلني الله إن أبقيت عليه).

وأضاف يقول في تهديده: (ولولا ما سمعت من المهدي فيما أخبر به المنصور ما كان به جعفر الصادق (عليه السلام) من الفضل المبرز على أهله في دينه، وعمله وفضله، وما بلغني من السفاح فيه من تعريضه وتفضيله، لنبشت قبره وأحرقته بالنار إحراقاً).

استهزاء الإمام به

بعد التهديد خف أهل بيت الإمام وأصحابه إليه وأشاروا مجمعين عليه أن يختفي من شرّ هذا الطاغية لينقذ نفسه من ويلاته، فلم يهتم للأمر لأنه قد استشف من وراء الغيب هلاك هذا الباغي قريباً وتمثل بقول كعب بن مالك:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها***وليغلبن مغالب الغلاب170
وكان ما أراد الإمام بإذن الله سبحانه الذي قصم ظهره قبل أن ينال الإمام بسوء.

دعاء الإمام (عليه السلام) على الهادي

توجه الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) نحو القبلة، وأخذ يتضرع إلى الله لينجيه من شرّ هذا الطاغية الحقود. ودعا بهذا الدعاء الجليل:

(إلهي، كم من عدوّ انتضى عليّ سيف عداوته، وشحذ لي ظبة مديته، وأرهب لي شبا حدّه، وداف لي قواتل سمومه، وسدد نحوي صوائب سهامه، ولم تنم عني عين حراسته، وأضمر أن يسومني المكروه، ويجرّعني زعاف مرارته، فنظرت إلى ضعفي عن احتمال الفوادح، وعجزي عن الانتصار ممن قصدني بمحاربته، ووحدتي في كثير من ناواني، وارصادهم لي فيما لم أعمل فيه فكري في الارصاد لهم بمثله...)171.

وبعد فراغ الإمام (عليه السلام) من دعائه الشريف التفت إلى أصحابه يهدئ روعهم، ويفيض عليهم قبساً من علمه المستمد من علم جده الرسول (صلّى الله عليه وآله) قائلاً: (,حرمة هذا القبر وأشار إلى قبر النبي (صلّى الله عليه وآله) قد مات الهادي من يومه هذا، والله إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون..).

هلاك الطاغية الهادي

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء وليه العبد الصالح فأهلك عدوه الطاغية الجبار، وأراح العباد والبلاد من شره، وروت أكثر المصادر عن سبب وفاته فقالوا: إن أمه الخيزران غضبت عليه لأنه قطع نفوذها لقصة مشهورة، وأنها خافت على ولدها هارون من شرّه، فأوعزت إلى جواريها بخنقه، فعمدت الجواري إلى قتله وهو نائم.172 وبذلك انطوت صفحة هذا الطاغية، ولم تطل خلافته فقد كانت سنة وبضعة أشهر؛ لكنها كانت ثقيلة على المسلمين الذين لاقوا خلالها أصعب المحن، وهل آلم من مشهد رؤوس أبناء النبي (صلّى الله عليه وآله) يطاف بها في الأقطار، وأسراهم يقتلون ويصلبون، لم ترع فيهم لا حرمة الرسول (صلّى الله عليه وآله) ولا حرمة الإسلام، دين المحبة والعدل والتسامح!! كل هذه الأحداث الجسام من المهدي إلى المنصور إلى الهادي إلى الرشيد رآها كلها الإمام موسى بن جعفر بعينه، وشاهدها بنفسه، وذاق ويلاتها، ورافق مآسيها؛ لقد رأى الحق مضاعاً، والعدل مجافى والظلم مسيطراً، والأحرار في القبور وفي غياهب السجون.

عاش في غضون صباه وفي ريعان عمره محنة المجتمع الإسلامي وشقاءه فرأى الأدوار الرهيبة التي مرّت به فلم ينتقل من جور الأمويين وظلمهم حتى وقع تحت وطأة الحكم العباسي، فأخذ يعاني التعسف والجور والاستبداد، وأخذت السلطة العباسية تمعن في نهب ثروات المسلمين وإفقارهم وصرفها على المجون والدعارة كما كان الحال أيام الحكم الأموي. ومن الطبيعي أن يكون لكل ذلك اثر كبير في حياة الإمام الكاظم (عليه السلام) المشحونة بالأسى والحزن.

وقد أُلام لأنني استرسلت في الحديث عن عصر الإمام (عليه السلام) والسبب في ذلك يعود لما لهذه الأحداث الكبيرة والمؤلمة من أثر في حياة الإمام (عليه السلام) لكنه لم يلن له جانب، ولا تهاون مرّة واحدة، ولم يضعف أمام هول كل هذه الجرائم، بل دافع بكل ما أعطاه الله من قوة، وكظم غيظه، وجاهد صابراً مثابراً مطالباً بحق المسلمين المحرومين، ومناصراً للحق من أجل صيانة الدين والمحافظة على حقوق الأمة الإسلامية.

الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) وهارون

لابدّ لنا من الحديث عن الأسباب التي دعت هارون الرشيد لسجن الإمام موسى (عليه السلام) وأظن أن القراء يهمهم الاطلاع على هذه الأسباب، والتعرّف على دور محنته الكبرى أيام اضطهاده في سجن الطاغية هارون.

1- حقد هارون الموروث

كان الحقد من الصفات الرئيسية التي تميّز بها هارون، فهو لم يرق له أن يسمع الناس أن يتحدثوا عن أي شخصية تتمتع بمكانة عليا في مجتمعه، محاولاً تزهيد الناس واحتكار الذكر الحسن لنفسه، وهذا يدل على منتهى الأنانية الحاقدة، ومنتهى الضعف في الشخصية القلقة.

حسد الرشيد البرامكة وحقد عليهم لما ذاع صيتهم، وتحدّث الناس عن مكارمهم حتى أنزل بهم أشد العقاب وأزال وجودهم.

وحقد على الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) لما يتحلى به من شخصية فذّة لامعة بعد أن ذاع صيته العطر بين الناس، وتناقلوا فضائله، وتحدّثوا عن علمه الغزير، ومواهبه العالية. وذهب جمهور غفير من المسلمين إلى الاعتقاد بإمامته وأنه أحق بالخلافة من أي شخص آخر في عصره. وكان يذهب إلى فكرة الإمامة كبار المسؤولين في دولة هارون مثل: علي بن يقطين، وابن الأشعث، وهند بن الحجاج وأبو يوسف محمد بن الحسن وغيرهم من قادة الفكر الإسلامي. والرشيد نفسه يؤمن بأن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) هو أولى منه بهذا المنصب الهام في الأمة الإسلامية كما أدلى بذلك لابنه المأمون.

لم يرقَ لهارون أن يرى في المجتمع من هو أفضل منه، وأن الجماهير وسائر الأوساط الشعبية والخاصة تؤمن أيضا هو أولى بالخلافة منه، وإن الإمام يفوقه علماً وفضلاً وحكمة وثقة، وإن المسلمين قد أجمعوا على تعظيمه، فتناقلوا فضائله وعلومه، وتدفقوا على بابه من أجل الاستفتاء في الأمور الدينية. لذلك كله حقد على الإمام وارتكب تلك الجريمة المروعة حيث أودعه في ظلمات السجون، وغيّبه عن جماهيره وشيعته، وحرم الأمة الإسلامية من الاستفادة من غزير علومه، ونبل نصائحه، وجميل توجيهاته.

2- حرص هارون على المُلك

كان هارون يضحي في سبيل ملكه جميع القيم والمقدسات، وقد عبر عن مدى حرصه على سلطته بكلمته المعروفة التي تناقلتها الأجيال وهي: (لو نازعني رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لأخذت الذي فيه عيناه). أجل! فكيف يخلي عن سراح الإمام، وكيف تطيب نفسه وقد رأى الناس أجمعوا على حب الإمام وتقديره واحترامه؟

كان هارون يخرج متنكراً إلى العامة ليقف على اتجاهاتهم ورغباتهم فلا يسمع إلا الذكر العاطر والثناء الجميل على الإمام، وحب الناس له، ورغبتهم في أن يتولّى شؤونهم، ممّا دفع به على ارتكاب جريمته وقتله.

3- الوشاية بالإمام (عليه السلام)

من الذين بلي بهم الإسلام جماعة من الأوغاد والمتزلفين، باعوا ضمائرهم فعمدوا إلى السعي بالإمام (عليه السلام) والوشاية به عند الطاغية هارون ليتزلّفوا إليه بذلك. وقد بقي منهم نماذج في جميع مراحل التاريخ.

ـ من هؤلاء من أبلغ هارون بأن الإمام تجبى له الأموال الطائلة من شتّى الأقطار الإسلامية، واشترى ضيعة تسمى (اليسرية) بثلاثين ألف دينار، فأثار ذلك كوامن الحقد عند هارون.

وسياسته كانت تجاه العلويين تقضي بفقرهم، ووضع الحصار الاقتصادي عليهم. وهذه الوشاية كانت من جملة الأسباب التي دعت إلى سجن الإمام (عليه السلام).173

ـ وفريق آخر من هؤلاء الأشرار سعوا بالإمام إلى هارون فقالوا له: إن الإمام يطالب بالخلافة، ويكتب إلى سائر الأقطار الإسلامية يدعوهم إلى نفسه، ويحفّزهم ضد الدولة العباسية وكان في طليعة هؤلاء الوشاة يحيى البرمكي. هؤلاء أثاروا كوامن الحقد على الإمام.

ـ ومن الأسباب التي زادت في حقد هارون على الإمام وسببت في اعتقاله احتجاجه (عليه السلام) عليه بأنه أولى بالنبي العظيم (صلّى الله عليه وآله) من جميع المسلمين، فهو أحد أسباطه ووريثه، وإنه أحق بالخلافة من غيره وقد جرى احتجاجه (عليه السلام) معه في مرقد النبي (صلّى الله عليه وآله).

أقبل هارون بوجهه على الضريح المقدّس وسلّم على النبي قائلاً: (السلام عليك يا ابن العم) وقد اعتز بك على من سواه، وافتخر على غيره برحمه الماسّة من النبي (صلّى الله عليه وآله)، وإنما نال الخلافة لقربه من الرسول (صلّى الله عليه وآله). وكان الإمام عند ذلك حاضراً فسلّم على النبي (صلّى الله عليه وآله) قائلاً:

(السلام عليك يا أبتِ). ففقد الرشيد صوابه، واستولت عليه موجات من الاستياء، فاندفع هارون قائلاً بنبرات تقطر غضباً: (لما قلت إنك أقرب إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) منّا؟؟).

فأجابه (عليه السلام) بجواب سديد لم يتمكن الرشيد من الرد عليه. سأله الإمام: (لو بعث الرسول (صلّى الله عليه وآله) حياً وخطب منك كريمتك هل كنت تجيبه إلى ذلك؟.

فقال هارون: سبحان الله!! وكنت أفتخر بذلك على العرب والعجم.

فقال الإمام (عليه السلام) مبيناً له الوجه في قربه من النبي (صلّى الله عليه وآله) قائلاً: (لكنه لا يخطب مني ولا أزوجه لأنه ولدنا ولم يلدكم فلذلك نحن أقرب إليه منكم) ثم زاد قائلاً (عليه السلام):

(هل يجوز للرسول (صلّى الله عليه وآله) أن يدخل على حرمك وهنّ مكشفات؟؟).

فقال هارون: لا.

قال الإمام (عليه السلام) لكن له أن يدخل على حرمي ويجوز له ذلك ولذلك نحن أقرب إليه منكم)174.

وعندها ظهر عجز هارون فقال له: (لله درّك إن العلم شجرة نبتت في صدوركم فكان لكم ثمرها، ولغيركم الأوراق).

واندفع هارون بعدما أعياه الدليل إلى المنطق وأمر باعتقال الإمام (عليه السلام) وزجّه في السجن.175

4ـ صلابة موقف الإمام (عليه السلام)

كان موقف الإمام (عليه السلام) من الطاغية هارون موقفاً واضحاً كل الوضوح، تمثلت فيه صلابة العدل، وقوة الحق، والدفع عن المظلومين، والوقوف إلى جانبهم في كل شؤونهم وشجونهم، فقد أعلن لشيعته أن التعاون مع السلطة الحاكمة حرام ولا يجوز بأي وجه من الوجوه. وشاعت في الأوساط الإسلامية فتوى الإمام بحرمة الولاية من قبل هارون، وحرمة التعاون مع الحكام الظالمين فأوغر ذلك قلب هارون وحقد على الإمام حقداً بعيد الحدود. والإمام (عليه السلام) كما يعلم الجميع لا يعرف المصانعة والتسامح مع الحق، ولا يداري فيما يعود الإساءة إلى مصالح الأمة الإسلامية. فموقفه واضحاً صريحاً. لا لبس فيه.

يروى أنه دخل على هارون في بعض قصوره الأنيقة الفخمة التي لم يرَ مثلها في بغداد، فسأله هارون بعد أن أسكرته نشوة الحكم قائلاً: ما هذه الدار؟

فأجابه الإمام (عليه السلام) غير مهتم بسلطانه وجبروته:

هذه الدار دار الفاسقين. قال تعالى: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)176.

لما سمع هارون هذا الكلام الثقيل على روحه أصابته رعدة عارمة واستولت عليه موجة من الاستياء. فقال للإمام:

ـ دار مَن هي؟

ـ هي لشيعتنا فترة، ولغيرهم فتنة.

ـ ما بال صاحب الدار لا يأخذها؟

ـ أخذت منه عامرة ولا يأخذها إلا معمورة.

ـ أين شيعتك؟

ـ فتلا عليه الإمام (عليه السلام) قوله تعالى: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)177.

فطفح إناء الغضب عند هارون وصاح غاضباً:

ـ أنحن كفار؟!! فقال الإمام: لا، ولكن كما قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)178.

فغضب هارون وأغلظ في كلامه على الإمام179.

هكذا كان موقف الإمام (عليه السلام) مع هارون كموقف أبيه وجده (عليهم السلام) لا لين فيه ولا هوادة أمام الحق. فالغاصب لمنصب الخلافة هو مختلس للسلطة والحكم، ويجب أن يحاسب ويطالب بحقوق الأمة الإسلامية وكما قال سيد الشهداء: (ما خرجت أشراً ولا بطراً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي).

الإمام الكاظم دائرة المعارف

رسالته في العقل

قبل الحديث عن رسالة الإمام موسى (عليه السلام) في العقل التي تعد ثروة فكرية عظيمة، لابدّ لنا من الحديث عن منهج أهل البيت (عليهم السلام) في العقل.

لأهل البيت (عليهم السلام) منهج علمي خاص لا يحيدون عنه، به يفسرون الأمور الدينية، وبه يقيسون المبادئ والآراء والمعتقدات والفلسفات وهو العقل السليم.

بالعقل السليم يستدل على غيره ولا يستدل بغيره عليه. ولأهل البيت كلام كثير بهذا الموضوع ذكره الكليني في أول أصول الكافي منه: (إن الله جعل العقل دليلاً على معرفته.. ومن كان عاقلاً كان له دين.. أعلم الناس بأمر الله أحسنهم عقلاً.. العقل دليل المؤمن).

وجاء في نهج البلاغة لأمير المؤمنين: (أغنى الغنى العقل).

معنى هذا أن العقل هو المبدأ الأول لكل حجة ودليل، واليه تنتهي طرق العلم والمعرفة بكل شيء وكل حكم.

والعقل هو القوة المبدعة التي منحها الله عزّ وجلّ إلى الإنسان وميّزه به على الحيوان الأبكم، وشرّفه على بقية الموجودات، واستطاع به أن يستخدم الكائنات، ويكشف أسرارها، وبالعقل جعله خليفة في الأرض، ينظّم الحياة عليها ويعمرها.

وقد انتهى الإنسان بفضل عقله إلى غزو الفضاء والكواكب، وانطلق انطلاقة رائعة إلى اكتشافات مذهلة، وسيصل في مستقبله القريب أو البعيد إلى ما هو أعمق وأشمل من ذلك.

إن كل حكم سواء أكان مصدره الوحي أم الحس والتجربة دليله العقل حيث لا وزن للسمع والبصر بلا عقل، ولا سبيل إلى العلم بمصدر الوحي إلا العقل ودلالته. وبصورة أوضح نحن نأخذ بحكم الوحي والشرع بأمر من العقل. أما حكم العقل فنأخذه ونعمل به، وإن لم ينص عليه الوحي والشرع، والخلاصة أن أبعد الناس عن الدين من يظن أن الدين بعيد عن العقل. وإن ما يقصد إليه هو العقل السليم.

معنى العقل السليم

العاقل في اصطلاح القرآن الكريم وعند الناس هو الذي يضع الشيء في مكانه ويملك إرادة قوية فيحبس نفسه عما يشين بها ولا يستجيب لهواها إن يكُ مخالفاً للعقل وحكمه. قال تعالى: (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ..)180 وقال عزّ وجلّ: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ..)181.

وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)182.

وقال سبحانه وتعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)183.

يتضح من هذه الآيات الكريمات أن العاقل هو الذي ينقاد إلى حكم العقل، ويؤثره على هواه. وعليه يكون المراد بالعقل السليم: الإدراك النابع من العقل بالذات، العقل المستنير بالمعرفة والحق والإيمان، وليس من الجهل والتعصب والأهواء الشخصية!!

وما نراه أن الرجل الواقعي الواعي لا يجزم بالفكرة الخاطفة العابرة، ولا ينطلق مع رغبته وإرادته قبل أن يتدبر ويتأمل، بل يتريّث ويملك نفسه ويبحث، حتى يهتدي إلى الرأي الناضج الأصيل. على العكس من الرجل العاطفي الذي يبتّ في الأمور برغبته وهواه قبل أن يفكر ملياً، وبتعبير أدق: يصدّق قبل أن يتصوّر.

وسئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن العقل فقال: (ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان. قيل له: فالذي كان في معاوية؟ فقال: تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل، وليست بالعقل).

ويعني بقوله (عليه السلام) أن العقل لا يقود إلى الحرام كما يفعل الشيطان. والله سبحانه وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه حيث قال: (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ)184.

هذه الآية تعد من أوضح الآيات التي جاءت في العقول السليمة. والإمام (عليه السلام) استدل بهذه الآية الكريمة على تقديم أهل العقول السليمة على غيرهم لأن الله قد بشّرهم بالهداية والنجاح، وقد تضمنت الآية التي استشهد بها (عليه السلام) جملة من الفوائد منها:

1- وجوب الاستدلال. 2- حدوث الهداية.

1- إذا وقف الإنسان على جملة من الأمور فيها الصحيح والفاسد، وكان في الصحيح هدايته وفي السقيم غوايته فإنّه يتحتم عليه أن يميز بينهما ليعرف الصحيح منها فيتبعه، والسقيم فيبتعد عنه، ومن الطبيعي أن ذلك لا يحصل إلا بإقامة الدليل والحجة، وبهذا يستدل على وجوب النظر والاستدلال في مثل ذلك.

2- كما دلّت الآية على الهداية، فمن المعلوم أن كل عارض لابدّ له من موجد كما لابدّ له من قابل، أما الموجد للهداية فهو الله تعالى ولذلك نسبها إليه بقوله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ)، وأما القابلون لها كلهم أهل العقول المستقيمة وإلى ذلك أشار بقوله سبحانه: (وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ).

ومن المعلوم أن الإنسان يقبل الهداية من جهة عقله لا من جهة جسمه وأعضائه، فلو لم يكن كامل العقل لامتنع عليه حصول المعرفة والفهم كما هو ظاهر.

قال الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) مخاطباً هشام بن الحكم:

يا هشام: إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيين بالبيان، ودلّهم على ربوبيته بالأدلة فقال سبحانه: (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)185.

يتوضّح من حديث الإمام هذا أن الله أكمل نفوس أنبيائه بالعقول الفاضلة ليكونوا حججاً على عباده، وهداة لهم إلى الطريق السليم لينجوا من مهالك الدنيا ومزالقها، ولو لم يمنحهم العقل لما صلحوا لقيادة الأمم وهدايتها، لأن الناقص لا يكون مكملاً لغيره، وفاقد الشيء لا يعطيه.

كيف نصر الله أنبيائه؟

الله عزّ وجلّ نصر أنبياءه بآيات الصدق، ودلّهم على ربوبيته ببيان الحق، وعلمهم على معرفته وتوحيده بأدلة حماسة تشهد على وجوده، وتدل على وحدانيته.

وكما قال علماء المنطق والفلاسفة، إن المعلول يدل على العلة, والأثر يدلّ على المؤثّر. وقد استدل الإمام الكاظم (عليه السلام) على فضل الله بالآيات الكريمة، وذلك في حديثه الذهبي هذا الذي يعتبر من أهم الثروات الفكرية التي أثرت عنه. وقد شرحه شرحاً فلسفياً الشيخ المتألّه الآخوند ملا صدرا اقتبسنا بعضه.

قال (عليه السلام) من خلال هذه الآية الكريمة:

1- [خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ] البقرة الآية 164

من أعظم آيات الله خلقه للسماوات التي زيّنها بالكواكب السابحة في الفضاء، وسيرها في مداراتها، متباعداً بعضها عن بعض حسب قواعد الجاذبية؛ وهي مسخّرة في حركاتها وانجذابها، وجذبها بأمر الله تعالى، فبعضها أكبر من الأرض بعدة ملايين، وهي تسير في أفلاكها لا يصطدم بعضها ببعض. آية ظاهرة تنادي بوجود الله جلّت قدرته.

جاء في تفسير المنار للشيخ محمد عبده، ج2، ص60.

(تتألف هذه الأجرام السماوية من طوائف، لكل طائفة منها نظام كامل محكم، ولا يبطل نظام بعضها نظام الآخر، لأن للمجموع نظاماً عاماً واحداً يدل على أنه صادر عن إله واحد لا شريك له في خلقه وتقديره وحكمته وتدبيره،

وأقرب تلك الطوائف إلينا ما يسمونه النظام الشمسي نسبة إلى شمسنا هذه التي تفيض أنوارها على أرضنا فتكون سبباً للحياة النباتية والحيوانية.

والكواكب التابعة لهذه الشمس مختلفة في المقادير والأبعاد.

وقد استقر كل منها في مداره، وحفظت النسبة بينه وبين الآخر بنسبة إلهية. ولولا هذا النظام لانفلتت هذه الكواكب السابحة في أفلاكها فصدم بعضها بعضاً، وهلكت العوالم بذلك.

فهذا النظام آية على الرحمة الإلهية كما أنه آية على الوحدانية. يقول العلامة جون وليام كوتس:

(إن ما اكتشفه العلم الحديث من النجوم هو بمقدار من الكثرة بحيث لو كنا نعدّ النجوم كلها بسرعة 1500 نجماً في الدقيقة لاستغرق عدنا 700 سنة، أما نسبة الأرض إليها فهي أقل كثيراً من نقطة على حرف في مكتبة تضم نصف مليون من الكتب من الحجم المتوسط.186 وتابع قائلاً:

(إن هذا العالم الذي نعيش فيه قد بلغ من الإتقان والتعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة.

إنه مليء بالروائع والأمور المعقدة التي تحتاج إلى مدبّر، والتي لا يمكن نسبتها إلى قدر أعمى، ولا شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة وفهم وتقدير ظواهر هذا الكون وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله ومن إيماننا بوجوده)187.

ممّا لا شك فيه أن كل ذلك لم يكن وليد الصدفة إذ كيف يمكن أن تفسر هذه العمليات المعقّدة، وكيف نستطيع أن نفسّر هذا الانتظام في ظواهر الكون، والعلاقات السببية، والتكامل والتوافق والتوازن التي تنتظم بسائر الظواهر، وتمتد آثارها من عصر إلى عصر؟ وكيف يعمل هذا الكون من دون أن يكون له خالق مدبّر، هو الذي خلقه وأبدعه ودبّر سائر أموره؟؟

2- الأرض

ومن عجائب خلق الله في خلقه هذا الكوكب الذي نعيش عليه، فقد جعله تعالى يدور حول محوره في كل 24 ساعة مرة واحدة، وسرعة حركته ألف ميل في الساعة ولو كان يدور حول محوره بسرعة مائة ميل في الساعة لكان طول الليل عشر أمثال ما هو عليه الآن، وكذا طول النهار، وكانت الشمس محرقة في الصيف لجميع النبات، وفي الليالي الباردة كان يتجمد ما عليها من نبات وحيوان، كما أنها لو اقتربت الشمس من الأرض أكثر ممّا عليه الآن لازدادت الأشعة التي تصل إليها بدرجة تؤدي إلى امتناع الحياة عليها، ولو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر لعجزت عن احتفاظها بالغلاف الجوي والمائي اللذين يحيطان بها، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حتى الموت ولو كان قطرها ضعف قطرها الحالي لأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائي وزاد الضغط الجوي وهو يوجب تأثيراً بالغاً على الحياة فإن مساحة المناطق الباردة تتسع اتساعاً كبيراً، وتنقص مساحة الأرض الصالحة للسكن نقصاً ذريعاً، وبذلك تعيش الجماعات الإنسانية منفصلة أو في أماكن متنائية فتزداد العزلة بينها، ويتعذر السفر والاتصال بل قد يصير ضرباً من ضروب الخيال.

ولو كانت الأرض في حجم الشمس لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها إلى مائة وخمسين ضعفاً ونقص بذلك ارتفع الغلاف الجوي ووصل وزن الحيوان إلى زيادة مائة وخمسين ضعفاً عن وزنه الحقيقي كما تتعذّر الحياة الفكرية عامة.188

وميزة أخرى خصّ الله بها الأرض فجعل لها غلافاً غازياً كثيفاً يقدّر سمكه بثمانمائة كيلومتر. وهو يتكون من جميع العناصر الضرورية للحياة، وهو السبب في حيلولة الشهب القاتلة إلى الأرض كما أنه السبب في إيصال

حرارة الشمس بصورة معتدلة إلى الأرض بحيث يمكن أن تعيش على سطحها الحيوانات والنباتات كما أن له الأثر في نقل المياه والبخار من المحيطات إلى القارات، ولولاه لتحوّلت القارات إلى أرض قاحلة، وليس لبعض الكواكب هذا الغلاف ممّا سبب عدم ظهور الحياة عليها.

فالمرّيخ له غلاف غازي ولكنه رقيق جداً وغير صالح للحياة لخلوّه من الأوكسجين.

والزهرة لها غلاف غازي ولكنه مكوّن من ثاني أوكسيد الكربون (co2) ممّا يجعله غير صالح لظهور الحياة.

وكذلك القمر له غلاف رقيق خال من العناصر الضرورية للحياة مثل الأوكسجين 189 ناهيك بما في مائها وأنهارها وجبالها ومعادنها من الآيات والعجائب.

قال سماحة الإمام المغفور له كاشف الغطاء:

(حقاً إن من أعظم تلك الآيات التي نمرّ عليها في كل وقت وعلى كل حال هذه الأرض التي نعيش عليها، ونعيش منها ونعيش بها، منها بدؤنا واليها معادنا قال تعالى: (..وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)190.

وقال رحمه الله: الأرض هي أم المواليد الثلاثة: الجماد، والنبات، والحيوان، وتحوطها العناية بالروافد الثلاثة: الماء والهواء والشمس، فهي الحياة وهي الممات، وفيها الداء، ومنها الدواء وقد تحصى نجوم السماء، أما نجوم الأرض فلا تحصى.

ولا تزال الشريعة الإسلامية قرآنها وحديثها يعظم شأن الأرض وينوه عنها صراحة وتلميحاً. قال تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً)191.

وقال عزّ وجلّ: (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)192.

وقال سبحانه وتعالى: (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ)193.

ومع تقدم الاكتشافات والاختراعات، واستخدام العقول الثاقبة وجميع وسائل العلم، لم تصل هذه العقول إلى تحليل جميع عناصر الأرض واستخراج جميع كنوزها، فسبحانه ما أجلّ قدرته، وأعظم صنعه.

3- واختلاف الليل والنهار

ومن آياته عزّ وجلّ اختلاف الليل والنهار؛ ذكر علماء التفسير للاختلاف وجهين: (أحدهما) مأخوذ من خلفه يخلفه وإذا ذهب الأول وجاء الثاني، فيكون المراد باختلاف الليل والنهار تعاقبهما في الذهاب والمجيء. (والثاني) الاختلاف في الطول والقصر، والنور والظلمة، والزيادة والنقيصة؛ وكما أنهما يختلفان في الزمان فكذلك يختلفان في المكان، فإذا افترضنا الصبح قد حلّ في موضع ما، فهي في موضع آخر ظهر، وفي مكان آخر عصر، وفي مكان آخر مغرب... وهلمّ جرا.

وذلك لكروية الأرض. وهذا الاختلاف من آثار النظام الشمسي الذي يدل على وحدة الله ووجوده. كما أن هناك مصالح لا تحصى ترتبت على هذا الاختلاف: وعلى سبيل المثال: أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة في النهار، وطلب الراحة في الليل. إلى غير ذلك من المصالح الحيوية التي ذكرها العلماء في سرّ هذا الاختلاف التي تكشف عن وجود الله سبحانه وتعالى، وعن جميل صنعه، وعظيم قدسه.

4- وجريان الفلك

ويرشح من هذه الآية الكريمة جريان الفلك في الماء، فلولا لطافة الماء وخفتها لما أمكن جريان البواخر والسفن فيه، كما أنه لولا الرياح المعينة على تحريكها إلى الجهات المختلفة التي يبغيها الناس لما أمكن النفع بها، وقد جعل الله تلك الرياح متوسطة الهدوء ولو كانت عاصفة لتحطمت البواخر، بالإضافة إلى أن مواد السفن من الخشب والحديد وغيرها هي من خلق الله تعالى ومن إبداعاته، وإن كانت الهيئة التركيبية من الناس.194

5- نزول الماء من السماء

ومن آياته تعالى إنزال الماء من السماء فإنه من عجائب صنعه جلّت قدرته، فقد خلقه مركباً من الأكسجين والهيدروجين بنسبة واحد (O) وإثنان (H). وكل عنصر من أجزائه يختلف عن العنصر الآخر ويخالفه وجعله تعالى سبباً لحياة الإنسان وسبباً لرزقه ومعيشته فقال سبحانه: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)195.

فنزول المطر حياة للأرض، لأن فيها قوة الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية، فيحصل بذلك النبات والأزهار والرياحين، وتلبس الأرض فستانها القشيب الجميل المضمخ بعطر الزهور، ولا ريب أن الجمال يبعث على البهجة والمسرّة لكل من نظر إليها، وهذا هو المراد من حياتها. وفي ذلك شواهد على قدرة الصانع الماهر وإبداعه. ولو أمعن الإنسان في النبات والزرع وما فيهما من العجائب لآمن بقدرة الله وجمال صنعه وحسن تدبيره. فالزرع بحكمة إلهية يخرج بالحد الذي يحتاج إليه الإنسان في أوقات معلومة، فما يخرج في موسم الربيع لا يخرج في الخريف وما يخرج في موسم الصيف لا يدرك في الشتاء زد على ذلك الأشجار المتنوعة الثمار، فإنها متغايرة بألوانها وطعمها ورائحتها وفائدتها الصحية مع أنها تسقى بماء واحد، وتخرج من أرض واحدة، فلو نظر الإنسان إلى كل ذلك بعين بصيرة لآمن بربّه وما زاغ قلبه وما خرج عن جادة الإيمان. المهم أن يعمل بعقله السليم ويفكر ملياً. قال الإمام الصادق (عليه السلام):

تفكير ساعة خير من عبادة سنة).

6- بثّ الدواب في الأرض

ومن آياته العظيمة سبحانه وتعالى بثّ الحيوانات في الأرض المختلفة، في أنواعها وأصنافها وأشكالها وطبايعها المختلفة، ومعيشتها المتباينة. ولا يخفى أن الإنسان كما عرّفوا عنه حيوان ناطق لكنه شرّفه الله بالعقل المستنير، واللسان الناطق الفصيح، فهو خليفة الله في أرضه، وهو النموذج المحتذى لجميع ما في العالمين: عالم الملك، وعالم الملكوت، وبصورة خاصة حسب وعيه وإدراكه وإحاطته بما يخزن في ذاكرته من الحقائق والمعلومات الكليّة والجزئية، بل هو اكبر ما في العالم؛ يقول الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام):

أتحسب أنك جرم صغير***وفيك انطوى العالم الأكبر

ولنتأمل في تكوين الإنسان فنرى فيه أعظم آيات الله، الأجهزة الدقيقة التي لا تعد ولا تحصى كتكوين العين التي تحتوي على 130 مليون من مستقبلات الضوء وهي أطراف أعصاب الأبصار، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذي يقيها ليلاً نهاراً، وتعتبر حركته حركة غير إرادية يمنع عنها الأتربة والذرّات، كما يكسر من حدة الشمس. ثم جعل لها سبحانه السائل المحيط بها المعروف بالدموع التي يقول عنها الأطباء: إنها من أقوى المطهّرات والمعقّمات، إلى غير ذلك ما هو أبلغ دليل على وجود الله مبدع الكون. قال تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)196 وفي الإنسان حاسة السمع وهي أعجب أجهزة الإنسان تحتوي على مجموعة أقنية بين

لولبية ونصف مستديرة، ففي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس. فما طول هذه الأقواس؟ وما حجمها؟ وكيف ركبت؟ إنها دقة تحيّر الألباب، فسبحان الله المبدع المصوّر!!

وفي الإنسان حاسة الشم: وهي من أعظم آيات الله فمركز هذه الحاسة منطقة محدودة من الغشاء المخاطي المبطن لتجويف الأنف، تسمى منطقة الشم، وهي خالية من الأهداب وبها عدة خلايا شمّية طويلة رقيقة تنقل الأثر إلى المخ، وذلك في جزء من الأنف، وهو المدخل الرئيسي للجهاز التنفسي الذي يتوقف عليه حياة الإنسان.

وفي جسم الإنسان الجهاز العظمي، وهو يتكوّن من 206 عظمة مختلفة الأشكال، يتصل بعضها ببعض المفاصل التي تحركها العضلات، وهذه العظام يقول عنها العلماء: إنها مصنع الحياة في الجسم إذ أنها تكوّن الكريات الدموية الحمراء والبيضاء.

ومن عجيب أمر هذه الكريات أنها في كل دقيقة من حياة الإنسان يموت منها ما لا يقل عن (180.000.000) مائة وثمانين مليون بسبب دفاعها عن الجسم ضد المكروبات الوافدة.

وبالإضافة إلى ما تصنعه العظام من كريات الدم فإنها مخزن تحفظ للجسم ما يزيد عن حاجته من الغذاء، سواء كان ذلك في داخل العظام نفسها كالمواد الدهنية والزلالية، أو على العظام نفسها كالمواد الجيرية.

أما عن أشكال العظام الملائمة لكل موضع خلقت له فهذا أمر عجيب، فعظام الجمجمة تحمي المخ لأنها أشد صلابة من غيرها...

إلى غير ذلك ممّا في الإنسان من الأجهزة الأخرى التي يطول الحديث عنها ولها علماؤها المختصون بها: كالجهاز العصبي، والجهاز اللمفاوي، والجهاز التناسلي، والجهاز العضلي. وهي تدل بوضوح على قدرة صانعها ودقة إبداعه.197

7- تسخير السحاب

كل ما في الكون سخّره سبحانه وتعالى لخدمة الإنسان، ومصالحه وسعادته، ومن آياته تسخير السحاب، فقد سخّره في أوقات مخصوصة لإحياء العباد والبلاد، واستمرار وجوده يؤدي إلى فساد جميع المركبات التي تتوقف على الجفاف، لأنه يستر أشعة الشمس؛ وانقطاعه يؤدي إلى القحط فيهلك الإنسان والحيوان فكان تقديره بالأوقات الخاصة، والفصول المعيّنة، بحكمة إلهية لأجل الصالح العام، لعامة المخلوقات. وهذه بلا ريب من رحمته الواسعة التي وسعت كل شيء.

والسحاب كما هو معلوم يتكوّن من تكاثف البخار في الهواء، ويختلف ارتفاعه على حسب نوع السحب، فمنها ما يكون على سطح الأرض كالضباب، ومنها ما يكون ارتفاعه بعيداً إلى أكثر من 12 كيلومتراً، وعندما تكون سرعة الرياح الصاعدة أكثر من ثلاثين كيلومتراً في الساعة لا يمكن نزول قطرات المطر المتكوّن. وذلك لمقاومة الرياح لها.

وكلما تناثرت النقط تشحن بالكهرباء الموجبة، وتنفصل عنها الكهرباء السالبة التي تحملها الرياح.. وبعد مدة تصير مشحونة شحناً وافراً بالكهرباء، وعندما تقترب الشحنتان بعضها من بعض بواسطة الرياح.. يتم التفريغ الكهربائي، وذلك بمرور شرارة بينهما، ويستغرق وميض البرق لحظة قصيرة ويكون شكله خطاً منكسراً، ويسمع بعده الرعد وهو عبارة عن الموجبات الصوتية التي يحدثها الهواء، وتخيّم السحابة، ويتنزل منها المطر الذي يغيث الأرض فتأخذ منها حاجته المطلوبة.

فتأمل كيف ولدت الرياح الكهرباء بنوعيه الموجب والسالب في السحب، وسببت نزول المطر منها. 198 كل ذلك بتقدير دقيق من الله العزيز العليم الرحيم...

هذا بعض ما ورد في الآية الكريمة من الشواهد والأدلة الواضحة على وجود الله تقدّس اسمه وتعالى ذكره. فهو المصدر الوحيد لوجود هذه العوالم. وقد استدل الإمام (عليه السلام) بهذه الآيات لدعم حقيقة الإيمان.

من وصية له (عليه السلام) لهشام بن الحكم في وصفه للعقل

إن الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه العزيز فقال سبحانه: (فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ)199.

استدل (عليه السلام) بهذه الآية لترغيب الناس على اتباع القول الحسن، وهذه الفئة من الناس يبشرهم الله انهم على هداية منه وهم أصحاب العقول الراجحة، يميزون بنور عقولهم بين الكلام الخبيث فيتجنبونه والكلام الحسن فيتبعونه.

ثم تابع (عليه السلام) القول لهشام (يا هشام، قد وعظ أهل العقل ورغبهم في الآخرة فقال عزّ وجلّ: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)200.

وهنا أيضاً يرغّب الله تعالى عباده العقلاء في دار الخلود والنعيم، ويذم دار الدنيا لأنّها محصورة على الأكثر في اللهو واللعب، فالعقلاء يزهدون فيها، ويجتنبون شرّها وحرامها، ويعملون للدار الباقية التي أعدت للمتقين، والعباد الصالحين.

يا هشام: ثم خوف الذين لا يعقلون عذابه فقال عزّ وجلّ:

(ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)201 استدل (عليه السلام) بهذه الآية وما شابهها على تدميره تعالى للذين لا يعقلون من الأمم السالفة التي كفرت بالله وقد نزلت في قوم لوط حينما جحدوا الله وكفروا بآياته، فأنزل تعالى بهم عقابه، وجعل موطنهم قبيح المنظر منتناً يمر بها المارون ليلاً نهاراً ساخرين من أهلها حيث جعلهم عبرة للذين يعقلون، وقد حذّرهم من مخالفة المرسلين،الصالحين، فإن عاقبة المخالفة والعصيان الدمار والهلاك.

ثم بين أن العقل مع العلم فقال سبحانه:

(وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَ الْعَالِمُونَ)202.

استدل (عليه السلام) بالآية الكريمة على ملازمة العقل للعلم فإن العقل بجميع مراتبه لا يفترق عن العلم فكلاهما صنوان متلازمان.

قال المفسرون عن سبب نزول هذه الآية: إن الكافرين انتقدوا ضرب الأمثال بالحشرات والهوام كالذباب والبعوض والعنكبوت...

وفي نظرهم أن الأمثال يجب أن تضرب بغير ذلك من الأمور الهامة وفي نظرنا أن منطقهم هذا هزيل للغاية لأن التشبيه إنما يكون بليغاً فيما إذا كان مؤثراً في النفس.

ثم ذم الذين لا يعقلون في فصل آخر لأن معرفة حقيقة الاشياء لا يميزها إلا العالمون الذين حصل لهم العلم والمعرفة (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَ الْعَالِمُونَ).

يا هشام: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ)203.

وقال سبحانه: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)204.

ثم تابع في سرد الآيات الشبيهة بهذه وكلها تذم الذين لا يعقلون 205 استدل الإمام (عليه السلام) بهذه الآيات الكريمة على ذم من لا يعقل، ففي الآية الأولى من هذا الفصل يقول الطبرسي:

لقد اتبع القوم أسلافهم ومشايخهم في الأمور الدينية من غير بصيرة ولا دليل، والذي حفزهم إلى اتباعهم الجهل والتعصب والغباوة وهذه الآية حسب رأي المفسرين نزلت في اليهود حينما دعاهم الرسول الأكرم إلى الإسلام فرفضوا ذلك، وقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا فانهم كانوا خيراً منا.206 ولو كانت لهم عقول سليمة، وأفكار ناضجة لفقهوا أن التقليد في العقائد لا يقرّه العقل السليم، لأن العقيدة لا تؤخذ إلا من الدليل العلمي الصحيح، وهي أساس ثابت لحياة الإنسان وسلوكه. إذ ما من عاقل إلا وهو عرضة للخطأ في فكره، ولا ثقة في الدين إلا بما أنزل الله، ولا معصوم إلا من عصم الله، فكيف يرغب العاقل عما أنزل الله في اتباع الآباء مع دعواه الإيمان بالتنزيل؟؟!

والآية الثانية متممة للآية الأولى:

فإنّه تعالى لما وصف حالة الكفّار في إصرارهم على التقليد الأعمى عند دعوتهم إلى الإسلام، ضرب لهم مثلاً للسامعين عن حالم بأنهم كالأنعام والبهائم التي لا تعي دعاء الداعي لها سوى سماع الصوت منه دون أن تفهم المعنى، فكذلك حال هؤلاء لا يتأملون دعة الحق ولا يعونها، فهم بمنزلة الجاهلين لا يعقلون، وهذا أعظم قدح وذم للذين لا يعقلون. لأن الإنسان إذا اتهم بعقله فقد دنياه وآخرته.

وفي الآية الثالثة: وصف سبحانه منتهى القسوة وجمود الطبع وخمول الذهن لبعض الكفار فهم يستمعون ما يتلى عليهم من الآيات والأدلة على صحة دعوة النبي (صلّى الله عليه وآله) ولكنهم صم بكم لا يسمعون ولا يفقهون، وبذلك لا جدوى ولا فائدة في دعوتهم إلى اعتناق هذا الدين؛ لقد بلغوا الحد الأقصى في أمراضهم العقلية والنفسية، ولا يجدي معهم أي نصح أو إرشاد أو علاج.

وسنكتفي بهذا القدر من الآيات التي استدل بها (عليه السلام) على ذم من لا يعقل من الناس. والآن إلى فصل آخر من كلامه، قال (عليه السلام): (يا هشام: لقد ذم الله الكثرة فقال: (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ)207. وقال سبحانه أيضاً:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)208.

استدل (عليه السلام) بهاتين الآيتين على ذم أكثر الناس لأنهم قد حجبوا عن نفوسهم الحق، وتوغلوا في الباطل، وغرقوا في الشهوات، إلا من رحمه الله منهم. ففي الآية الأولى:

خاطب تعالى نبيه (صلّى الله عليه وآله) وأراد به غيره، فإنه لو أطاع الجمهور من الناس وسار وفق أهواءهم وميولهم لأضلوه عن دين الله وصرفوه عن الحق. وفي الآية الثانية:

دلت على أن أكثر الناس يقولون ما لا يعلمون، وأنهم لا يؤمنون بالله في قلوبهم، بل إنما يجري على ألسنتهم دون أن ينفذ إلى أعماق قلوبهم.209

ثم مدح القلّة فقال:

(يا هشام: قال تعالى: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)210.

وقال: (وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ)211.

وقال: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)212.

وقال: (وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)213.

استدل (عليه السلام) من خلال هذه الآيات الكريمة على مدح قلة المؤمنين، وندرة وجودهم، كما صرحت الأحاديث النبوية والأخبار الواردة عن أهل البيت بذلك، فقد قال الإمام الصادق (عليه السلام):

(المؤمنة أعز من المؤمن، والمؤمن أعز من الكبريت الأحمر فمن رأى منكم الكبريت الأحمر؟)

والسبب في ندرة هذه الفئة من المؤمنين الصالحين يعود إلى أن الإيمان الحقيقي بالله يعد من أعظم مراتب الكمال التي يصل إليها الإنسان.

لكن الوصول إلى هذا الإيمان يصطدم بموانع كثيرة تحول دون الوصول إليه مثل: التربية البيتية السيئة حيث يعتاد الفرد على الغش والخداع والكذب منذ الطفولة الأولى.

إن التفاحة الفاسدة تفسد التفاح السليم، والرفيق المنحط أخلاقياً وسلوكياً يفسد غيره من الرفاق الصالحين، لأن الانزلاق نحو الرذائل أسهل من الصعود نحو الفضائل، والمثل العليا وهناك حواجز كثيرة تؤدّي إلى حجب الإنسان عن خالقه، وتماديه في الإثم والموبقات.

(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) تعني صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه فيما خلق لأجله. وهذه أعظم مرتبة لا تصدر إلا ممن عرف الله واعتقد بأن جميع الخيرات والنعم صادرة منه سبحانه وتعالى. فيعمل بكل طاقته على تحصيل الخير وردع نفسه عن الحرام وحينئذ يكون من الشاكرين، والشكر لله بهذا المعنى من المقامات العالية التي لا يتصف بها إلا القليل من عباد الله.

وننتقل إلى فصل آخر من كلامه (عليه السلام) مخاطباً هشام.

(يا هشام: ثم ذكر أولي الألباب بأحسن الذكر وأفضل الصفات فقال: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ)214.

وقال: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ)215.

وقال تعالى: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ)216.

ـ استدل (عليه السلام) بهذه الآيات الكريمة على مدح العقلاء المتفوّقين على غيرهم، فقد مدحهم تبارك وتعالى بأحسن الصفات، وأضفى عليهم النعوت السامية. ففي الآية الأولى: منح بعض عباده (الحكمة) وهي من أعظم المواهب، ومن أجل الصفات، فقد قيل في تعريفها، إنها العلم الذي تعظم منفعته وتجل فائدته. ثم وصف تعالى من مُنِحَ بها بأنه أوتي خيراً كثيراً ولا يعلم معنى الحكمة ولا يفهم القرآن الكريم إلا أولوا الألباب.

وفي الآية الثانية: وصف تعالى عباده الكاملين في عقولهم بثلاثة أوصاف: 1ـالرسوخ في العلم. 2ـ الإيمان بالله. 3ـ العرفان بأن الكل من عند الله.217

ثم بين سبحانه: إن المتصفين بهذه النعوت العظيمة هم العقلاء الكاملون الذين هم ذووا الألباب.

وفي الآية الثالثة دلالة على التفاوت بين من يسهر ليله في طاعة الله وبين غيره الذي يقضي أوقاته بالملاهي والملذّات، وهو معرض عن ذكر الله، فكيف يكونان متساويين. هذا غير معقول!

وقال (عليه السلام): (يا هشام، إن الله تعالى يقول في كتابه العزيز:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)218 يعني العقل.

وقال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)219 يعني الفهم والعقل، وضّح (عليه السلام) أن المراد بالقلب ليس العضو الخاص الموجود عند الإنسان وعند الحيوان، بل المراد منه هو العقل الذي يدرك المعاني الكلية والجزئية ليتوصل إلى معرفة حقائق الأشياء وهو بذلك يمثل الكيان المعنوي للإنسان.

وفي الآية الثانية يشير (عليه السلام) إلى نعمة الله تعالى على لقمان، فقد منّ عليه بالحكمة، وهي من أفضل النعم وأجلها. ثم أخذ (عليه السلام) يتلو على هشام بعض حكم لقمان ونصائحه لولده فقال:

(يا هشام: إن لقمان قال لابنه: تواضع للحق تكن أعقل الناس.

يا بني: إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكّل، وقيّمها العقل، ودليلها العِلم، وسكّانها الصبر).

لقد ركز لقمان الحكيم في وصيّته لولده بالتواضع للحق، فلا يرى الإنسان لنفسه وجوداً إلا بالحق ولا قوّة له ولا لغيره إلا بالله.

والتواضع من افضل الصفات. وقد ورد عن النبي (صلّى الله عليه وآله) أنه قال: (من تكبر وضعه الله، ومن تواضع لله رفعه الله).

وورد عنه (صلّى الله عليه وآله) في تعديد أقوام ذمهم: (ورجل ينازع الله رداءَه، فإن رداءه الكبرياء وإزاره العظمة)220.

فالمراد بذلك أن الكبرياء والعظمة من صفات الله جلّ جلاله، لا يجوز لأحد من عباده أن يتصف بهما.

فالإنسان كلما تواضع كلما تجرد عن الأنانية، ومحا عن نفسه التكبر، زاده الله شرفاً وفضلاً.

ثم شبه لقمان الحكيم الدنيا بالبحر ووجه الشبه في ذلك:

تغير الدنيا وتغير أشكالها وصورها في كل لحظة، فالكائنات التي فيها كالأمواج في البحر معرضة للزوال والفناء.

ويحتمل وجه آخر للشبه أن الدنيا كالبحر الذي يعبر عليه الناس، فالدنيا يعبر عليها الناس إلى دار الآخرة وتكون النفوس فيها كالمسافرين، والأبدان كالسفن والبواخر تنقلهم من دار الدنيا إلى دار الخلود. وقد غرق كثير من الناس في هذه الدنيا، وسبب غرقهم يعود لتهالكهم على الشهوات.

ولما كانت الدنيا بحراً توجب الغرق والهلاك، فلا نجاة منها إلا بسبيل واحد: ألا وهو الصلاح والتقوى؛ ويكون شراعها التوكل على الله والاعتماد عليه في جميع الأمور. كما أنه لابدّ من عقل يكون قيّماً لتلك السفينة ورباناً لها، والعقل نور دليله العلم والمعرفة فإن نسبته إليه كنسبة الرؤية من البصر؛ ومع هذه الخصال كلها لابدّ من الصبر فإن ارتقاء الإنسان وقربه من ربّه لا يحصل إلا بمجاهدات قويّة للنفس.

وللنتقل إلى مشهد آخر من كلامه (عليه السلام):

يا هشام: ما بعث الله أنبياءه رسوله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة).

ينظر من كلامه (عليه السلام) التأكيد على شرف الأنبياء العظيم وفضلهم الكبير بكمال عقولهم. ولا ريب أن وفور العقل من أفضل ما يمنح به الإنسان، إذ به يتوصّل إلى سعادة الدنيا، والفوز في دار الآخرة.

والعقل حسنة كبرى من حسنات الله تبارك وتعالى، ونعمة جُلّى لا تحصى فضائلها.

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في بعض حكمه: (أغنى الغنى العقل).

ثم تابع (عليه السلام) قائلاً لهشام:

(يا هشام: لو كان في يدك جوزة وقال الناس في يدك لؤلؤة ما كان ينفعك وأنت تعلم أنها جوزة، ولو كان في يدك لؤلؤة، وقال الناس إنها جوزة ما ضرّك وأن تعلم أنها لؤلؤة).

كل ذلك يعود إلى قوة العقل وحسن التمييز، فالعاقل هو الذي يعتمد على نفسه ما دام متأكّداً ممّا هو عليه، ولا يعير بالاً للآخرين من الناس الجاهلين الذين يقولون ما يحلو لهم دون رويّة أو تعقّل ما ينفع العقل إذا خدع الإنسان نفسه؟!

وقال (عليه السلام) (يا هشام: إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة فاطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة (عليه السلام). وأما الباطنة فالعقول) ثم تابع (عليه السلام):

(يا هشام: إن العاقل الذي لا يشغل الحلال شكره، ولا يغلب الحرام صبره).

ذكر (عليه السلام) في الفقرات الأخيرة من كلامه إلى بعض أحوال العقلاء من أنهم لا تمنعهم كثرة نعم الله عليهم من شكره تعالى، كما لا تزيل صبرهم النوائب والكوارث. ثم قال (عليه السلام):

(يا هشام من سلط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعلن هواه على هدم عقله: من أظلم نور فكره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه.

ذكر (عليه السلام) في كلامه هذا أن في الإنسان قوتين متباينتين، وهما:

العقل والهوى، ولكل واحدة منهما صفات ثلاث تضاد الصفات الأخرى فصفات العقل: التفكر، والحكمة، والاعتبار.

وصفات الهوى: طول الأمل، وفضول الكلام، والإنغماس في الشهوات. فطول الأمل في الدنيا يمنع من التفكر في أمور الآخرة، ويبدد نور الفكر بالظلمة، ويحجبه عن الانطلاق في ميادين الخير.

وفضول الكلام يمحي طرائف الحكمة من النفس.

أمّا الانغماس في الشهوات فإنّه يعمي القلب، ويذهب بنور الإيمان، ويطفئ نور الاستبصار والاعتبار من النفس، فمن سلّط هذه الخصال العاطلة على نفسه، فقد أعان على هدم عقله، ومن هدم عقله فقد أفسد دينه ودنياه.

وقال (عليه السلام): (نُسِبَ الحق لطاعة الله، ولا نجاة إلا بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلم، والتعلم بالعقل يعتقد221، ولا علم إلا من عالم رباني، ومعرفة العلم بالعقل).

وهو يعني (عليه السلام) أن المعارف جميعها لا تحصل إلا بالعلم، والعلم لا يحصل إلا بالتعلم، والتعلّم لا يحصل إلا بالعقل. فمن عقل علم، ومن علم عاش سعيداً مأنوساً في الدنيا، وغانماً كريماً في الآخرة.

وقال (عليه السلام): (يا هشام قليل العمل من العالم مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود).

فهو يعني (عليه السلام) أن قليل العمل من العالم مقبول والسبب في ذلك يعود: بأن العلم يطهّر النفوس، ويصفّي القلوب، ويوصل إلى معرفة الله عزّ وجلّ وفضيلة كل عمل إنما هي بقدر تأثيرها في صفاء القلب، وإزالة الحجب عن النفس، والظلمة عن الروح. وهي تختلف بحسب الأفراد، فربّ إنسان يكفيه قليل العمل في صفاء نفسه نظراً لِلَطَافَة طبعه، ورقة حجابه، ورب إنسان لا يؤثر العمل الطيّب الذي يصدر منه في صفاء ذاته، نظراً لكثافة طبعه، وكثرة الحجب على نفسه.

وقال (عليه السلام): (يا هشام: إن العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة، أنّهم علموا أن الدنيا طالبة مطلوبة، والآخرة طالبة ومطلوبة.

فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته).

ذلك أن الأعمار بيد الله سبحانه، وساعة كل إنسان مجهولة، وقد تكون قريبة، فمن لم يحضر نفسه لها فقد يخسر ولا مجال عنده للتعويض. وقال (عليه السلام) (يا هشام: إن الله حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا: (رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)222.

لقد قالوا هذا القول حين علموا أن القلوب تزيغ وتعود إلى عماها، وإنه لم يخف الله من لم يعقل عن الله، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه، ولا يكون أحد كذلك إلا من كان قوله لفعله مصدّقاً، وسرّه لعلانيته موافقاً، لأن الله تبارك اسمه لم يدل على الباطن الخفي من العقل إلا بظاهر منه، وناطق عليه.

لقد أشار الإمام (عليه السلام) بكلامه هذا إلى أن المؤمن إذا لم يكن قلبه مستضيئاً بهدى الله، فإنّه لا يكون آمناً من الزيغ، كما لا يكون آمناً من الارتداد بعد الدخول في حظيرة الإسلام، والقرآن الكريم أشار إلى هذه الظاهرة. قال تعالى: (...رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)223.

ولذلك يدأب الصالحون بالسؤال من الله في أن لا يزيغ قلوبهم حتى لا يضلوا عن دينه، لأنّ النفوس البشرية بحسب طبيعتها ونشأتها إذا لم يساعدها التوفيق لا تنجو من وساوس الشيطان وغوايته، وهنا يذكر (عليه السلام) هشاماً بقول لأمير المؤمنين (عليه السلام):

(يا هشام كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: ما عُبد الله بشيء افضل من العقل، وما تم عقل امرئ حتى يكون فيه خصال شتى:

الكفر والشر منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، وفضل ماله مبذول، وفضل قوله مكفوف، ونصيبه من الدنيا القوت، لا يشبع من العلم دهره، الذل أحب إليه مع الله من العز مع غيره، والتواضع أحب إليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقل كثير المعروف من نفسه، ويرى الناس كلهم خيراً منه، وإنه شرهم في نفسه، وهو تمام الأمر).

وهنا نراه يستدل بكلام جده (عليه السلام) الذي تعرض فيه لصفات العقلاء ثم تابع قائلاً (عليه السلام):

(يا هشام: من صدق لسانه زكى عمله، ومن حسنت نيّته زيد في رزقه ومن حسن برّه بإخوانه وأهله مدّ في عمره).

(يا هشام: لا تمنحوا الجهال الحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها لتظلموهم).

فما أحرانا نحن اليوم لنأخذ بكل أقواله (عليه السلام) وبخاصة بهذه الحكمة بالذات حيث نرى الحكمة مظلومة وأهلها مظلومين؟!

(يا هشام: لا دين لمن لا مروءة224 له، ولا مروءة لمن لا عقل له، وإن أعظم الناس قدراً الذين لا يرى الدنيا لنفسه خطراً، أما أن أبدانكم ليس لها ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها بغيرها).

والمعنى: يجب أن تصرف الطاقات البشرية في طاعة الله تعالى ليحصل الإنسان على الثمن هو الجنّة.

وقال (عليه السلام): (أما إن أبدانكم ليس لها ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها) ونقل صاحب الوافي عن أستاذه إيضاحاً لمقالة الإمام ما نصه:

(إن الأبدان في التناقص يوماً فيوماً وذلك لتوجه النفس منها إلى عالم آخر فإن كانت النفس سعيدة كانت غاية سعيه في هذه الدنيا وانقطاع حياته البدنية إلى الله سبحانه وإلى نعيم الجنان، لكونه على منهج الهداية والاستقامة، فكأنه باع بدنه بثمن الجنة معاملة مع الله تعالى، ولهذا خلقه الله عزّ وجلّ.

وإن كانت شقيّة كانت غاية سعيه وانقطاع أجله وعمره إلى مقارنة الشيطان وعذاب النيران، لكونه على طريق الضلالة، فكأنّه باع بدنه بثمن الشهوات الفانية، واللذات الحيوانية التي ستصير نيراناً محرقة، وهي اليوم كامنة مستورة عن حواس أهل الدنيا، وستبرز يوم القيامة (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى) معاملة مع الشيطان (وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ).

وننتقل الآن إلى فصل آخر يتحدث فيه عن حزم العاقل واحتياطه في أقواله. قال (عليه السلام): (يا هشام إن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان يقول: إن من علامة العاقل أن يكون فيه ثلاثة خصال: يجيب إذا سئل، وينطق إذا عجز القوم عن الكلام، ويشير بالرأي الذي يكون فيه صلاح أهله، فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيءٌ فهو أحمق).

وقال الحسن بن علي (عليهما السلام): (إذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها، فقيل له: يابن رسول الله ومن أهلها؟ ـ الذين خصهم الله في كتابه وذكرهم، فقال: (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ)225 قال: أولوا العقول.

وقال علي زين العابدين (عليه السلام): مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح، وآداب العلماء زيادة في العقل، وطاعة ولاة العدل تمام العز، واستثمار المال تمام المروءة، وإرشاد المستشير قضاء النعمة، وكف الأذى من كمال العقل، وفيه راحة البدن عاجلاً وآجلاً. ثم زاد (عليه السلام): (يا هشام، إن العاقل لا يحدّث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يَعِدُ ما لا يقدر عليه، ولا يرجو ما يعنف برجائه، ولا يقدم على ما يخاف فوته بالعجز عنه).

أراد بهذه الفقرات إلى حزم العاقل في تحفظه على أقواله وشرفه ومنزلته وتوقفه من الإقدام على ما لا يثق بحصوله.

وقال (عليه السلام): (يا هشام الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار).

ثم انتقل (عليه السلام) إلى فصل آخر يركز فيه على اقتران القول بالعمل.

قال (عليه السلام): (طوبى للعلماء بالفعل، وويل للعلماء بالقول. يا عبيد السوء اتخذوا مساجد ربكم سجوناً لأجسادكم وجباهكم. واجعلوا قلوبكم بيوتاً للتقوى. ولا تجعلوا قلوبكم مأوى للشهوات، وإن أجزعكم عند البلاء لأشدكم حباً للدنيا، وإن أصبركم على البلاء لأزهدكم في الدنيا.

يا عبيد السوء لا تكونوا شبيهاً بالحداء الخاطفة، ولا بالثعالب الخادعة ولا الذئاب الغادرة ولا بالأسد العاتية كما تفعل بالفراس. كذلك تفعلون بالناس، فريقاً تخطفون، وفريقاً تغدرون بهم.

وبحق أقول لكم: لا يغني عن الجسد أن يكون ظاهره صحيحاً وباطنه فاسداً كذلك لا تغني أجسادكم التي قد أعجبتكم وقد فسدت قلوبكم وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة.

لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة. كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم.

يا عبيد الدنيا إنما مثلكم مثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه.

يا بني إسرائيل زاحموا العلماء في مجالسهم ولو جُثواً على الركب، فإن الله يحي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحي الأرض الميتة بوابل المطر)226.

وهذه بعض الوصايا التي زادها الحسن بن علي الحراني فقال:

(يا هشام أصلح يومك الذي هو أمامك، فانظر أي يوم هو، وأعد له الجواب، فإنك موقوف ومسؤول. وخذ موعظتك من الدهر وأهله، وانظر في تصرف الدهر وأحواله، فإن ما هو آتٍ من الدنيا كما ولّى منها، فاعتبر بها، وقال علي بن الحسين (عليه السلام):

(إن جميع ما طلعت عليه الشمس في مشارق الأرض ومغاربها بحرها وبرها، وسهلها وجبلها عند ولي من أولياء الله وأهل المعرفة بحق الله كفئ الظلال، ثم قال (عليه السلام):

(حر يدع هذه اللماظة (الدنيا) لأهلها فليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها، فإنه من رضي من الله بالدنيا فقد رضي بالخسيس).

(يا هشام: إن كل الناس يبصرون النجوم ولكن لا يهتدي بها إلا من يعرف مجاريها ومنازلها، وكذلك (انتم تدرسون) الحكمة، لا يهتدي بها منكم إلا من عمل بها).

وهنا كأنه (عليه السلام) يذكّر أهل العقول النيّرة أن يقولوا ويدرسوا ويفهموا ثم عليهم أن يقرنوا العلم بالعمل.

أما الذين يرون ببصرهم ويقفلون بصيرتهم فهم ضالون في حياتهم وضالون في آخرتهم، يخرصون ولا يعرفون، ويغدرون ولا يعرفون...

قال أحد الحكماء مركزاً على المعرفة المقرونة بالعمل:

عندما تقترن المعرفة بالعمل يرزقان صبياً يسميانه الصدق.

وعندما تقترن المعرفة بالعمل ينجبان بنتاً يسميانها الوفاء.

ويلعب الجميع لعبة أظنها الحرية.

وقال (عليه السلام): (يا هشام: مكتوب في الإنجيل: (طوبى للمتراحمين، أولئك هم المرحومون يوم القيامة. طوبى للمطهّرة قلوبهم، أولئك هم المتقون يوم القيامة. طوبى للمتواضعين في الدنيا، أولئك يرتقون منابر الملك يوم القيامة).

السلام عليك يا سيدي عيسى، السلام عليك يا رسول الله لو جئت في هذه الأيام لرأيت العجب العجابا!! فالكثير الكثير من أمتك قد نسوا أو تناسوا هذه التعاليم العظيمة التي تبنى عليها المجتمعات العظيمة،والقليل القليل من أمتك من تمسكوا برسالتك واهتدوا بهديك وساهموا في بناء مجتمع سليم، لكنهم كمن ينفخ في رماد!!

ثم قال (عليه السلام) منوهاً بقيمة الكلام وأنواع المتكلمين.

(يا هشام: المتكمون ثلاثة: فرابح، وسالم، وشاجب.227

فأما الرابح فالذاكر لله، وأما السالم فالساكت، وأما الشاجب فالذي يخوض في الباطل، إن الله حرم الجنة على كل فاحش بذئ الكلام قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه، وكان أبو ذر رضوان الله عليه يقول: (يا مبتغي العلم إن هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر، فاختم على فيك كما تختم على ذهبك وورقك).

وكما حرمت الجنة على الشاجب وفتحت أبوابها للرابح الكثير الحياء لذلك قال (عليه السلام): (الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار).

ثم قال (عليه السلام) واصفاً الدنيا على لسان السيد المسيح:

(يا هشام: تمثّلت الدنيا للمسيح (عليه السلام) في صورة امرأة زرقاء فقال لها: كم تزوّجت؟ فقالت: كثيراً، قال: فكلاًّ طلقك؟ فقالت: بل كلاّ قتلت.

قال المسيح فويح لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بالماضين!!

لا ريب إن أصحاب البصائر والعقول النيّرة يدرسون الماضي ويتأملون في مجرى أحداثه، ويقدرون نتائجه فيقيسون الحاضر على ضوء الماضي فيتعظون ويعتبرون.

ثم أردف في نصائحه لهشام في أنواع البشر، وأيّهم أنفع وأصلح.

قال (عليه السلام): (يا هشام: لا خير في العيش إلا لرجلين: لمستمع واع، وعالم ناطق).

العالم عليه أن يبوح بما يختزن في صدره من علوم ومعارف ليفيد به سائر الناس، فيكون بذلك كالنهر المتدفق يسقي عن جانبيه الحقولا.

والمستمع عليه أن يعقل ما يلقى إليه، فيخزن في ذاكرته كل ما سمعه من العالم، ليكون له زاد خير يفيده عند الحاجة، لأن غذاء العقل أهم بكثير من غذاء الجسد. وفن الاستماع لا يقلّ أهمية عن فنّ القول.

ثم وصف (عليه السلام) نوع العلماء الذين يؤخذ منهم ويستمع إليهم.

فقال (عليه السلام): (يا هشام: أوحى الله تعالى إلى داود (عليه السلام) قل لعبادي: لا يجعلوا بيني وبينهم عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدّهم عن ذكري، وعن طريق محبّتي ومناجاتي. أولئك قطّاع الطريق من عبادي، إن أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة محبّتي ومناجاتي من قلوبهم).

ثم حذّر (عليه السلام) من التكبّر فقال:

(يا هشام: إيّاك والكبر على أوليائي، والاستطالة بعلمك فيمقتك الله فلا تنفعك بعد مقته دنياك ولا آخرتك، وكن في الدنيا كساكن دار ليست له إنما ينتظر الرحيل).

ثم مدح (عليه السلام) المتواضع وذمّ المتكبّر فقال:

(يا هشام: إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا228 فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبّر الجبّار، لأنّ الله تعالى جعل التواضع آلة العقل، وجعل التكبّر آلة الجهل، ألم تعلم أن من شمخ إلى السقف برأسه شجبه، ومن خفض رأسه استظل تحته وأكنّه، وكذلك من لم يتواضع لله خفضه الله، ومن تواضع لله رفعه).

ثم استرسل (عليه السلام) في حديثه فقال: (وأحذر ردّ المتكبرين، فإن العلم يُذل على أن يملي على من لا يفيق)، فقال هشام:

فإن لم أجد من يعقل السؤال عنها؟ فقال (عليه السلام): فاغتنم جهله عن السؤال حتى تسلم من فتنة القول وعظيم فتنة الرد، واعلم أن الله لم يرفع المتواضعين بقدر تواضعهم ولكن رفعهم بقدر عظمته ومجده. ولم يؤمن الخائفين بقدر خوفهم ولكن آمنهم بقدر كرمه وجوده؛ ولم يفرح المحزونين بقدر حزنهم ولكن بقدر رأفته ورحمته، فما ظنّك بالرؤوف الرحيم الذي يتودد إلى من يؤذيه بأوليائه، فكيف بمن يؤذي فيه؟ وما ظنّك بالتوّاب الرحيم الذي يتوب على من يعاديه، فكيف بمن يترضّاه، ويختار عداوة الخلق فيه.

(يا هشام: من أكرمه الله بثلاث فقد لطف له؛ عقل يكفيه مؤونة هواه، وعلم يكفيه مؤونة جهله، وغنى يكفيه مخافة الفقر.

ثم زاد تحذيراً جديداً عاماً للدنيا وأهلها.

فقال (عليه السلام): (يا هشام أحذر هذه الدنيا وأحذر أهلها، فإن الناس فيها على أربعة اصناف:

ـ رجل متردي معانق هواه، ومتعلم مقري كلما ازداد علماً ازداد كبراً، يستعلي بقراءته وعلمه على من هو دونه.
ـ وعابد جاهل يستصغر من هو دونه في عبادته، يحب أن يعظَّم ويوقَّر.
ـ وذي بصيرة عالم عارف بطريق الحق، يحب القيام به ولكنه عاجز أو مغلوب فلا يقدر على القيام بما يعرفه، فهو محزون مغموم بذلك وهو أمثل أهل زمانه وأوجههم عقلاً)229.
الحقيقة إننا استرسلنا في هذه الوصية القيمة والخالدة لأنها بحر زاخر، كلّما غصنا فيه كلما ازددنا متعة وفائدة. فهي من إمام معصوم ورث علم الأوصياء عن الأنبياء، علماً شاملاً كاملاً للدين والدنيا وللناس كافة. لقد حوت هذه الوصية الذهبية جميع أصول الفضائل: في الآداب والأخلاق وقواعد السلوك والمناهج العامة لما يصلح للحياة الفردية والاجتماعية السليمة من كل غرض أو هوى، ذلك أن الشريعة الإسلامية هي أحكام إلهية وما على الحاكم إلا تطبيق هذه الأحكام معتمداً على عقله المستنير وضميره الحيّ المستقيم.

الإمام الكاظم (عليه السلام) علاّمة عصره وعلاّمة كل عصر

فضل العلم والعلماء

1ـ روي عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن أبي الحسن موسى الكاظم (عليه السلام) قال: (دخل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل فقال: (ما هذا؟ فقيل: علامة. فقال: وما العلامة في رأيكم؟ قالوا له: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها، وأيام الجاهلية، والأشعار العربية.
فقال (صلّى الله عليه وآله): ذاك علم لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه؛ ثم قال النبي (صلّى الله عليه وآله): إنما العلم ثلاثة:
2ـ آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة، وما خلاهنّ فهو فضل)230.
ـ روى المجلسي عن الراوندي بإسناده عن موسى بن جعفر عن آبائه (عليهم السلام) عن النبي (صلّى الله عليه وآله) قال: لا خير في العيش إلا لمستمع واع، أو عالم ناطق)231.
ـ وبهذا الإسناد قال:
3ـ (قال رسول اله (صلّى الله عليه وآله): أربع يلزم من كل ذي حجى وعقل من أمتي، قيل: يا رسول الله ما هي؟ قال:
1ـ استماع العلم. 2ـ وحفظه. 3ـ ونشره عنده أهله. 4ـ والعمل به.
ـ والآن ماذا عن أنواع العلم عند الناس.
قال الأربلي: قال ابن حمدون في تذكرته: قال موسى بن جعفر (عليه السلام): (وجدت علم الناس في أربع:
أولها: أن تعرف ربك ومفادها وجوب معرفة الله تعالى التي هي اللطف.
وثانيها: أن تعرف ما صنع بك من النعم التي يتعيّن عليك لأجلها الشكر والعبادة.
وثالثها: أن تعرف ما أراد منك: فيما أوجبه عليك وندبك إلى فعله لتفعله على الحد الذي أراده منك فتستحق بذلك الثواب.
ورابعها: أن تعرف ما يخرجك من دينك، وهي أن تعرف الشيء الذي يخرجك عن طاعة الله فتتجنّبه)232.
ـ وعن موسى بن جعفر عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): سائلوا العلماء، وخالطوا الحكماء، وجالسوا الفقراء).

فسؤال العلماء توضيح وتصحيح، ومخالطة الحكماء غذاء للعقل وتوسع في المعرفة، ومجالسة الفقراء مؤانسة لهم ومشاركة في الإنسانية.

1- ففي الحديث الأول يوضح (عليه السلام) العلم الذي لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه: فعلم الأنساب، وعلم وقائع العرب، والأشعار العربية، كل هذه ليس فيها ما يبعث على غذاء الفكر، أو يزيد في حياة المسلمين الحضارية، أو يخلق تقدّماً وتطوّراً يساعدهم على النهوض في ركاب الحضارة الإنسانية. فهذه المعارف قلّل النبي (صلّى الله عليه وآله) من أهميتها ودعا إلى الاهتمام بسائر العلوم الأخرى لأنها لا تضر من جهلها ولا تنفع من علمها.

2- ثم بيّن (عليه السلام) العلم الأصيل الذي عليهم تعلمه فإنهم يجدونه في:

آية حكمة، أو فريضة عادلة أو سنّة قائمة. وهذا يعني التفقه في الدين ومعرفة الأحكام الشرعية، فقال لهم: (تفقّهوا في دين الله، فإن الفقه مفتاح البصيرة، وتمام العبادة، والسبب إلى المنازل الرفيعة، والرتب الجليلة، في الدين والدنيا. وفضل الفقيه على العابد كفضل الشمس على الكواكب، ومن لم يتفقه في دينه لم يرض الله له عملاً..).

3- ثم وضّح (عليه السلام) طرق التعلم وكيفية الإفادة منه فحصرها في أربع:

أولاً: استماع العلم: فعلى المتعلم أن يصغي جيداً لما يسمعه من العالم لأن فنّ الاستماع هام كفنّ التعليم، ومن لم يسمع جيداً لا يستوعب جيداً.

ثانياً: الحفظ: وهو أمر ضروري لأن الذاكرة خزانة المعارف والعلوم فمن لا يحفظ لا يستطيع الإفادة ممّا تعلّمه.

ثالثاً: نشر العلم. ومن واجب العالم أن ينشر علمه ولا يبقيه محصوراً في صدره ذلك حتى يفيد به الآخرين. لأنّ العالم الذي يخزن علمه ويبخل به على سواه كالغني البخيل يخزن ماله فلا يفيد نفسه ولا يفيد غيره. لكن على العالم أيضاً أن يعرف أين ينشر علومه. عليه أن يضع الشيء في مواضعه، فلا ينشره إلا عند أهله. ذلك أن الماء يسقي به الزارع الأرض الخصبة وليس الأرض الرملية.

رابعاً: اقتران العلم بالعمل.

اقتران العلم بالعمل هو الغاية المرجوة. قال الدكتور زكي نجيب محمود في كتاب تجديد الفكر العربي: (من علامات هذا العصر المميزة أنه عصر العلم المقترن بالعمل والموصول أحدهما بالآخر. فإذا وجدت علماً مزعوماً لا يجيء بمثابة الخطة الدقيقة لعمل يؤدي فقل أنه ليس من العلم في شيء إلا باسم زائف).

لكن هذا الجديد المزعوم أعلنه أهل البيت (عليهم السلام) منذ أكثر من 1300 سنة.

العلم عند أهل البيت (عليهم السلام)

العلم بمعناه الشامل هو أن نعرف الشيء كما هو في حقيقته وواقعه ولا وزن لأي علم عند أهل البيت (عليهم السلام) إلا أن يجلب نفعاً، أو يدفع شرّاً تماماً كما قالوا عن العقل. لأن العلم عقل، والعالم هو العاقل. قال العالم والفيلسوف جابر بن حيّان تلميذ الإمام الصادق (عليه السلام): العقل والعلم والنور كلمات مترادفة.

فالعالم يعقل الأمور ويميز بين صحيحها وسقيمها ولا يستطيع أن يسكب علوماً بدون العقل، وبالعقل يتمكن العالم من كشف الأمور الغامضة وإخراجها من الظلام فيوضحها بنور عقله.

أما الجهل بالشيء مع العلم به هو أننا لا نتصوره إطلاقاً.

والجهل بالعلم هو تصور الشيء على غير ما هو عليه من حيث لا نحس ونشعر بالخطأ فنكون عندها بعيدين عن الواقع.

جاء في نهج البلاغة: (لا خير في علم لا ينفع) وجاء في سفينة البحار: عن الإمام الكاظم (عليه السلام): (أولى العلم بك ما لا يصلح لك العمل إلا به) والغاية من هذا أن الهدف من العلم إتقان العمل النافع.

قال الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله): (من أراد العمل منكم فليعلمه وليتقنه).

العلم أولاً والإتقان ثانياً؛ وهنا يكمن سر الفنون والفوارق بين المتعلمين. وإننا نجد الكثير من الناس من حصّلوا العلم ونالوا شهادات، لكن لم ينجحوا في حياتهم العملية. وهذا يعود إلى عدم إتقانهم العلوم التي حصّلوها. مثل الأطباء والمحامين والقضاة والأساتذة والمعلمين في المدارس والجامعات. فتحصل العلم شيء والفن في التعليم هو شيء آخر، المهم طريقة العطاء والأسلوب والعمل بلا علم ضرره أكثر من نفعه. قال بعض الحكماء: العمل بلا علم كشجرة بلا ثمر. وقال الإمام الصادق (عليه السلام):

(العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق، لا تزيده سرعة السير إلا بعداً) فإذا كان العلم مرادفاً للنور فكيف لهذا الجاهل أن يستدل على طريقه وهو فاقد النور؟

وهنا نتذكر وصية الإمام الكاظم (عليه السلام) لهشام عندما قال له:

يا هشام: (إن ضوء الجسد في عينه، فإن كان البصرمضيئاً استضاء الجسد كله، وإن ضوء الروح العقل، فإن كان العبد عاقلاً كان عالماً بربّه، وإن كان عالماً بربّه أبصر دينه، وإن كان جاهلاً بربّه لم يقم له دين، وكما لا يقوم الجسد إلا بالنفس الحيّة فكذلك لا يقوم الدين إلا بالنية الصادقة، ولا تثبت النية الصادقة إلا بالعقل.

صفات العالم الصحيح:

جاء في أصول الكافي للشيخ العلامة الكليني تحت عنوان:

المستأكل بعلمه: قال الإمام الصادق (عليه السلام): (أوحى الله إلى داود لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا، فيصدّك عن طريق محبتي، فإنّ أولئك قطاع طريق عبادي المريدين).

ومعنى ذلك إيّاك أن تركن إلى من يتخذ من عقله وعلمه خادماً مطيعاً لبلوغ أهوائه الشخصية ومطامعه الخاصة؛ لأنّه يقطع عليك الطريق إلى رحمتي ومرضاتي، وعلى كل من أراد الحق والعدل من عبادي.. ولا جزاء عند أهل البيت (عليهم السلام) لقاطع الطريق إلا القتل أو الصلب أو قطع اليد أو الرجل أو النفي، كما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى وفي كتاب وسائل الشيعة وغيره من المراجع الموثوقة من كتب الحديث والفقه لشيعة أهل البيت (عليهم السلام).

وقال أحد الحكماء: أسوأ الأزمان زمن نجد فيه العلماء على أبواب الحكام.

وفي كتاب أشعة من بلاغة الإمام الصادق (عليه السلام): (إن في جهنم رحى تطحن العلماء الفجرة). يعلق على هذا المقال الشيخ العلامة محمد جواد مغنية فيقول: (قال هذا قبل ظهور الآلة التي جعلت قوى الشر أعظم فتكاً وافتراساً لأرواح الأبرياء وأجسادهم، وأكثر نهباً واغتصاباً لحقوق الناس وارزاقهم! ثم يتابع رحمه الله:

ولا أدري أي شيء كان يقول الإمام الصادق (عليه السلام) لو وجد في هذا العصر؟! وقد قرأ مقالاً في مجلة الهلال المصرية عدد تشرين الأول سنة 1972م بعنوان النبي والعلم جاء فيه:

(إن أعظم تكريم للعلم أن يكون أول أمر أنزله الله سبحانه على نبيه (صلّى الله عليه وآله) (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ)233.

ونحن في حياتنا نرى كثيراً من القراءة، منها ما تكون باسم الله، وتكون في خدمة الإنسان.
ومنها ما تكون باسم التسلّط والهوى والاستعلاء الكاذب، والاستكبار. مثل قراءة إسرائيل في فلسطين ولبنان وسوريا والأرض العربية السليبة، وكقراءة أمريكا في أرض فيتنام.
كل ذلك علم وقراءة، ولكنها ليست باسم الله العلي العظيم بل باسم الشيطان الرجيم!!).

حدود العلم

العلم بحر واسع لا حدود له، يتجدد ويتطور يوماً بعد يوم. جاء في أصول الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام): (العلم يحدث يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة). ومعنى هذا أن لا حد له، وبذلك نطق العلم الحديث.
نشرت مجلة المعرفة السورية في العدد الثلاثين جاء فيه:
(إن التقدم العظيم الذي أحرزه علماء الطبيعة في أوائل القرن التاسع عشر ملأهم غروراً وخيلاء، وظنوا أنهم قد فرغوا من بناء صرح العلم.. حتى جاء القرن العشرين، فتبين أنهم كانوا في أول الطريق، وأن المسير بعيد وبلا نهاية).
وذلك ما من شيء إلا ويمكن أن يكون محلاً للبحث ظاهراً كان أم باطناً، ماضياً أم حاضراً، حتى الشيء الواحد يكون كل آن في شأن.
وقال سبحانه: (... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)234.
وقال عزّ وجلّ: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَ قَلِيلاً)235.
وقال تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)236.
وجاء في مستدرك نهج البلاغة أن الإمام علي أمير المؤمنين قال: (العلم أكثر من أن يحصى، فخذوا من كل شيء أحسنه).
والحقيقة أننا إذا أردنا إحصاء العلوم والمعارف التي عرفها الإنسان لا يمكننا حصرها تماماً فهي عديدة ومتنوعة في شتى الحياة الإنسانية. لكننا نستطيع أن نأخذ من كل علم أحسنه وافضله، وهذا يعود إلى ثقافة الإنسان وتعمقه في معارفه وحسن تحصيلها.

العلم والعمل

قيمة كل علم من العلوم تظهر نتائجها بالعمل، فالعلم ضروري وهام لكن الأهم التطبيق العملي ففيه تتبلور مهارة كل فرد من الافراد المتعلمين. وهذا يعود بلا ريب إلى المواهب الذاتية المخبؤة في الداخل فكم نجد من الأشخاص الموهوبين لكن الظروف لم تساعدهم على اظهار مواهبهم عملياً. وما نبغي إليه هو أن فائدة العلم مقرونة بالعمل.
قال الدكتور زكي نجيب محمود في كتاب تجديد الفكر العربي:
(من علامات هذا العصر المميزة أنه عصر العلم المقترن بالعمل والموصول أحدهما بالآخر. فإذا وجد علماً مزعوماً لا يجيء بمثابة الخطة الدقيقة لعمل يؤدي فقل إنه ليس من العلم في شيء إلا باسم زائف).
وهذا الجديد المزعوم جاء عند أئمة أهل البيت (عليهم السلام).
قال الإمام علي (عليه السلام): (من علم عمل). وهو يشير إلى أن العمل يفتح آفاقاً جديدة لمعارف جديدة، وهذه المعارف الكريمة تخدم بدورها النشاط العملي. وهكذا تتم الدورة الحياتية. ومعنى هذا أن العلم لا حد له كما سلف القول.

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (من لم يصدق قوله عمله فليس بعالم...
العلم مقرون بالعمل فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل).
وقال الفيلسوف الملا صدرا237 في شرح أصول الكافي: (العلم والعمل كالروح والجسد يتصاحبان ويتكاملان معاً، وإن كان مرتبة من العلم تستدعي عملاً بحسبه، وكل عمل يهيئ لنوع آخر من العلم).
وكما ترى هكذا جمع أهل البيت (عليهم السلام) بين العلم النظري، والعلم العملي. بين الفكر واليد، في مركب واحد. وهل أفضل من إطاعة اليد للفكر؟ فكلما ازدادت الإطاعة بينهما كلما كان الإتقان والإبداع في الأعمال فالتوافق بين الفكر واليد يعني تقدماً حضارياً راقياً في جميع أنواع الفنون: العلمية والأدبية والفنية والاجتماعية.. كالطب والبناء وإعمار الأرض وجميع العلوم والمهن والمعارف..
فالعلم هو اكتساب المعرفة الصحيحة من مصادرها السليمة، والفن يكمن في إخراج هذه العلوم وكيفية تطبيقها عملياً. ولنا في تجارب العلماء أفضل مثل على ذلك. وهذه التجارب هي التي ينادي بها العلماء في العصر الراهن. فالفيلسوف وعالم الاجتماع الانكليزي (فرنسيس بيكون) هو ـ حسب ما يزعمون ـ هو أول من دعا صراحة إلى اتخاذ العلم سبيلاً للارتقاء بحياة الإنسان العملية!238.
وكم من حقائق اكتشفها الأوائل من معين العلوم الأصل (كتاب الله) الكريم، ثم اشتهر بها الأواخر. حتى الذرة التي اكتشفها قبل اينشتين وماركوني العالم العربي الجلدكي صاحب كتاب: الشذور239.
كما ورد في كتاب من هدي القرآن الكريم للأستاذ أمين الخولي نقلاً عن الكامل لابن الأثير: أن عالماً مسلماً لم يعلن عن اسمه (اكتشف محرقاً جديداً أقوى ما عرف، وقدمه لجيش صلاح الدين الأيوبي ـ وقد بلغت القلوب الحناجر ـ خوفاً من حشود الصليبيين، فأحرق ما تفنن به الأعداء من إقامة أبراج لم يكن لجيش المسلمين عليه من قوة. وما من شك كان لهذا الاختراع الوقع الحسن في نفوس المسلمين عامة. قدر صلاح الدين هذا العمل وبذل لصاحبه الأموال والأقطاع، فرفضها وقال له: إنما عملت هذا العمل لله ومن أجل مساعدة عباد الله من المسلمين، وهذا واجبي الشرعي، ولا أريد الجزاء إلا من الله تعالى ثم اختفى هذا الإنسان النبيل العظيم دون أن يحمل التاريخ عنه شيئاً حتى اسمه. فكل ما يعرف عنه في المصادر التاريخية: إنسان من دمشق لا غير. وهذا هو العمل الشريف النبيل العمل في سبيل الله. حمل أئمة أهل البيت (عليهم السلام) مشعل النهضة العلمية في العالم الإسلامي، فأسسوا في حواضره معالم الحياة الفكرية، ودعوا المسلمين دعوات جادة تحمل طابع الإرشاد والتوجيه إلى الخير ليبنوا حياتهم الخاصة والاجتماعية على أساس من الوعي العلمي، وقد ملئت موسوعات الحديث والفقه بما أثر عنهم من أحاديث الترغيب في طلب العلم، عملاً يقول القرآن الكريم والرسول الأكرم محمد بن عبد الله (صلّى الله عليه وآله)، إن أول ما نزل الوحي على النبي (صلّى الله عليه وآله) نزل بآيات تدعو إلى التعلم وتطالبه بالقراءة. قال تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)240.
ونجد القرآن الكريم بالإضافة إلى دعوته إلى التعليم وحضه على طلب العلم يبين درجات العلماء ويخاطب ذوي الألباب بقوله عزّ وجلّ:
(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ)241.
وقوله عزّ وجلّ: (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)242.
والرسول الكريم وهو الأمين على دعوة ربه قال (صلّى الله عليه وآله): (طلب العلم فريضة على كل مسلم)243.
وقد بين (عليه السلام) منزلة العلماء، وحث الأمة على احترامهم ومعرفة حقوقهم فقال (صلّى الله عليه وآله): (ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقّه)244.

هذه لمحة سريعة عن موقف رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لطلاب العلم وحاملي لواء التحرير من الجهل والضلال، وقد سار على مسيرته الأئمة المعصومون من أمير المؤمنين إلى ولده الحسن إلى أخيه الحسين إلى ابنه زين العابدين إلى ابنه الباقر إلى ابنه الصادق إلى ابنه الإمام موسى الكاظم عليهم جميعهم أفضل الصلاة وأزكى السلام.

عني الإمام موسى (عليه السلام) بهذه الدعوة الحضارية الخلاّقة فأمر جميع المسلمين بالجد على تحصيل العلم والتفقه في الدين، وحذّرهم من طلب بعض العلوم التي لا يستفيدون بها في تطوير حياتهم الفردية والاجتماعية. من هذه العلوم المفيدة لهم: الفقه الديني.

الفقه الديني عند الإمام (عليه السلام)

عمل الإمام (عليه السلام) بوصية جده وأبيه وحث المسلمين على التفقه في الدين، ومعرفة الأحكام الشرعية فقال لهم:

(تفقّهوا في دين الله، فإن الفقه مفتاح البصيرة، وتمام العبادة، والسبب إلى المنازل الرفيعة والرتب الجليلة في الدين والدنيا، وفضل الفقيه على العابد كفضل الشمس على الكواكب، ومن لم يتفقه في دينه لم يرض الله له عملاً..).

سأله بعض أصحابه عما يحتاج إليه من الأحكام الشرعية قائلاً: (هل يسع الناس ترك المسألة عما يحتاجون إليه؟ فقال (عليه السلام): (إن الناس لا يسعهم أن يتركوا ما يحتاجون إليه في أمور دينهم). وهذا بلا ريب أمر طبيعي وواقعي فالعلماء واجبهم الشرعي إرشاد الناس ونصحهم ليتفهموا أمور دينهم لأن المسلم الذي يموت ولم يتخذ مرجعاً دينياً يهتدي برسالته يموت موتة جاهلية. لذلك كان على المسلمين مجالسة العلماء.

مجالسة العلماء

من هنا وجدنا الإمام (عليه السلام) يأمر أصحابه بمجالسة العلماء الأفاضل للاستفادة من علومهم وآدابهم والاقتداء بسلوكهم فقال (عليه السلام): (محادثة العالم على الموابل خير من محادثة الجاهل على الزرابي)245. وبعد أن أشاد بفضل العلماء الذين هم أعلام الدين وورثة الأنبياء في حمل كتاب الله، عاد فحذر أصحابه منهم إذا استهوتهم الدنيا، واتبعوا السلطان، فإذا فعلوا ذلك فالحذر منهم واجب على الدين.

هذا عن واجبات العالم والآن ماذا عن واجبات المتعلم.

واجبات المسلم المتعلم

1ـ العمل: أعلن الإسلام دعوته الصريحة على العمل الحر والكسب الشريف. قال تعالى: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)246 وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي، التوازن السليم بين مقتضيات الحياة في الأرض، من عمل وكد وكسب ونشاط. وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر.

وهي ضرورة لحياة القلب الذي لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض. بتكاليف الأمانة الكبرى. وذكر الله سبحانه وتعالى لابدّ منه أثناء ابتغاء المعاش، والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة. ولكنه ـ مع هذا ـ لابدّ من فترة للذكر الخالص، والانقطاع الكامل، والتجرد المحض كما توحي الآيتان المباركتان.

إن الإسلام دعا الناس كافة إلى العمل، وحثهم عليه ليكونوا ايجابيين في حياتهم يتمتعون بالجد والنشاط ليفيدوا ويستفيدوا، وكره لهم الحياة السلبية والوقوف عند عمل لا يؤدي إلا إلى عرقلة الاقتصاد وشيوع الفقر والحاجة في البلاد.

وكتب الحديث استفاضت بما أثر عن النبي (صلّى الله عليه وآله) الأكرم وعن أوصيائه المعصومين، والحث على العمل وإضفاء الصفات الكريمة عليه فقالوا: العمل شرف، والعمل جهاد والعمل تضحية والعمل عبادة.

وأهل البيت (عليهم السلام) كانوا يزاولون العمل بأنفسهم ليقتدي بهم سائر المسلمين. فالإمام جعفر الصادق (عليه السلام) كان يعمل في بعض بساتينه حدث أبو عمر الشيباني قال: رأيت أبا عبد الله (عليه السلام) وبيده مسحاة وعليه إزار غليظ والعرق يتصبب منه، فقلت له:

(جعلت فداك أعطني أكفك) فقال (عليه السلام): (إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة)247.

وقد سار الإمام الكاظم مسيرة أبيه (عليه السلام) فكان يعمل بنفسه لإعاشة عائلته، روى الحسن بن علي بن أبي حمزة قال: رأيت أبا الحسن موسى بن جعفر يعمل في ارض له، وقداستنقعت قدماه في العرق فقلت له: (جعلت فداك، أين الرجال؟) فقال (عليه السلام):

(عمل باليد من هو خير مني ومن أبي في أرضه، فبهر الحسن وانطلق يقول: من هو؟ فقال (عليه السلام): رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين وآبائي كلهم قد عملوا بأيديهم وهو من عمل النبيين والمرسلين والصالحين)248.

وبذلك أعطى الإمام (عليه السلام) درساً مفيداً عن الإسلام فهو دين العمل والجد ولا علاقة بين العمل والمنزلة الاجتماعية للفرد مهما علت منزلته فهو مأمور بالعمل من أجل نفسه ومن أجل عائلته. وتقديراً لحقوق العامل قال أمير المؤمنين (ادفعوا اجر العامل قبل أن يجف عرقه).

نعود إلى ما كنا بصدده (الفقه الديني) هذه قبسات وضاءة من أحاديث الإمام (عليه السلام) من العقيدة.

معنى الله

روى الكليني عن عدة من أصحابنا، عن احمد بن محمد البرقي، عن القاسم بن يحيى، عن جده الحسن بن راشد، عن أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) قال: سئل عن معنى الله فقال: استولى على ما دق وجلّ.249

وفي رسالة وجهها إليه الفتح بن عبد الله يسأله عن توحيد الله عزّ وجلّ فأجابه (عليه السلام) بعد البسملة: (الحمد لله الملهم عباده حمده، وفاطرهم على معرفة ربوبيته، الدال على وجوده بخلقه، المستشهد بآياته على قدرته)250.

أراد (عليه السلام) أن الله استشهد على قدرته الباهرة بآياته العظيمة، كخلق السماوات والأرض والشمس والقمر، ويعبر عنها بالآيات الأفقية وبخلق الأرواح والعقول والنفوس وإدراكاتها وتسمى بالآيات النفسية وهي تدل على عظيم قدرته تعالى.

صفات الله

وتابع (عليه السلام): (الممتنعة من الصفات ذاته، ومن الأبصار رؤيته).

أشار (عليه السلام) إلى أن صفات الله عين ذاته تعالى، وليست عارضة عليه كعروضها على الممكن، وقد أقيمت الأدلة الوافرة في علم الكلام على ذلك. وإن الأبصار تمتنع عن رؤيته تعالى وفيه إيماء لطيف على عدم امتناع

إدراك البصائر والقلوب من رؤيته، ولكنها تراه بنور المعرفة وحقيقة الإيمان كما قال (عليه السلام): (ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان).

(ومن الأوهام الإحاطة به، لا أمد لكونه، ولا غاية لبقائه)251.

أراد (عليه السلام) أن الله يحيط بما سواه فكيف يحيط به شيء من الأوهام التي لا تتعلق إلا بالمعاني الجزئية المحدودة.

وإنه تعالى فوق الآجال والأزمنة فلا أمد له، فإن الزمان مخلوق له، وإن بقاءه تعالى قائم بذاته وليس بصفة عارضة.

النهي عن التشبيه

وعن الحسن بن عبد الرحمن الحماني قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام): إن فلاناً زعم أن الله جسم ليس كمثله شيء، عالم، سميع، بصير، قادر، متكلم، ناطق، والكلام والقدرة والعلم يجري مجرى واحد، ليس شيء منها مخلوقاً.

فقال (عليه السلام): قاتله الله أما علم أن الجسم محدود والكلام غير المتكلم معاذ الله وأبرأ إلى الله من هذا القول، لا جسم ولا صورة ولا تحديد وكل شيء سواه مخلوق، إنما تكون الأشياء بإرادته ومشيئته من غير كلام ولا تردد في نفس ولا نطق بلسان. إن الله لا يشبهه شيء.252

النهي عن الحركة

روى محمد بن أبي عبد الله عن الحسن بن راشد، عن يعقوب بن جعفر، عن أبي إبراهيم موسى بن جعفر (عليه السلام) أنه قال:

(لا أقول: إنه قائم فأزيله عن مكانه، ولا أحدّه بمكان يكون فيه، ولا أحدّه أن يتحرّك في شيء من الأركان والجوارح، ولا أحدّه بلفظ شق فم، ولكن كما قال الله تبارك وتعالى: (كُنْ فَيَكُونُ) بمشيئته من غير تردد في نفس، حمداً فرداً، لم يحتج إلى شريك يذكر له ملكه ولا يفتح له أبواب علمه)253.

الإرادة والتقدير والمشيئة

روى علي بن محمد بن عبد الله، عن احمد بن أبي عبد الله، عن أبيه، عن محمد بن سليمان الديلمي، عن علي بن إبراهيم الهاشمي قال: سمعت أبا الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) يقول: لا يكون الشيء إلا ما شاء الله وأراد وقدر وقضى، قلت: ما معنى شاء؟ قال: ابتداء الفعل، قلت: ما معنى قدر؟ قال: تقدر الشيء من طوله وعرضه، قلت: ما معنى قضى؟ قال: إذا قضى أمضاه، فذلك الذي لا مردّ له.254

ـ روى أبو جعفر الطوسي عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن (عليه السلام) أخبرني عن الإرادة من الله عزّ وجلّ ومن الخلق؟ فقال: الإرادة من الله تعالى أحداثه الفعل لا غير ذلك، لأنه جلّ اسمه لا يهم ولا تفكر.255

علم الله تبارك وتعالى

سئل الإمام (عليه السلام) عن علم الله تعالى بسؤال جاء فيه: هل أن الله كان يعلم الأشياء، قبل أن خلق الأشياء وكوّنها، أو أنه لم يعلم ذلك حتى خلقها وأراد خلقها وتكوينها، فعلم ما خلق عندما خلق وما كوّن عندما كوّن؟

فأجاب (عليه السلام) موقعاً بخطه: (لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعدما خلق الأشياء)256.

وكتب إليه محمد بن حمزة رسالة يسأله فيها عن علم الله وهذا نصها:

(إن مواليك اختلفوا في العلم، فقال بعضهم: لم يزل الله عالماً قبل فعل الأشياء، وقال بعضهم: لم يزل الله عالماً لأن معنى يعلم يفعل فإن أثبتنا العلم فقد أثبتنا في الأزل معه شيئاً، فإن رأيت جعلني الله فداك أن تعلمني من ذلك ما أقف عليه ولا أجوزه).

فكتب (عليه السلام) إليه: (لم يزل الله عالماً تبارك وتعالى ذكره)257.

وكما نرى كان جوابه (عليه السلام) عن هذه المسألة مجملاً نظراً لقصر فهم السائل عن إدراك الجواب. لأن هذه المسألة من أشكل المسائل الفلسفية وقد وقع الاختلاف فيها بين أعاظم الفلاسفة القدامى.

فالمشائيون تبعاً لمعلمهم أرسطوطاليس ذهبوا إلى أن علمه تعالى بالأشياء متقدم عليها. والإشراقيون تبعاً لمعلمهم أفلاطون ذهبوا إلى أن علم الله عزّ وجلّ بالأشياء مقارن لإيجاد الشيء. وقد استدل الفريقان بأدلة كثيرة فيها لون من الغموض والإبهام، لسنا الآن في صددها.

وروى الصدوق عن الكاهلي قال: كتبت إلى أبي الحسن (عليه السلام) في دعاء: (الحمد لله منتهى علمه) فكتب إليّ: لا تقولن منتهى علمه، ولكن قل منتهى رضاه.258

وعنه بإسناده عن الحسن بن يزيد بن عبد الأعلى، عن العبد الصالح موسى بن جعفر (عليه السلام) قال: علم الله لا يوصف منه بأين، ولا يوصف العلم من الله بكيف، ولا يفرد العلم من الله ولا يبان الله منه، وليس بين الله وبين علمه حدّ.259

جوامع التوحيد

قال الصدوق: حدثنا أبي عن علي بن محمد بن قتيبة عن الفضل بن شاذان عن محمد بن أبي عمير، قال: دخلت على سيدي موسى بن جعفر (عليهما السلام) فقلت له: يا ابن رسول الله علمني التوحيد. فقال: يا أبا أحمد لا تتجاوز في التوحيد ما ذكره الله تعالى ذكره في كتابه فتهلك.

واعلم أن الله تعالى واحد أحد، صمد، لم يلد فيورث، ولم يولد فيشارك، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً، وإنه الحي الذي لا يموت، والقادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا يغلب، والحليم الذي لا يعجل، والدائم الذي لا يبيد، والباقي الذي لا يفنى، والثابت الذي لا يزول، والغنى الذي لا يفقر، والعزيز الذي لا يذل. والعالم الذي لا يجهل، والعدل الذي لا يجور، والجواد الذي لا يبخل، وإنه لا تقدره العقول، ولا تقع عليه الأوهام، ولا تحيط به الأقطار، ولا يحويه مكان، ولا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير. ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم ولا خمسة إلا وهو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم أينما كانوا.

وهو الأول الذي لا شيء بعده، وهو القديم وما سواه مخلوق محدث تعالى عن صفات المخلوقين علواً كبيراً.260

العدل

قال الصدوق: حدثنا محمد بن احمد الشيباني.. عن الإمام علي بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه الرضا علي بن موسى (عليهم السلام) قال: خرج أبو حنيفة ذات يوم من عند الصادق (عليه السلام)، فاستقبله موسى بن جعفر (عليهما السلام) فقال له: يا غلام ممن المعصية؟

قال: لا تخلو من ثلاث: إما أن تكون من الله عزّ وجلّ، وليست منه فلا ينبغي للكريم أن يعذّب عبده بما لا يكتسبه، وإما أن تكون من الله عزّ وجلّ ومن العبد، وليس كذلك فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف، وإما أن تكون من العبد وهي منه، فإن عاقبه الله فبذنبه وإن عفا عنه فبكرمه وجوده.261

هل الله تعالى شيء؟

قال الصدوق: حدّثنا جعفر بن محمد بن مسرور، قال: حدّثنا محمد بن جعفر بن بطة، قال: عن محمد بن عيسى بن عبيد، قال:

قال لي أبو الحسن (عليه السلام): ما تقول إذا قيل لك: أخبرني عن الله عزّ وجلّ شيء أم لا؟ قال فقلت له: قد أثبت الله عزّ وجلّ نفسه شيئاً يقول: (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) فأقول: إنه شيء لا كالأشياء، إذ في نفي الشيئية عن إبطاله ونفيه، قال لي: صدقت وأصبت، ثم قال لي الرضا (عليه السلام) للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب: نفي، وتشبيه، وإثبات بغير تشبيه، فمذهب النفي لا يجوز، ومذهب التشبيه لا يجوز لأن الله تبارك وتعالى لا يشبهه شيء، والسبيل في الطريقة الثالثة إثبات بلا تشبيه.262

ليس كمثله شيء

قال الصدوق: أبي ومحمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد قالا: حدثنا محمد بن يحيى العطار؛ وأحمد بن إدريس عن بعض أصحابنا، عن طاهر بن حاتم بن ماهويه قال: كتبت إلى الطيب يعني أبا الحسن موسى (عليه السلام): ما الذي لا تجزئ معرفة الخالق بدونه فكتب:

ليس كمثله شيء ولم يزل سميعاً وعليماً وبصيراً، وهو الفعال لما يريد.263

نفي الزمان والمكان

قال الصدوق: حدثنا علي بن الحسين بن الصلت، قال: حدثنا محمد بن احمد بن علي بن الصلت عن عمه أبي طالب عبد الله بن الصلت، عن يونس بن عبد الرحمن، قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) لأي علة عرج الله بنبيه (صلّى الله عليه وآله) إلى السماء، ومنها إلى سدرة المنتهى، ومنها إلى حجب النور، وخاطبه وناجاه هناك والله لا يوصف بمكان.

فقال (عليه السلام): إن الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان، ولا يجري عليه زمان، ولكنه عزّ وجلّ أراد أن يشرّف به ملائكته وسكان سماواته، ويكرّمهم بمشاهدته ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقول المشبّهون، سبحان الله وتعالى عما يشركون264 إن الله تبارك وتعالى كان ولم يزل بلا زمان ولا مكان وهو الآن كما كان، لا يخلو منه مكان ولا يشغل به مكان، ولا يحل في مكان وليس بينه وبين خلقه حجاب.

الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية

قال الإمام الكاظم (عليه السلام): إن لله إرادتين ومشيئتين: إرادة حتم، وإرادة عزم. ينهى وهو يشاء، ويأمر وهو لا يشاء، أو رأيت أنه نهى آدم وزوجته أن يأكلا من الشجرة، وشاء ذلك، ولو لم يشأ أن يأكلا لما غلبت مشيئتهما مشيئة الله تعالى.

وأمر إبراهيم أن يذبح ابنه إسماعيل ولم يشأ أن يذبحه ولو شاء لما غلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله تعالى.265

وبيان مراده (عليه السلام) إن الإرادة تنقسم إلى الإرادة التكوينية الحقيقية، وإلى الإرادة التشريعية الاعتبارية، فإرادة الإنسان التي تتعلق بفعل نفسه إرادة تكوينية تؤثر في أعضائه إلى إيجاد الفعل ويستحيل معها تخلف الأعضاء عن المطاوعة إلا لمانع. وأما الإرادة التي تتعلق بفعل الغير كما إذا أمر بشيء أو نهى عنه فإن هذه الإرادة ليست تكوينية بل هي تشريعية لأنها لا تؤثر إيجاد الفعل أو تركه من الغير بل تتوقف على الإرادة التكوينية له.

وأما إرادة الله التكوينية فهي التي تتعلق بالشيء، ولابد من إيجاده ويستحيل فيها التخلف، وأما إرادته التشريعية فهي التي تتعلق بالفعل من حيث أنه حسن وصالح، وأما نهي الله لآدم عن الأكل من الشجرة وقد شاء ذلك وأمره تعالى لإبراهيم بالذبح لابنه إسماعيل وقد شاء ذلك فإن النهي والأمر فيهما تشريعيان، كما أن المراد بالمشيئة هي المشيئة التكوينية، وقد صرحت الرواية بأن إبراهيم قد أمر بذبح ولده إسحاق دون إسماعيل، وهو مخالف لما تضافرت به الأخبار الواردة عن أئمة الهدى (عليهم السلام) بأن الذي جعل قرباناً للبيت الحرام هو إسماعيل دون إسحاق.

وهنا يتوضع دور الإمام موسى (عليه السلام) في الدفاع عن العقيدة الإسلامية وإبطال حجج الملحدين وأفكارهم المزيفة وتفنيده لشبههم.

ولا يخفى ما ظهر في عصر الإمام من موجات إلحادية فجّرها المعادون للإسلام عندما وجدوا أن لا وسيلة لهم لمقاومته إلا بإشاعة ترهاتهم الباطلة ليضعفوا الجانب العقائدي بين المسلمين. ولكن لم تلبث هذه الأفكار، وقبرت تلك الأضاليل والبدع بواسطة المساعي الحميدة والهمم العالية التي بذلها أهل البيت (عليهم السلام) من أجل صيانة الإسلام وحمايته من شبهة الملحدين ومكايد المضللين.

إن تلك الموجات الإلحادية التي انتشرت في ذلك العصر تدل على أن المجتمع كان يعيش عيشة متحللة يسودها الشك في العقيدة الإسلامية والخلاف المذهبي. ومما لا شك فيه أن لاحتجاجات الأئمة (عليهم السلام) الأثر الفعال في إرجاع المسلمين إلى طريق الحق والصواب ومقاومتهم للغزو العقائدي الذي مني به العصر العباسي. فقد كان في أغلب أدواره عصر لهو ومجون قد أقبل الناس فيه إلى الاستمتاع بجميع أنواع المحرمات فاندفعوا على الطرب والغناء وشرب الخمر والميسر ومنادمة الجواري والغلمان وغيرها من المحرمات.

وقد شجعهم على ذلك الحكام الذين غرقوا في المحرمات والآثام، وسار الناس على مسراهم حيث لا حسيب ولا رقيب.

وإذا أردنا مثلاً دالاً على تسيّب الأخلاق في ذلك العصر فلنا شعراء العصر العباسي فقد كانوا يمثلون المجتمع في جميع اتجاهاته وميوله تمثيلاً صحيحاً. فقد كان شعرهم يصف القيان والخمر، واللذة والشهوات وأكثر ما أثر عنهم في هذا المجال وصمة عار في تاريخ الأدب العربي فأبو نواس كرّس كل مجهوده الفكري على وصف: الكؤوس والأكواب والسقاة والدنان، والخمارين والندمان. ولم يفته أن يذكر أصناف الخمور، وطريقة صنعها وطعمها ولونها ورائحتها ممّا جعله يلتفت إلى كل ما يتصل بها ويحس بها بما لم يحس بها غيره. فقال:

لي نشوتان وللندمان واحدة***شيء خصصت به من بينهم وحدي

وقد وصل به حُبِّه للخمر إلى درجة العبادة والتقديس.
وقد تحوّلت بغداد الرشيد والمنصور والهادي.. إلى دور للهو والعبث والمجون. فانساب الناس وراء الشهوات ونبذوا القيم الإسلامية السامية وأدى ذلك إلى انحطاط في الأخلاق وانغماس في الإثم والمنكر. ومما لا شك فيه أن سياسة الحكم العباسي هي المسؤولة عن هذه الموجة من التحلل واللهو وإشاعة المنكر والفساد.
لذلك كله عمد أهل البيت (عليهم السلام) إلى الوقوف في وجه هذا التيّار الفاسد وبدأوا بإرشاداتهم ونصحهم وتوضيحهم أمور الدين الحنيف ورد الشبهات والانحرافات. ومن هذه الأدوار الإصلاحية الهامة دور الإمام الكاظم الذي أكمل مسيرة آبائه وأجداده الكرام فأجاب على كل الأسئلة والشبهات وكان لنا من مناظراته واحتجاجاته.

الإمام الكاظم عالم في الاقتصاد

لقد أوصى الإمام الكاظم أصحابه بالاقتصاد في حياتهم المعيشية ونهاهم عن التبذير والإسراف، لأن بهما زوال النعمة.
وقال الإمام الكاظم (عليه السلام): (من اقتصد وقنع بقيت عليه النعمة، ومن بذّر وأسرف زالت عنه النعمة).
وقال (عليه السلام): (ما عال امرؤ اقتصد).
وكما هو معلوم لدى الجميع أن جوهر الدين الإسلامي المحافظة على مصالح الناس كافة وهو دين العدالة والاعتدال، لذلك كان من معالم الاقتصاد الإسلامي منع التبذير لأنه إضاعة للأموال وفساد للأخلاق، وإثارة للحقد والميوعة والتحلل. قال الإمام علي (عليه السلام): (ما جُمع مال إلا من شحّ أو حرام) فالمال في الإسلام هو مال الله والإنسان على هذه الأرض في حياته المؤقتة طالت أم قصرت هو ناقل هذا المال يتصرف فيه لفترة معينة ثم ينتقل منه إلى غيره كما نقل إليه هو السلف. وهكذا هي الحياة مستمرة من السلف إلى الخلف. فعلينا أن لا نبخل على أنفسنا فنكون قد جمعنا لغيرنا وأن لا نسرف وبنذر ما تعبنا في تحصيله أو ما ورثناه من أهلنا فخير الأمور أوسطها. وهذا يعود بلا ريب إلى حسن التدبير ودقة التقدير. فلا نقبض بأيدينا ولا نبسطها كل البسط.
حتى الكرم، وهي صفة محببة عند الناس وعند الله إذا ما زاد عن حدّه يصبح تهوساً وتهوراً وتضيع الفائدة المرجوّة منه.
لكن هذا المال الحلال يحصله الإنسان بالعمل الجاد لذلك حذر الإمام (عليه السلام) من الكسل.

التحذير من الكسل

نهى الإسلام عن الكسل لأنه يجمد الطاقات الإنسانية ويفسد الحياة الاجتماعية، ويشلّ الحركة الاقتصادية. وقد ورد في الأدعية المأثورة عن أئمة الهدى بالتعوذ من الكسل، فجاء عنهم:
(اللّهم إني أعوذ بك من الكسل والضجر فإنهما مفتاح كل سوء.. إنه من كسل لم يؤد حقاً، ومن ضجر لم يصبر على حق)266.
والإمام موسى الكاظم (عليه السلام) قد أوصى بعض ولده بالحذر من الكسل والعمل الجاد فقال (عليه السلام): (إياك والكسل والضجر فإنهما يمنعاك من حظك في الدنيا والآخرة) لقد كان الإمام (عليه السلام) يكره الكسل والبطالة، ويمقت صاحبها لأنها تؤدي إلى الفقر والفشل في الحياة، كما يؤدي أيضاً إلى ذهاب المروءة عند

الرجل، والكسول العاطل عن العمل يكون بحكم الأموات حيث لا تفكير ولا تدبير ولا إحساس بالمسؤولية. قال أبو الطيّب المتنبّي لمثل هؤلاء الكسالى:

من يهن يسهل الهوان عليه***ما لجرح بميّت إيلام

وعن بشير الدهان قال: سمعت أبا الحسن موسى (عليه السلام) يقول: (إن الله جل وعز يبغض العبد النوّام الفارغ)267.

ولا يكفي أن نعمل إنما علينا أن نخلص فيما نعمل.

الإخلاص في العمل

الإخلاص في العمل هو تجريد النيّة من الشوائب والمفاسد. قال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلاَ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ)268.

وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) قال ليس يعني الكمية وإنما يعني النوعية، الإصابة خشية الله والنية الصادقة.

وعن الإمام الكاظم (عليه السلام) إن الإخلاص في العمل مراتب متفاوتة:

1- مرتبة الشاكرين، وهم الذين يعبدون الله تعالى شكراً على نعمائه التي لا تحصى.

2- عبادة المقربين، وهم الذين يعبدون الله تقرباً إليه والقرب والبعد معنويان.

3- عبادة المستحيين، وهم قوم يبعثهم على الأعمال والطاعات والحياء من الله تعالى لأنهم علموا أنه مطلع على ضمائرهم وعالم بما في خواطرهم.

4- عبادة المتلذذين، وهم الذين يتلذذون بعبادة ربهم بأعظم ممّا يلتذ به أهل الدنيا من نعيم الدنيا.

5- عبادة المحبين، وهم الذين وصلوا بطاعتهم وعبادتهم إلى أعلى درجات الكمال من حب الله.

6- عبادة العارفين، وهم الذين بعثهم على العبادة كمال معبودهم وانه أهل للعبادة.

7- عبادة الله لنيل ثوابه أو الخلاص من عقابه.

الإمام الكاظم عالم في الاجتماع

الإصلاح بين الناس

لا يكفي في الإسلام أن يكون المسلم مستقيماً في حياته الفردية متجنباً الأضرار بالناس، بل المطلوب منه والخير له أن ينتقل سعيه الذاتي إلى الإصلاح بين الناس الذين يعيش معهم. ذلك أن الإصلاح بين الناس من أهداف المسلمين المؤمنين، لأن المؤمن مرآة أخيه، يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها. فعلى المؤمنين شرعاً أن يسعوا للإصلاح كيما يتفاقم الشر ويتطور النزاع، فمن عداوة بين شخصين إلى عداوة بين قبيلتين، وربما يتحوّل إلى سفك دماء، وكثيراً ما يحصل أن تقسم الأمة إلى جماعات لا همّ لهم سوى الثأر والنكاية والإضرار. والإصلاح بين الناس لا يصدر إلا من قلوب نبيلة ونفوس تحب الناس كافة وتسعى من أجلهم وتعمل لخيرهم. من هنا يأت في الخير والنفع للمجتمع، ومن هنا تتوثق الروابط الاجتماعية بين الناس وحدة متعاونة على البر والتقوى. لذلك أمر الله المؤمنين بالسعي للإصلاح بين إخوانهم. قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أَخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)269.

كما دعاهم عزّ وجلّ للقيام بالإصلاح بين المؤمنين في حال النزاع.

قال تعالى: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ...)270.

والرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله) قال: (الخلق كلهم عيال الله، واقربهم إليه أنفعهم لعياله) فبقدر ما نفيد عيال الله، بقدر مانحسن إليهم ونصلح بينهم ونقترب من مرضاته تعالى أكثر.

والإمام الكاظم (عليه السلام) حثّ أصحابه على الإصلاح بين الناس كما شجّعهم على الإحسان لمن أساء إليهم؛ وبيّن لهم عاقبة المحسنين والمصلحين وما لهم من الأجر عند الله. فقال (عليه السلام):

(ينادي مناد يوم القيامة ألا من كان له أجر على الله فليقم، فلا يقوم إلا من عفا وأصلح).

حسن الجوار

من أخلاق الإسلام العظيمة حفظ الجوار فهو من الفضائل التي دعا إليها الله في كتابه العزيز، وهو نعمة من نعمه لأن الجار إذا كان صادقاً في قوله وأميناً في معاملته، وحافظاً حقوق جاره يكون الجار الآخر في أمن وأمان واطمئنان منه، إذ أنه يحفظه حاضراً وغائباً.

والجار الأمين صديق لجاره وأنيس له، يساعده في حاجاته، ويعوده في مرضه ويخفف عنه أثناء شدته يقول المثل السائر: اسأل عن الجار قبل الدار، وعن الرفيق قبل الطريق. وقال بعضهم: إذا بعت داري فلا أبيع جاري.

وروي عن لقمان أنه قال لابنه:

واعرف لجارك حقه***والحق يعرفه الكريم

فمن أين لنا في هذه الأيام الجار الكريم الذي يعرف واجبه تجاه جاره؟!! الحياة الإنسانية حياة اجتماع وسعادة، والوحدة بين الشر أمر طبيعي دعت إليها الحاجة الحياتية. من هنا قال علماء الاجتماع: الإنسان مدني بالطبع. لأن الإنسان بطبيعته وطبعه اجتماعي ألوف ولا خير في امرئ لا يألف ولا يؤلف. قال عزّ وجلّ في التآزر والتكاتف: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا..)271 وقال الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله): (الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذي له ثلاثة حقوق، الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم. وأما الذي له حقان: فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك.272

وعن الإمام زين العابدين (عليه السلام): (وأما حق جارك، فحفظه غائباً، وإكرامه شاهداً، ونصرته إذا كان مظلوماً، ولا تتبع له عورة، فإن علمت عليه سوء سترته عليه، وإن علمت أنه قبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه، ولا تسلمه عند شديدة، وتقيل عثرته، وتغفر ذنبه، وتعاشره معاشرة كريمة، ولا قوة إلا بالله).

والإمام الكاظم (عليه السلام) أوصى أصحابه بالإحسان إلى الجار والصبر على تحمّل الأذى والمكروه منه قال (عليه السلام):

(ليس حسن الجوار كف الأذى، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى) اللّهم اعطنا القدرة على تحمّل أذى جيراننا، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا إنك أنت السميع العليم.

إغاثة المستجير

في التعاليم الإسلامية الهامة التي دعت إليها الرسالة النبوية وأوجبت على المسلمين العمل على تطبيقها إغاثة المستجير، أو الملهوف، وهي دعامة متينة من دعائم البناء الاجتماعي في الإسلام. وقد أرسل الله تبارك وتعالى

النبيين ليرشدوا الناس إلى النور، إلى الصراط المستقيم، ولو أهمل تطبيق الشريعة الإسلامية لاستشرى الانحلال الأخلاقي في المجتمع البشري، وبذلك يكون إغاثة الملهوف من أوجب الواجبات التي تترتب على الفرد في المجتمع الإسلامي المصون، وبصورة خاصة في أيامنا هذه حيث أصبحنا في عصر استولت على قلوب البشر المداهنة والمداراة، ونسوا أن تناسوا الخالق الذي أمرهم بالمحبة والأخوة، فاسترسلوا في اتباع أهوائهم وأنانيتهم بلا حدود، فعمّت الفتن، وشاعت الجهالة وضاعت الفضائل الأخلاقية حتى أصبحت تصرخ وتستغيث: أنقذوني! أنقذوني! من براثن الأنانية. لذلك: أوجد الله وجود جماعة من أولي الحل والعقد يمثلون الأمة ويراقبون سياستها وسير أعمالها. هذه الجماعة قصدها الله سبحانه بقوله:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)273.

هذه المسؤولية لا تقع على عاتق هؤلاء الجماعة فقط، بل من واجب كل مؤمن ومؤمنة التصدي للظلم، والدعوة إلى الخير، ومساعدة إخوانه المحتاجين، فهم إن لم يكونوا إخوة لنا في الدين فهم أسوة في الخلق.

والإمام الكاظم (عليه السلام): حث أصحابه على إغاثة المستجير، وقضاء حاجة المحتاجين فقال: (من قصد رجل من إخوانه مستجيراً به في بعض أحواله فلم يجره ويقدر عليه فقد قطع ولاية الله عزّ وجلّ)274.

وقد أمرهم بقضاء حاجة الناس فقال (عليه السلام): (من أتاه أخوه المؤمن في حاجة فإنما هي رحمة من الله تبارك وتعالى ساقها إليه، فإن قبل ذلك فقد وصله بولايتنا، وهو موصول بولاية الله، وإن ردّه على حاجته وهو يقدر على قضائها سلط الله عليه شجاعاً ينهشه في قبره إلى يوم القيامة).

وقال (عليه السلام) في فضل من يقضي حاجة أخيه المؤمن:

(إن لله عباداً في الأرض يسعون في حوائج الناس هم الآمنون يوم القيامة، ومن أدخل على مؤمن سروراً فرح الله قلبه يوم القيامة)275.

التراحم والتعاطف

حث الإسلام على التزاور بين المسلمين، لأن ذلك يوطد أواصر المحبة فيما بينهم ويطلعهم على حاجات بعضهم البعض.

والمحبّة التي يبغيها الإسلام للمؤمنين هي المحبّة الخالصة لوجه الله، تلك التي تدفع صاحبها على الدوام إلى محبّة الجميل في أي إنسان تمثل، وإلى تفضيل الجليل من أي مكان صدر هذه المحبّة الناتجة عن التزاور والتعاطف تدوم وتستمر لأنها لوجه الله، وما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

والمرء لا ينال هذا اللون من المحبّة على وجهها السليم إلا بمثل هذا العون الربّاني. من هنا كان القول: إن من علامات رضى الله على الإنسان المؤمن محبة الناس له؛ ومن علامات غضب الله على الإنسان كره الناس له وتفرّقهم من حوله. قال تعالى لنبيه موسى (عليه السلام): (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)276.

وقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): (الخلق كلهم عباد الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله) ومن هذا الينبوع الغزير (المحبة) تفيض ألوان من التراحم والتعاطف وتسلسل نسيمات وجدانية يجد المؤمنون جوارها برد السلامة والعافية.

والإمام الكاظم (عليه السلام): أمر أصحابه بالتوادد والتآلف وزيارة بعضهم بعضاً لأنها توجب شيوع المودة بينهم، مضافاً لما لها من الأجر العظيم عند الله. قال (عليه السلام): (من زار أخاه المؤمن لله لا لغيره يطلب به

ثواب الله، وكّل الله به سبعين ألف ملك من حين يخرج من منزله حتى يعود إليه ينادونه: ألا طبت وطابت لك الجنة، تبوأت من الجنة منزلاً..).

وفي حديث لرسول الله (صلّى الله عليه وآله): (إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يتغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، بمكانهم من الله تعالى قالوا: يا رسول الله تحيرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا اموالٍ يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وأنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. (أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)277.

وروى الكليني بإسناده عن محمد بن سليمان، عن محمد بن محفوظ قال: سمعت أبا الحسن (عليه السلام) يقول: (ليس شيء أنكى لإبليس وجنوده من زيارة الإخوان في الله بعضهم لبعض، قال: وإن المؤمنين يلتقيان فيذكران الله ثم يذكران فضلنا أهل البيت فلا يبقى على وجه إبليس مضغة لحم إلا تخدّد حتى أن روحه لتستغيث من شدة ما يجد من الألم فتحس ملائكة السماء وخزان الجنان فيلعنونه حتى لا يبقى ملك مقرب إلا لعنه، فيقع خاسئاً حسيراً مدحوراً)278.

السخاء وحسن الخلق

لقد حثّ القرآن الكريم على حسن الخلق ورغب فيه ودعا إليه بأسلوب هو غاية في الروعة والأداء، فيه التشوق إلى العطاء الذي ما بعده من عطاء. ألا وهو قرض الله قرضاً حسناً وهل هناك أكرم وأعظم من هذا الذي نقرضه؟ إنه العلي القدير، الرحمان الرحيم رب العالمين فاطر السماوات والأرض صاحب العرش العظيم. قال تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)279.

فأي تلطف من رب العالمين تبارك وتعالى في هذا التعبير الذي يجعل الإحسان بمثابة الأقراض وإنما يقترض المحتاج والله غني عن العالمين حيث له ملك السماوات والأرض ومن فيهن. ولقد جاء التعبير بمثل هذه الصورة نيابة عن الفقراء والمحتاجين ودفاعاً عنهم. وما قيمة امرئ يبخل بأقراض بعض المال لواهبه الذي سيرده بلا ريب أضعافاً مضاعفة!! والإمام الكاظم (عليه السلام) لهذا كله حث أصحابه على التحلي بالسخاء وحسن الخلق قال (عليه السلام):

(السخي الحسن الخلق في كنف الله، لا يتخلى الله عنه، حتى يدخله الجنة، وما بعث الله نبياً إلا سخياً، وما زال أبي يوصيني بالسخاء وحسن الخلق..).

وقد عمل (عليه السلام) بوصية أبيه (عليه السلام) ثم بوصية جده (صلّى الله عليه وآله) الرسول الأكرم الذي قال: (ألا أخبركم بأحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون...)280.

مكارم الأخلاق

سأل رجل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عن حسن الخلق، فتلا قوله تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)281 ثم قال (صلّى الله عليه وآله): (وهو أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك).

وقال (صلّى الله عليه وآله): إن الخلق الحسن ليميت الخطيئة كما تميث الشمس الجليد)282.

وجاء في الكافي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما يتقدم المؤمن على الله عزّ وجلّ بعمل بعد الفرائض أحب إلى الله تعالى من أن يسع الناس خلقه).

والإمام الكاظم (عليه السلام) عني بهذه الظاهرة فكان دوماً يوصي أصحابه بالتحلي بالصفات الكريمة ليكونوا بسلوكهم وهديهم قدوة صالحة لهم وللمجتمع، حتى يستطيعوا على نشر مفاهيم الخير والصلاح بين الناس.

وفي معنى الخلق وكيفيته وتهذيبه: قال العلماء: ليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء، ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع آخر. وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء. ولا عبارة عن القدرة لأن نسبة القدرة إلى الضدين واحدة. ولا عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد بل هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة.

وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لابدّ من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك لابدّ من الباطن من أربعة لابدّ من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهي: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث:

1- قوة العلم: فحسنها وصلاحها من أن تصبر بحيث يسهل لها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، فإذا تحصلت هذه القوى حصل منها ثمرة الحكمة التي هي رأس الأخلاق الحسنة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً)283.

2- قوة الغضب: وأما قوة الغضب والشهوة فحسنهما في أن يقتصر انقباضهما وانبساطهما على حدما تقتضيه الحكمة والدين.

3- قوة العدل: وأما قوة العدل فهي ضبط قوة الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع، فالعقل منزلته منزلة الناصح والمشير، وقوته القدرة ومنزلتها منزلة المنفذ الممضي لإشارته، والغضب والشهوة تنفذ فيهما الإشارة. ومثال الغضب مثال كلب الصيد، فإنه يحتاج إلى أن يؤدّب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان النفس. ومثال الشهوة مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد، فإنّها تارة تكون مروضاً مؤدباً، وتارة تكون جموحاً، فمن استولت فيه هذه الصفات واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً، ومن اعتدل فيه بعضها دون بعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة، كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون البعض.

وحسن قوة الغضب واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة، وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفّة، فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال سمّي ذلك تهوراً، وإن مالت إلى الضعف والنقصان سمّي ذلك جبناً وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة سمي شرهاً وإن مالت إلى النقصان سمي خموداً. والمحمود هو الوسط، وهو العدل والفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان والعدل إذاً فات فليس له طرفان بزيادة ونقصان، بل له ضد واحد وهو الجور.

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خباً، ويسمي تفريطها بلهاً، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة والخلاصة أن أمهات الأخلاق الحسنة والجميلة وأصولها أربعة: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل.

لم يبلغ كمال الاعتدال من البشر في هذه الأصول الأربعة إلا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ولهذا أثنى الله عليه قائلاً: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)284.

والناس بعدة يتفاوتون في القرب والبعد فينبغي أن يقتدي به. وقد أشار سبحانه وتعالى إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)285.

فالايمان بالله ورسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين، وهو ثمرة العقل، ومنتهى الحكمة.

والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة؛ والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال. وقد وصف الله عزّ وجلّ به قوماً فقال: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)286.

وهذه إشارة إلى أن للشدة موضعاً وللرحمة موضعاً، وليس الكمال بالشدة في كل حال، ولا في الرحمة بكل حال.

وما نراه اليوم يتمثل عملياً على ارض لبنان في الجنوب الحبيب والبقاع الغربي الحبيب على يد أبطال المقاومة المسلمة الذين استعملوا الشدة في موضعها فجاهدوا بأنفسهم بكل شجاعة محكمين غضبهم على شرط العقل، ومقاومين عناقيد الغضب بدمائهم الزكية الطاهرة فإيمانهم في غير ارتياب لقوة يقينهم وهم بالنتيجة الصادقون الصابرون.

فماذا إذن عن الصبر؟

الصبر وفضله

من الصفات الحميدة التي يتحلى بها المؤمنون، الصبر، فهو المحك لقوة إيمان الإنسان وصلابة إرادته تجاه النوائب والمصائب التي تحل به.

قال تعالى: (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)287.

وقال تعالى أيضاً: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)288.

وقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بما معناه: (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطي حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار).

وسئل (صلّى الله عليه وآله) عن الإيمان؟ فقال: الصبر والسماحة.

وقال الإمام الباقر (عليه السلام): (الجنة محفوفة بالمكاره والصبر. فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة، وجهنم محفوفة بالملذات والشهوات فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار).

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): (بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل).

والإمام الكاظم (عليه السلام) سار على نهج أبيه وجده فأوصى أصحابه بالتمسك بالصبر إن نزلت بهم كارثة أو حل بهم خطب، فإن الجزع يذهب بالأجر الذي أعده الله للصابرين فقال (عليه السلام) بما مضمونه:

(المصيبة لا تكون مصيبة يستوجب صاحبها أجرها إلا بالصبر والاسترجاع عند الصدمة).

وقال (عليه السلام) عقب البلاء الذي أصابه من الحكام العباسيين:

(إن الصبر على البلاء أفضل من العافية عند الرخاء).

ولكن أين الرخاء؟ في سجون هارون الرشيد والهادي!!

وقال (عليه السلام): (المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان).

أما الذين صبروا على البلاء مثل الإمام الكاظم وأبيه وأجداده فقال الله سبحانه وتعالى عنهم: (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا)289.

في حقيقة الصبر

من المعلوم أن الحرب قائمة على قدم وساق بين باعث الدين وباعث الهوى ومكان المعركة بينهما قلب المؤمن.

ولكن مدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله، ومدد باعث الهوى من الشياطين الناصرين لأعداء الله، فالصبر عند ذلك عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى والشهوة.

والصبر ضربان: بدني ونفسي.

ـ بدني كتحمل المشاق في السفر أو الأعمال الشاقة من العبادات، أو المرض الشديد أو الجراحات والتعذيب.

ـ ونفسي: وهو الصبر على مشتهيات الطبع، ومقتضيات الهوى، فإن كان على احتمال مكروه اثر مصيبة اقتصر على اسم الصبر.

وإن كان عن شهوة البطن والفرج سمّي عفة، وإن كان في الحرب سمّي شجاعة، وإن كان في نائبة من نوائب الزمان الصعبة سمّي سعة الصدر. وإن كان في إخفاء كلام سمّي كتماناً وإن كان في فضول العيش سُمِّيَ زهداً، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمّي حلماً. والإمام الكاظم هو من أفضل الحالمين لكثرة صبره وكظم غيظه، ولهذا سمي بالكاظم.

والعبد في جميع الأحوال لا يستغني عن الصبر في حياته الخاصة والعامة، لأن ما يلقاه في الدنيا إما أن يوافق هواه، وإما يكرهه، وحاله غير خارج عن هذين الضربين وهو لا محالة محتاج إلى الصبر في كل منهما.

وهناك صبر لا يقع تحت الاختيار كالمصائب مثل الموت لبعض الأحباب وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وسائر أنواع البلاء.

وهذا النوع من الصبر مستند إلى اليقين. قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بما مضمونه:

(أسألك من اليقين ما يهون به علي مصائب الدنيا). وقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية؛ فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها، كتب له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة، كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش.290

والإنسان قد يخرج عن مقام الصابرين بالجزع الزائد والمبالغة في الشكوى، وهذه بلا ريب داخلة تحت الاختبار، فينبغي أن يتجنب جميعها ويظهر الرضا بالقضاء.

ويروى أنه لمّا مات إبراهيم ولد النبي (صلّى الله عليه وآله) فاضت عيناه بالدموع فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ قال (صلّى الله عليه وآله) بما مضمونه: (إن هذا رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)، وقال (صلّى الله عليه وآله): (تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب).

وسئل الإمام الباقر (عليه السلام) عن الصبر الجميل؟ فقال: ذاك صبر ليس فيه شكوى وأما الشكاية إلى الله تعالى فلا بأس بها كما قال يعقوب: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ)291.

ولكن لكل داء دواء فهل للصبر من دواء أو علاج؟؟

نعتقد أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، ووعد بالشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً يمكن تحصيله بتقوية باعث الدين وتضعيف باعث الهوى بالمجاهدة والرياضة الروحية. فمن يكثر فكره فيما ورد في فضل الصبر يعلم أن ثوابه على المصيبة أكثر ممّا فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة الدنيا وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر.

وهذا ما يحصل كل يوم مع أهالي المجاهدين الأبطال في المقاومة حيث نجد العديد من الآباء والأمهات الذين فقدوا أبناءهم في هذه الدنيا فصبروا صبراً جميلاً مقوين باعث الدين ومضعّفين باعث الهوى بالمجاهدة والرياضة، عاملين بقول الرسول الأكرم الذي قال (صلّى الله عليه وآله): (أسألك من اليقين ما يهون به علي مصائب الدنيا).

محاسبة النفس: الإمام الكاظم عالم نفسي

قال الله تعالى: (كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)292.

وقال تعالى: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)293.

فعلم أصحاب البصائر أن العليم بالسرائر والمطلع على الضمائر سيحاسبهم على كل صغير أو كبير أو جليل أو حقير، وعلى مثاقيل الذر من الخطرات واللحظات والغفلات، ولا ينجيهم من هذه الأخطار العظيمة والأهوال الجسيمة إلا محاسبة أنفسهم في الدنيا قبل أن يحاسبوا يوم القيامة.

قال الإمام الصادق (عليه السلام): إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه شيئاً إلا أعطاه فليبأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله، فإذا علم الله ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلا أعطاه، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها، فإن للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقام ألف سنة، ثم تلا (عليه السلام): (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)294.

ومعنى المحاسبة هو أن يحاسب الإنسان نفسه أولاً بالفرائض التي هي بمنزلة راس ماله، فإن أدّاها على وجهها شكر الله على هذه النعمة، وإن فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء. وكما أن التاجر يفتش في حساب الدنيا عن القيراط والحبة ليحفظ مداخل الزيادة والنقصان، فينبغي عليه أن يتقي غائلة النفس ومكرها لأنها خداعة، فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما يتكلم به طوال نهاره وليتكفل بنفسه من الحساب ما يستولي غيره في صعيد القيامة.

وهكذا عن نظره وسمعه ولسانه، بل عن خواطره وأفكاره وجميع جوارحه حتى عن سكونه وسكوته وأكله وشربه. فإذا عرف مجموع واجبات نفسه وصح عنده قدر ما أدى من الحق، كان ذلك القدر محسوباً له، فيثبته عليها ويكتبه على صحيفة قلبه.

قال الإمام الباقر (عليه السلام): لا يغرنك الناس من نفسك، فإن الأمر يصل إليك دونهم، ولا تقطع نهارك بكذا وكذا فإن معك من يحفظ عليك عملك فأحسن فإني لم أر شيئاً أحسن دركاً ولا أسرع طلباً من حسنة محدثة لذنب قديم.

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): إن رجلاً أتى النبي (صلّى الله عليه وآله) فقال له: يا رسول الله أوصني. فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله): فهل أنت مستوص إذا أنا أوصيتك؟ حتى قال له ذلك ثلاثاً, في كلها يقول له

الرجل: نعم يا رسول الله. فقال له رسول الله (صلّى الله عليه وآله): (فإني أوصيك إذا أنت هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك رشداً فامضه، وإن يك غيّاً فانته عنه.

والإمام الكاظم (عليه السلام) حثّ أصحابه على محاسبة أنفسهم والنظر في أعمالهم فإن كانت حسنة استزادوا منها، وإن كانت سيئة طلبوا من الله المغفرة والرضوان. قال (عليه السلام):

(ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسناً استزاد منه، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب إليه)295.

مراقبة النفس

ينبغي على العبد أن يراقب نفسه في جميع أعماله، ويلاحظها بالعين الخالصة لأنها إن تركت بلا مراقبة فسدت وأفسدت. ثم عليه أن يراقب الله في كل حركة وسكون، وذلك بأن يعلم بان الله مطلع عليه وعلى ضميره، خبير بسرائره، رقيب على أعماله، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب عنده مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك قال الله تعالى: (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)296.

وقال تعالى أيضاً: (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى)297.

وقال النبي الأكرم (صلّى الله عليه وآله): (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك).

ويروى أن زليخا لما خلت بيوسف قامت فغطّت وجه صنمها، فقال يوسف: ما لك تستحين من مراقبة جماد ولا استحي من مراقبة الملك الجبار؟!).

ولا ريب أن المراقبة تحصل من معرفة الله، والعلم بأنّه تعالى مطلع على الضمائر، عالم بما في السرائر، بمرأى منه وبمسمع، هؤلاء هم من الورعين أصحاب اليقين غلب اطلاع الله على ظواهرهم وبواطنهم، ولم يدهشهم ملاحظة الجمال والجلال، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال، متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال والمراقبة فيها، وغلب عليهم الحياة من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبيت، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في يوم القيامة. فإنّهم يرون الله عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

قال الفقهاء: إن العبد لا يخلو إما أن يكون في طاعة أو معصية أو مباح.

فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها من الآفات. ومراقبته في المعصية بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير ومراقبته في المباح بمراعاة الأدب، بأن يقعد مستقبل القبلة وينام على اليد اليمنى مستقبلاً إلى غير ذلك. فكل ذلك داخل في المراقبة. وبشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها، وبالصبر على البلاء فإن لكل واحد منها حدوداً لابدّ من مراعاتها بدوام المراقبة.

قال تعالى: (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)298.

وقال (صلّى الله عليه وآله): (رحم الله امرئً عرف حدّه فوقف عنده).

كيف تقاس الأعمال؟

الإسلام قد نظر إلى الدوافع الذاتية التي تدفع الإنسان إلى عمل الخير نظرة موضوعية أصيلة، وبنى الأعمال على أساس (النية) وقال: (الأعمال بالنيات).

لكل عمل يقوم به الإنسان جانبان، لكل منهما حساب مستقل على حدة فمن الممكن أن يكون عمله خيراً من جهة ولا قيمة له من جهة أخرى.

فهنا يجب أن ينظر إلى ما حمل فاعله عليه من الدوافع النفسية والروحية وحكمنا في مثل هذه الأعمال يستند إلى القيم الخاصة الاجتماعية والخارجية للعمل، ولا موضوعية لنية الفاعل من هذا المنظار. المهم النتيجة الإيجابية فلا يفرق لدينا أن يكون هدف المحسن من إحسانه الرياء والمنافع المادية، أو يكون له في علمه دافع قيم، وأن تكون هناك نية صافية نزيهة في هدف عمله. فالعمل الصالح في النظام الاجتماعي هو ما يكون نافعاً للمجتمع، ولا علاقة له بما فيه للفرد من تكامل معنوي، وأنه بادر إلى ذلك العمل بتأثر من أي دافع أو عامل؟

في شريعة الله لا ينظر إلى كمية العمل، بل إلى كيفية العمل وأثره النفسي والذاتي في شخص الفاعل، فهذا الذي يتقبله الله تعالى.

في هذا المجال الحساب يتبع ما بين الفعل والفاعل من الرابطة، وبأي نية أو هدف أقدم على ذلك العمل، فلو كان قد بادر إلى ذلك العمل الصالح بدافع الرياء فإن نفسه لم تتقرب بذلك إلى الله تعالى بل ابتعد وخاب ظنه، ولا يكفي لتلقي العمل الصالح لديه أن يكون مفيداً للمجتمع فحسب بل العمل الاجتماعي المفيد إنما يكون نافعاً بالنظر إلى التكامل المعنوي فيما إذا كانت الروح خارجة عن حصار الرياء والأهواء الشخصية إلى الصفاء في النيّة والخلوص إلى الله تعالى.

قال الله تعالى في كتابه العزيز: (وَمَا أُمِرُوا إِلاَ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ)299.

وعن الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله): (إنما الأعمال بالنيات).

فثبوت الإيمان بالله هي النية المعنوية، وعندئذٍ يتصف العمل بالقيمة الخالصة وسيكون صاحب هذا العمل مورد لطف الله وعنايته وحمايته. فالإنسان الذي لم تسطع أشعة الله على روحه هو خال من الإيمان والإخلاص، إنما يدفعه إلى القيام بالأعمال الميول النفسانية والشهرة الدنيوية الفانية، إنه بدأ عمله خلواً من روح الحقيقة وأنهاه ليظهر فضائله الإنسانية على الملأ بغية احترامه وتقديره.

هذا الهدف غير القيم يكون السبب الأساسي في رد عمله، ويصبح عمله لا قيمة له عند الله تعالى، ولا تعود منه عائدة سوى ذلك الهدف المحدود الذي كان يهدف إليه ليفيده في حياته الحاضرة.

وهذا ما نلاحظه اليوم عند اكثر المرشحين للنيابة في الانتخابات حيث يبدأ نشاطهم في إعمار المساجد ولم يدخلوها إلا وقت التدشين، وينفقون الأموال الطائلة على الموائد الشهية، والمظاهر الفارغة، والتبرعات الخاصة لذوي الحاجات. كل ذلك لإظهار كرمهم الزائف وافتخارهم أمام الناس لكسب رضاهم.

هؤلاء عطاؤهم مردود عند الله، لأنهم لم يكونوا مخلصين في نواياهم، ولم يعملوا لكسب رضا الله، بل همهم رضا الناس من أجل مصالحهم الخاصة. لكنهم لو عقلوا أكثر لأخلصوا في نواياهم وكسبوا رضا العباد، ورضى رب العباد. قال تعالى: (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...)300.

أما الذين يتمتعون بالثقة بأنفسهم ويعتمدون على أعمالهم فلا يشعرون بحاجة إلى الرياء لأنهم لا يعانون من أي مرض نفسي. وقد وصفهم أمير المؤمنين علي بن أي طالب (عليه السلام) فقال: (لسان المرائي جميل، وفي قلبه داء دخيل)301.

وفيه عنه (عليه السلام) قال: (الافتخار من صغير الأقدار). يقول عالم نفسي كبير:

(من الوسائل التي نتوسل بها لجلب انتباه الآخرين عند الفشل وخيبة الأمل وعدم التوفيق، هو الإطراء في الثناء على أنفسنا، نتصور الأعمال التي نحب لو كنا نعملها لو كنا نحصل عليها، وكأنها كانت وحصلت فننسبها إلى أنفسنا، أو نقنع من أنفسنا أن نتحدث دائماً عن الأفعال التي عملناها وأن نعظمها مهما كانت صغيرة وحقيرة بدلاً من الأعمال التي لم نعملها والموفقيات التي لم نحصل عليها).

هذه الفئة من الناس ينخدع أفرادها بجزافاتهم ويرضون عن أنفسهم مخدوعين بحيث تفوتهم أية فرصة للسعي والتوفيق.

ولو كان الثناء على النفس يريح صاحبه من خيبة عدم التوفيق في الأعمال وعدم اجتذاب الناس إلى نفسه، فيخدع بذلك المستمعين بصورة مؤقتة، فإن ذلك لن يعالج المرض الأصيل.

أما الذي يعمل أعمالاً صالحة ويحصل من جراء ذلك على موقع محترم في قلوب الآخرين فلا حاجة له إلى الثناء على نفسه، فهو بدل ذلك يسعى ويعمل، ويحصل كل يوم على اصدقاء مخلصين وتقدير خاص في مجتمعه.

ويقول عالم نفسي آخر: إن الثناء على النفس يولد الانزعاج لدى الآخرين، فهو من جانب قد يشتمل على شيء من الكذب والتزوير، ومن جانب آخر هو ينشأ من الجهل والحماقة. إن من يتحدث عن صفة خاصة في نفسه وبصورة مستمرة قد يكون فاقداً لها. (وفاقد الشيء لا يعطيه). واعلموا أن الذين يتحدثون عن نجاحاتهم ومظاهر نشاطاتهم، وحسن تدبيرهم يفقدون بلا ريب مثل هذه المزايا.

ولا ينبغي أن ننسى أن الكذب حبله قصير، ولا يدوم كثيراً حتى ترتفع الحجب والستائر عن وجه الحقيقة، وحينئذ يفقد المرء كل مكانته ووجاهته بين أفراد مجتمعه مهما حاول التستر. وفي ذلك قال أحد الشعراء:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة***وإن خالها تخفى عن الناس تعلم

هؤلاء أظهروا الحقيقة بوجه مخادع يخالف الحق وذلك بغية تحقيق أهداف خاصة ومصالح شخصية.

والنفاق هو أعلى درجات الكذب وأحقرها حيث يظهر المنافق غير ما يبطن فيلهج بلسان ذلق مخادع وقلبه يضمر العكس تماماً وهو ما سمي بذي الوجهين. من هنا سمي الرجل الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر منافقاً 302 فهو كذب عملي فعلي. ومن هذا النوع الذين يظهرون صداقتهم ويبطنون عداوتهم. وكل من يظهر بمظهر ينافي حقيقته هو منافق حقير مذموم، قلبه مريض. قال تعالى:

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)303.

القياس بالنفس

كل إنسان يقيس الآخرين على شاكلته، فإن كان سلوكه فاسداً فيقيس الآخرين على أساس مقاصده الفاسدة ونياته الملوثة وغير النزيهة. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عالم العلماء، وسيد البلغاء، وسيد الأدباء: (الرجل السوء لا يظن بأحد خيراً؛ لأنه لا يراه إلا بطبع نفسه)304.

وهذا ما نلاحظه في مجتمعنا اليوم وما يمكن أن يحصل في كل يوم لأن الحقائق العلمية موضوعية ومستمرة في كل العصور. يقول علماء النفس: (حينما تمتلئ الدنيا بعواطفنا وميولنا وأفكارنا، فمن المقطوع به أننا ننظر إلى كل شيء منها بنظرتنا الشخصية، وكأن أحاسيسنا تظل على رؤوس الكائنات. ونلاحظ ذلك في الطبيعة:

فالعواصف تصيب باليأس والقنوط، والنسيم الغض الطري يكسبنا الرضا والسكون. وهكذا نحن البشر نرى الطبيعة الجغرافية والبشرية من خلال نوافذ عواطفنا وأحاسيسنا.

فحسب أحاسيسنا من الممكن أن نرى الهر حيواناً محبوباً لطيفاً أو حيواناً مؤذياً معادياً. كما يمكن أن نرى الأسد حيواناً مأنوساً أو نراه حيواناً مفترساً ضاراً مرهوباً. ذلك أن العواطف والأحاسيس تغير الدنيا التي نعيش فيها بصورة كلية. ومن هنا كان التفاؤل والتشاؤم من الموضوع نفسه عند بعض الناس.

وإذا ما سألنا بعض القضاة والحقوقيين يقولون: قلما يتفق أن يشهد الشهود لحادثة بسيطة ساذجة شاهدوها من قريب، بشهادة واحدة تماماً، فقد تختلف العبارات والصورة من شخص لآخر.

كما نلاحظ ذلك في الأمور التي لا تثير فينا العاطفة نشاهد جيداً كيف تختلف أفكارنا ونظراتنا، فكيف بالأحرى بالحوادث العاطفية.

ولا ريب أن ذلك يعود إلى العقل الذي منه الإتزان والصحة والرأي السليم. قال الإمام الكاظم (عليه السلام) في وصيته لهشام: (يا هشام إن العاقل الذي لا يشغل الحلال شكره، ولا يغلب الحرام صبره. يا هشام من سلط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله: من أظلم نور تفكره بطور أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه.

هذا النمط من الناس ينقصهم ضعف في النفس وعدم الثقة بأنفهسم. والسبب في ذلك يعود إلى عدم الاتكال على الله، رب العالمين الذي تستمد منه وحده فهو صاحب القدرة الإلهية الأزلية.

إن المؤمن مع تمتعه بثقته بنفسه، ومع إفادته من كل الإمكانيات التي تحت تصرفه بصورة دقيقة وتامة، لا يحضر روحه بين العلل والعوامل المادية، ولا تتوقف إنسانيته على المادة، بل يرى طريق التعالي والتسامي إلى القمة مفتوحاً عليه، كما يرى عمله أبعد من حدود المادة، فهو يربط بين نشاطاته وفعالياته وأهداف الحياة العالية إن من يطمئن قلبه بالإيمان يكون اعتماده وثقته بالله تعالى الذي بيده سبحانه تدبير كل الأمور وحده لا شريك له. قال تعالى: (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)305.

إن اللجوء إلى غير الله لا ينتج عنه سوى الذلة والحقارة، وأنى لمخلوق عاجز لا ملجأ له إلا الله بل هو فقير في كل شيء إليه ولا يملك من أمره شيئاً، فكيف له أن يمتلك أمر غيره؟

وهل بعد هذا أفضل وألطف من أن يعيش الإنسان في كنف لطف الله وحمايته؟ فهو مالك كل شيء وبيده تدبير جميع الأمور.

إن الخضوع إمام الله في السراء والضراء، والاعتقاد الحازم والراسخ بسيادة القدرة المطلقة الإلهية فوق جميع القدرات والعوامل المادية يترك في نفس المؤمن آثاراً عجيبة من الطمأنينة بحيث لا يفتقد قيمته أمام أي حادث، ولا يضطرب ولا يقلق لأي شيء كبيراً كان أم صغيراً. إن الاتكال على الله عزّ وجلّ لن يؤدي إلى الضعف والوهن، بل هو ثقة واعتماد يوثق قوة الإرادة، ويقطع جذور أي وسوسة أو تردد من القلوب. وهل يزكو عمل الإنسان وهو شاغل قلبه عن أمر ربه؟

قال الإمام الكاظم (عليه السلام) مخاطباً هشام:

(يا هشام كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك، وأطعت هواك على غلبة عقلك، وقال لقمان (عليه السلام): (إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل...).

إن الكفاح الدائم والمستمر للمؤمنين الإلهيين ضد عوامل التخريب والانحراف في المجتمع، والأفكار المنحطة فيه، كانوا يستعينون بالمدد اللامرئي لتنفيذ برامجهم الإصلاحية وإرشاد العباد إلى نهج الرشاد، وحيث كانت لأرواحهم ارتباط غير منقطع بقدرة الله الأزلية، فإنهم كانوا يتابعون أهدافهم حتى المرحلة النهائية بكل صراحة وموضوعية.

لكن الثقة بالنفس بدون الاتكال على الله لا يمكن أن تنفذ روح الإنسان في الأحوال الحرجة والمنهكة لقوى القلق والاضطراب، لأن الشدائد والعوامل المعاكسة في الحياة تهزم روح الخالي من الاعتماد على الله، والذي لا تتجاوز بصيرته عن حدود الماديات؛ وهو بهذه الحالة لا يتمكن من أن يخطو أية خطوة في مدارج الكمال حتى لو كانت سهلة واضحة وربما يعيقه ألم بسيط عن تحقيق هدف كبير، إن كيفية روحية المسلمين الأوائل في صدر

الإسلام وبصورة خاصة الأئمة المعصومين (عليهم السلام) تثبت لنا صحة ما نرمي إليه، إذ كانوا أفضل وأكمل نموذج للاعتماد على الله والتوكل عليه.

فالذين تربّوا في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) الإسلامية الأولى النشطة المعطاء، لم تسيطر عليهم حالة عدم الثقة أبداً، وذلك بسب إرادتهم القوية وإيمانهم الأصيل، وهذه الإرادة الثابتة المطمئنة هي التي فتحت لهم طريق النجاح والتقدم والانتصار على الباطل لقد سلكوا طريق الحق وقالوا كلمة الحق ونشروا رسالة الحق ولم تأخذهم في الله لومة لائم حتى أحدثوا ذلك المجتمع الإسلامي الوحيد الذي لم نر نظيراً له في التاريخ.

قال الإمام الكاظم (عليه السلام) بعد أن أمر أصحابه بقول الحق وإظهاره، والتجنب عن الباطل: (إتق الله، وقل الحق وإن كان فيه هلاكك فإن فيه نجاتك، أي فلان اتق الله ودع الباطل وإن كان فيه نجاتك فإن فيه هلاكك).

على كل أحد أن يقيّم موقعه في الحياة، ويعرف أن ما اختاره من طريق هل هو إلى خير وسعادة أم إلى شقاء وتعاسة؟ وبالتعرف على الحاجات النفسية يستطيع أن يكافح ضد العوامل التي توجب اضطراب التوازن الروحي، وأن لا يدع تلك العوامل تجتمع وتتكاتف على ضرر الإنسان، فيقول الخير من أي موقع كان. قال الإمام الكاظم (عليه السلام) للفضل بن يونس:

(أبلغ خيراً وقل خيراً، ولا تكن إمّعة)306.

المسؤولية الفردية:

إن المسؤولية الفردية في الإسلام تشكل أساس التعاليم الإنسانية والتوصل إلى السعادة المعنوية في النظام الإسلامي يتوقف على عمل الشخص نفسه والتكاليف التي وضعها على عاتق الإنسان في جميع الشؤون الدينية والدنيوية يجب أن تؤدي بالعمل المباشر، وعلى هذا الأساس يترتب مبدأ الثواب والعقاب. والقرآن الكريم ينبه إلى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَ مَا سَعَى)307 و(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)308.

وقال تعالى أيضاً: (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)309.

وفي هذه الدنيا يستوفي الإنسان نتائج أعماله. جاء عن الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله) قال: (من عمل سوءاً يُجْزَ بِهِ في الدنيا)310.

وقال (صلّى الله عليه وآله): (من يرزع خيراً يحصد رغبة، ومن يزرع شراً يحصد ندامة)311.

وكتب الفيلسوف الأمريكي (امرسون) يقول: (إن العالم بمثابة جدول ضرب أو معادلة رياضية كيفما يعادلونها تعتدل وتتوازن ويكون جوابها واحداً دائماً، إننا أي طريقة نختارها لحل مسألة رياضية فإن إعداد النتائج ستكون واحدة لا محالة والطبيعة بسكوتها تفشي كل سر بطريقة متقنة، وتجازي كل جريمة، وتثبت على كل فضيلة. وكل عمل يستكمل نفسه من طريقين:

الأول: التفاعل في الطبيعة الواقعية لنفس الفعل والعمل.

والثاني: الطريقة العلنية الظاهرة. والكيفية العلنية هي التي تسمى الجزاء والعقاب. العقاب الذاتي يرى بالعين المجردة في الشيء نفسه، والعقاب الكيفي يرى ببصيرة الفهم.

هذه العقوبة الخاصة من الممكن أن تبدو بعد أعوام عديدة من وقوع الحادثة، ولكنها تستتبعها وتلازمها حتماً. إن الجريمة والجزاء أغصان شجرة واحدة، والجزاء ثمرة تنضح وتظهر فجأة من باطن زهرة اللذة التي سترتها وغطتها)312.

لذلك وجدنا الإمام الكاظم (عليه السلام) يوصي عموم أصحابه بتنظيم أوقاتهم، والعمل على تهذيب نفوسهم وتحمل مسؤولياتهم فقال (عليه السلام):

اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات:

ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش وساعة لمعاشرة الإخوان والثقات الذين يعرّفونكم عيوبكم، ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات، ولا تحدثوا أنفسكم بفقر ولا بطول عمر، فإنه من حدّث نفسه بالفقر بخل ومن حدثها بطول العمر حرص.

اجعلوا لأنفسكم حظاً من الدنيا باعطائها ما تشتهي من الحلال وما لا يثلم المروءة، وما لا سرف فيه، واستعينوا بذلك على أمور الدين، فإنّه روي: (ليس منا من ترك دنياه لدينه، أو ترك دينه لدنياه)313.

وقال (عليه السلام) في استغلال الوقت لصالح الفرد وحثه على تحمل المسؤولية في هذه الحياة الدنيا: (من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يوميه أشرهما فهو ملعون، ومن لم يعرف الزيادة على نفسه فهو في النقصان، ومن كان إلى النقصان أكثر فالموت خير له من الحياة)314.

عيوب النفس

إن لمختلف أنماط السلوك أثراً في الأشخاص لا يوصف إيجابياً أو سلبياً. ومن عيوب النفس الغرور: إن الغرور وحب التغلّب والارتفاع غالباً ما يمنع الإنسان من أن يدرك حدود نقائصه، ومن أن يقف على حدود قدراته وطاقاته.

قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (رضا العبد عن نفسه برهان سخافة عقله)315.

وإن الأمر الذي يمنع من نمو استقلالية شخصيته، ويسبب في توقف نموه النفسي، وجموده، هو عدم اطلاعه على ما في وجوده من نقائص ممّا يجعل الإنسان لا يهتم أبداً بسد تلك النقائص وترميمها.

قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الراخي عن نفسه مستور عنه عيبه، ولو عرف فضل غيره كفاه ما به من النقص والخسران)316.

عن علي بن سويد، قال: سألت أبا الحسن (عليه السلام) عن العجب الذي يفسد العمل، فقال: العجب درجات: منها أن يُزيّن للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب أنه يحسن صنعاً. ومنها أن يؤمن العبد بربه فيمُنَّ على الله عزّ وجلّ ولله المنّة عليه.317

وفي ذلك قال الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): (العجب يفسد العقل)318.

ونجد كثيراً من أولئك الذين يتلفون طاقاتهم الروحية من دون أن يفيدوا منها في تحسين وضعهم الشخصي والاجتماعي، ومن دون أن يكون لهم أدنى اطلاع عن القوى المخبوءة والطاقات العجيبة في نفوسهم، اللّهم إلا أن تتفق أرضية مساعدة لهم على إبراز استعداداتهم المثمرة، وكم من قدرات مفيدة تذهب هدراً على أثر عدم اطلاع أصحابها عن كيفية ومستوى اقتدارها وحسن استثمارها.

جاء في غرر الحكم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: (من طلب عيباً وجده).

وقال الإمام الكاظم (عليه السلام): (يا هشام إن العاقل اللبيب من ترك ما لا طاقة له به، وأكثر الصواب في خلاف الهوى، ومن طال أمله ساء عمله).

وقال الإمام الكاظم (عليه السلام) أيضاً: (من تعظم في نفسه لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض، ومن تكبّر على إخوانه واستطال عليهم فقد ضاد الله ومن ادعى ما ليس له فهو أغنى لغير رشده).

أما الذين يصابون بالعقد والآلام النفسية، أو يعانون كابوس اليأس والقنوط، هم في الواقع أناس غير مطلعين على استعداداتهم وإمكاناتهم وطاقاتهم الكامنة فيهم، كي يسدوا عوزهم بالإفادة ممّا فيهم من قوى وطاقات، ويستبدلوا ما فيهم من نقص بالكمال، ولذا فمن الضروري لهؤلاء السعي الحثيث لاكتشاف أنفسهم. وقد أكّد العلماء على معرفة النفس ضمن الأمور التي ترتبط منها بالإنسان كذلك في العهد الحاضر يعد تعلم أصول معرفة النفس من أهم المواضيع في علم النفس الطبي، هذا والعصر الحاضر عصر الدراسات العميقة بشأن الطبيعة الإنسانية وعصر علم النفسي بالمعنى الفني والاختصاصي العام.

معرفة النفس

إن مشكلة معرفة النفس والجهل بحاجاتها الروحية حقيقة لا يمكن إنكارها، في حين أن الجهال منا يظنون أنهم يعرفونها أفضل من الجميع، وأنهم مطلعون على علل دوافعها وأفكارها وسلوكها. وبالتالي هم مطلعون على باطنهم تماماً.

ومشكلة معرفة النفس هي العلة لكثير من الأخطاء وسوء الفهم وإصدار الأحكام الظالمة، ممّا يستدل رؤية الإنسان لأساس هذه المشاكل في الجهل وذلك بالإمكانات وكميتها وكيفيتها، التي أودعتها يد الخلقة في وجود إنسان. ولا ننسى الدور الذي تؤديه الوراثة والتربية والمحيط الاجتماعي والبيئة في نظام الحياة النفسية، إضافة إلى سيطرة الأهواء والنقائص على الإنسان ولنا في الحكام العباسيين دليل واضح على ذلك وفي العصور القديمة كان الفلاسفة يؤكدون على معرفة النفس ضمن الأمور التي ترتبط بالإنسان، كما نلاحظ في وقتنا الحاضر أن تعلم أصول معرفة النفس يعد من أهم المواضيع في علم الطب النفسي. في هذا العصر ظهرت سلسلة من البحوث القيمة بشأن علم النفس بالمعنى الاختصاصي العام.

ولهذا فإن الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله) ينبه الناس إلى أن يجتنبوا اتباع الهوى فيقول: (إياكم والهوى، فإن الهوى يعمي ويصم)319.

وعن الإمام أبي جفعر (عليه السلام) قال: (لا يغرنك الناس من نفسك فإن الأمر يصل إليك دونهم، ولا تقطع نهارك بكذا وكذا فإن معك من يحفظ عليك عملك، وأحسن فإني لم أر شيئاً أحسن دركاً ولا أسرع طلباً من حسنة محدثة لذنب قديم)320.

وروى الكليني أيضاً عن أبي الحسن موسى الكاظم (عليه السلام) قال: (لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يصير كثيراً، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف وسارعوا إلى طاعة الله وأصدقوا الحديث وأدوا الأمانة فإنما ذلك لكم ولا تدخلوا فيما لا يحل لكم، فإنما ذلك عليكم)321.

وقال (عليه السلام) أيضاً: (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه)322.

الحب الخالص والود الخالد

وهل أروع وأعظم من هذا الرباط الوثيق الذي يجعل المسلمين كالبنيان المرصوص! قال تعالى في كتابه العزيز: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أَخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)323 وقد عرض سبحانه لدفع البشر إلى هذه المحبة الصافية النزيهة بواعث وأشواقاً، ولذلك أوجد في ضمير الإنسان حباً للذات متوازناً ومتناغماً، ويبلغ في تعاليمه إلى قاعدة ينطلق في ظلها من قيود الغرور وعبادة الذات بحيث لا يظهر فيه اتجاه مفرط في حبه لذاته.

وهذا على عكس ما وجدنا عند هارون والمنصور والهادي... إن الكبرياء يختص بذات الله وحده لا شريك له، الله الذي لا يتطرق إليه الفقر والحاجة، بل تحتاج إليه جميع الموجودات من جميع الجهات:

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)324.

والإصابة بالغرور وحب الظهور والتعالي على الناس هو انحراف أكيد عن البرامج الإلهية. والقرآن الكريم يلفت نظر المغرور إلى عجزه واحتقاره وبذلك يهبط بروح القوة عنده من قمة الخيالات الواهية إلى حضيض الهاوية فيقول تعالى:

(وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً)325 إن من لا ينصرف عن النظر إلى المبدأ الأعلى للوجود لا تسيطر عليه في مواقف الرفاهية والنعمة حالة الغرور بل يبقى على ما هو عليه، إذ أن الإسلام يدعو إلى التواضع والاعتدال، ولا يجب الكبر والاستعلاء لذلك دعا الله جل وعلا رسوله الكريم ليتواضع ويلين جانبه مع الناس قال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)326.

وقال (صلّى الله عليه وآله): (إن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فاعفوا يعزكم الله وإن المتواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا إنماءً، فتصدقوا يزدكم الله).

وقال الإمام الكاظم (عليه السلام): (إياك والكبر فإنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر، الكبر رداء الله فمن نازعه رداءه أكبه الله في النار على وجهه).

وسبب وجود الغرور والقيم الكاذبة المسيطرة على الروح والمدركات هو عدم وجود القيم الإلهية في القلوب المؤمنة. ذلك أن المؤمن يتجنب كل خضوع مذل تنزل به شخصيته في مجتمعه، لأنه أمام ذات الكبرياء المقدسة التي تعطيه الدفع الكبير والقوة الهائلة في سائر حالاته. والله تعالى يوصي أهل الإيمان بهذه المزية الإيمانية الخاصة في جميع المواقع وكل المراحل. قال تعالى: (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)327.

والإمام الكاظم (عليه السلام) قال: (إن قلوب المؤمنين مطوية).

روى الكليني عن علي بن جعفر عن أبي الحسن موسى (عليه السلام) قال: (إن الله خلق قلوب المؤمنين مطوية مبهمة على الإيمان فإذا أراد استنارة ما فيها نضحها بالحكمة، وزرعها بالعلم، وزارعها والقيم عليها رب العالمين)328.

وهكذا قال قلب الإمام الكاظم (عليه السلام) مزروعاً بالحكمة والعلم والقيم من رب العالمين.

في سبيل الشريعة الإسلامية

مناظرات الإمام الكاظم

للإمام الكاظم (عليه السلام) مناظرات واحتجاجات هامة وبليغة مع خصومه المناوئين له، كما جرت له مناظرات أخرى مع علماء النصارى واليهود. وقد برع فيها جميعها وأفلج الجميع بما أقامه من الأدلة الدامغة على صحة ما يقول: وبطلان ما ذهبوا إليه. وقد اعترفوا كلهم بالعجز والفشل معجبين بغزارة علم الإمام وتفوقه عليهم.

1- مع هارون الرشيد

دخل إليه وقد عمد على القبض عليه، لأشياء كذبت عليه عنده، فأعطاه طوماراً طويلاً فيه مذاهب وشنعة نسبها إلى شيعته فقرأه (عليه السلام) ثم قال له: يا أمير المؤمنين نحن أهل بيت منينا بالتقول علينا، وربنا غفور ستور، أبي أن يكشف أسرار عباده إلا في وقت محاسبته: (يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)329.

ثم قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن علي، عن النبي صلوات الله عليهم:

الرحم إذا مست اضطربت ثم سكنت، فإن رأى أمير المؤمنين أن تمس رحمي رحمه ويصافحني فعل. فتحول عند ذلك عن سريره ومد يمينه إلى موسى (عليه السلام) فأخذ بيمينه ثم ضمه إلى صدره، فاعتنقه وأقعده عن يمينه وقال: أشهد أنك صادق وجدك صادق ورسول الله (صلّى الله عليه وآله) صادق ولقد دخلت وأنا أشد الناس حنقاً330 وغيظاً لما رقي إليّ فيك فلما تكلمت بما تكلمت وصافحتني سرّي عني وتحول غضبي عليك رضى.

وسكت ساعة ثم قال له: أريد أن أسألك عن العباس وعلي بما صار عليّ أولى بميراث رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من العباس، والعباس عم رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وصنو أبيه؟

فقال له الإمام (عليه السلام): أعفني. قال: والله لا أعفيتك، فأجبني.

قال: فإن لم تعفني فآمني. قال: آمنتك، قال موسى بن جعفر (عليه السلام): إن النبي (صلّى الله عليه وآله) لم يورث من قدر على الهجرة فلم يهاجر، إن أباك العباس آمن ولم يهاجر، وإن علياً آمن وهاجر، وقال الله: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلاَيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)331 فتغيّر لون هارون.

ثم تابع الرشيد فقال: ما لكم لا تنسبون إلى عليّ وهو أبوكم وتنسبون إلى رسول الله وهو جدكم؟ فقال الكاظم (عليه السلام):

إن الله نسب المسيح عيسى بن مريم (عليه السلام) إلى خليله إبراهيم (عليه السلام) بأمه مريم البكر البتول التي لم يمسها بشر في قوله تعالى: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)332 (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ) 333. فنسبه لأمه وحدها إلى خليله إبراهيم (عليه السلام). كما نسب داود وسليمان وأيوب وموسى وهارون (عليه السلام) بآبائهم وأمهاتهم، فضيلة لعيسى (عليه السلام) ومنزلة رفيعة بأمه وحدها. وذلك قوله في قصة مريم (عليها السلام): (إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)334.

بالمسيح من غير بشر. وكذلك اصطفى ربنا فاطمة (عليها السلام) وطهرها وفضلها على نساء العالمين بالحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة فقال له هارون ـ وقد اضطرب وساءه ما سمع ـ:

من أين قلتم الإنسان يدخل الفساد من قبل النساء ومن قبل الآباء لحال الخمس الذي لم يدفع إلى أهله، فقال الإمام الكاظم (عليه السلام): هذه مسألة ما سئل عنها أحد من السلاطين غيرك، ولا تيم ولا عدي ولا بنو أمية ولا سئل عنها أحد من آبائي فلا تكشفني عنها. قال الرشيد: فإن بلغني عنك كشف هذا رجعت عما آمنتك. فقال موسى (عليه السلام): لك ذلك. قال (عليه السلام): فإن الزندقة قد كثرت في الإسلام وهؤلاء الزنادقة الذين يرفعون إلينا في الأخبار، هم المنسوبون إليكم.

فقال هارون: فما الزنديق عندكم أهل البيت؟ فقال (عليه السلام): الزنديق هو الراد على الله وعلى رسوله وهم الذين يحادّون الله ورسوله. قال تعالى: (لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ)335.

وهم الملحدون، عدلوا عن التوحيد إلى الإلحاد.

فقال هارون: أخبرني عن أول من ألحد وتزندق؟ فقال (عليه السلام): أول من ألحد وتزندق في السماء إبليس اللعين، فاستكبر وافتخر على صفي الله ونجيبه آدم (عليه السلام) فقال اللعين: (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)336. فعتا عن أمر ربه وألحد فتوارث الإلحاد ذريته إلى أن تقوم الساعة فقال هارون: ولإبليس ذرية؟ فقال (عليه السلام):

نعم ألم تسمع إلى قول الله عزّ وجلّ: (إِلاَ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً * مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً) فهل عرف الرشيد من أي فريق هو؟!

ثم قال له الرشيد: بحق آبائك لما اختصرت كلمات جامعة لما تجاريناه فقال (عليه السلام): نعم. وأوتي بدواة وقرطاس فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، جميع أمور الأديان أربعة:

ـ أمر لا اختلاف فيه وهو إجماع الأمة على الضرورة التي يضطرون إليها، الأخبار المجمع عليها وهي الغاية المعروض عليها كل شبهة والمستنبط منها كل حادثة وهو إجماع الأمة.

ـ وأمر يحتمل الشك والإنكار، فسبيله استيضاح أهله لمنتحليه بحجة من كتاب الله مجمع على تأويلها، وسنّة مجمع عليها لا اختلاف فيها أو قياس تعرف العقول عدله ولا يسع خاصة الأمة وعامتها الشك فيه والإنكار له. وهذان الأمران من أمر التوحيد فما دونه وأرش الخدش فما فوقه. فهذا المعروض الذي يعرض عليه أمر الدين فما ثبت لك برهانه اصطفيته، وما غمض عليك صوابه نفيته. فمن أورد واحدة من هذه الثلاث فهي الحجة البالغة التي بيّنها الله في قوله لنبيه (صلّى الله عليه وآله):

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)337.

يبلغ الحجّة البالغة الجاهل فيعلمها بجهله كما يعلمها العالم بعلمه، لأن الله عدل لا يجور، يحتج على خلقه بما يعملون، ويدعوهم إلى ما يعرفون لا إلى ما يجهلون وينكرون.

فأجازه الرشيد وأحسن لقاءه. وانصرف الإمام (عليه السلام) وقد دلّ خصمه ـ المسمى بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين ـ على أمور الدين كما أوضح له منزلة أهل البيت (عليهم السلام) وصحة أقوالهم ودعم ما ذهب إليه بأوثق الأدلة والبراهين ولا غرو فهذا الغصن الطيّب هو من تلك الشجرة الطيّبة التي غرسها الرسول (صلّى الله عليه وآله) وتعهّد سقايتها ورعايتها.

2ـ مع الفضل بن الربيع

زار هارون الرشيد قبر النبي (صلّى الله عليه وآله) فاجتمع به الإمام (عليه السلام) وبعد انتهاء المقابلة، خرج (عليه السلام) فاجتاز على الأمين ابن الرشيد، فالتفت الأمين إلى الفضل بن الربيع قائلاً له: عاتب هذا، فقام الفضل إلى الإمام فقال له: كيف لقيت أمير المؤمنين على هذه الدابة التي إن طُلبت عليها لم تسبق وإن طَلبت عليها تلحق؟

ـ قال الإمام (عليه السلام): لست أحتاج أن أطلب، ولا أن أُطلب، ولكنها دابة تنحط عن خيلاء الخيل، وترتفع عن ذلة البعير، وخير الأمور أوسطها)338 فتركه الإمام (عليه السلام) وانصرف وبدا على الفضل الارتباك والعجز.

3- مع أبي يوسف

أمر هارون الرشيد أبا يوسف339 أن يسأل الإمام (عليه السلام) بحضرته لعله أين يبدي عليه العجز فيتخذ من ذلك وسيلة للحطّ من كرامته، ولما اجتمع (عليه السلام) بهم وجه إليه أبو يوسف السؤال التالي:

- ما تقول في التظليل للمحرم؟ قال الإمام: لا يصح.

- فيضرب الخباء في الأرض ويدخل البيت؟ قال الإمام: نعم.

- فما الفرق بين الموضعين؟

- ما تقول في الطامث أتقضي الصلاة؟ قال أبو يوسف: لا.

- أتقضي الصوم؟ نعم. ولمَ؟ هكذا جاء هذا.

فسكت أبو يوسف ولم يطق جواباً وبدا عليه الخجل والعجز فقال هارون:

- ما أراك صنعت شيئاً.

- رماني بحجر دامغ.340

وتركهما الإمام (عليه السلام) وانصرف بعد أن خيّم عليهما الحزن والشقاء. ولا عجب فالإمام (عليه السلام) هو ابن الإمام جعفر الصادق الذي أسس الجامعة الإسلامية ووضع مناهجها العلمية الأصيلة، وهو سرّ أبيه (عليه السلام).

4- مع أبي حنيفة

دخل أبو حنيفة على الإمام الصادق (عليه السلام) فقال له:

رأيت ابنك موسى يصلي والناس يمرون بين يديه، فلم ينههم عن ذلك؟

فأمر أبو عبد الله (عليه السلام) بإحضار ولده فلما مثل بين يديه قال له:

(يا بني، إن أبا حنيفة يذكر إنك كنت تصلي والناس يمرون بين يديك؟)

فقال (عليه السلام): (نعم، يا أبتِ وإن الذي كنت أصلي له أقرب إليّ منهم، يقول الله عزّ وجلّ: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)341.

عندها فرح الإمام الصادق (عليه السلام) وسرّ سروراً بالغاً لما أدلى به ولده من المنطق الرائع، فقام إليه وضمه إلى صدره وقال مبتهجاً:

(بأبي أنت وأمي يا مودع الأسرار)342.

5- مع علماء اليهود

قصد وفد من علماء اليهود الإمام الصادق (عليه السلام) ليحاججوه في الإسلام فلمّا مثلوا بين يديه انبروا إليه يطلبون منه الحجة والدليل على نبوة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قائلين:

- أي معجز يدل على نبوة محمد (صلّى الله عليه وآله)؟ أجابهم (عليه السلام):

كتابه المهمين، الباهر لعقول الناظرين، مع ما أعطي من الحلال والحرام وغيرهما ممّا لو ذكرناه لطال شرحه.

- كيف لنا أن نعلم هذا كما وصفت؟

فانطلق الإمام الكاظم (عليه السلام) وكان آنذاك صبياً قائلاً لهم:

- وكيف لنا بأن نعلم ما تذكرون من آيات الله لموسى على ما تصفون؟

ـ علمنا ذلك بنقل الصادقين.
ـ فاعلموا صدق ما أنبأتكم به بخبر طفل لقنه الله تعالى من غير تعليم ولا معرفة عن الناقلين.
فبهروا وآمنوا بقول الإمام الكاظم الصبي (عليه السلام)، الذي هو المعجز بحق، وهتفوا معلنين إسلامهم قائلين: نشهد أن لا اله إلا الله وإن محمداً رسول الله، وإنكم الأئمة الهادون والحجج من عند الله على خلقه. ولما أدلى الإمام (عليه السلام) بهذه الحجة وأسلم القوم على يده، وثب إليه والده أبو عبد الله فقبّل ما بين عينيه. وقال له: أنت القائم من بعدي ثم أمره بكسوة لهم وأوصلهم فانصرفوا وهم شاكرون343.

6ـ مع علماء النصارى
جاء قطب من أقطاب النصارى ومن علمائها النابهين يدعى (بريهة) كان يطلب الحق ويبغي الهداية. اتصل بجميع الفرق الإسلامية وأخذ يحاججهم فلم يقتنع ولم يصل إلى الهدف الذي يريده، حتى وصفت له الشيعة ووصف له هشام بن الحكم، فقصده ومعه نخبة كبيرة من علماء النصارى، فلما استقر به المجلس سأل بريهة هشام بن الحكم عن أهم المسائل الكلامية والعقائدية فأجابه عنها هشام ثم ارتحلوا جميعاً إلى التشرف بمقابلة الإمام الصادق (عليه السلام) وقبل الالتقاء به اجتمعوا بالإمام الكاظم فقصّ عليه هشام مناظراته وحديثه مع العالم النصراني (بريهة). فالتفت (عليه السلام) إلى بريهة قائلاً له:
ـ يا بريهة كيف علمك بكتابك؟ قال: أنا به عالم.
ـ كيف ثقتك بتأويله؟ قال: ما أوثقني بعلمي به!!
فأخذ (عليه السلام) يقرأ عليه الإنجيل ويرتّل عليه فصوله فلما سمع ذلك بريهة آمن بأن دين الإسلام حق وإن الإمام من شجرة النبوة فانبرى إليه قائلاً: إيّاك كنت أطلب منذ خمسين سنة، أو مثلك!!
ثم إنه أسلم وأسلمت معه زوجته وقصدوا جميعاً والده الإمام الصادق (عليه السلام) فحكى له هشام الحديث وإسلام بريهة على يد ولده الكاظم فسرّ (عليه السلام) بذلك والتفت قائلاً له: (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)344.
وانبرى بريهة إلى الإمام الصادق (عليه السلام) قائلاً:
ـ جعلت فداك، أنى لكم التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء؟!!
ـ قال: هي عندنا وراثة من عندهم نقرؤها كما قرأوها، ونقولها كما قالوها: إن الله لا يجعل حجة في أرضه يسأل عن شيء فيقول: لا أدري.
وبعدها لزم بريهة الإمام الصادق (عليه السلام) وصار من أخلص أصحابه، ولما انتقل الإمام إلى دار الخلود اتصل بالإمام الكاظم (عليه السلام) حتى توفي في عهده345 ولا عجب فالإمام المعصوم هو الحجة.
قال أبو الحسن (عليه السلام): (إن الأرض لا تخلو من حجة وأنا والله ذلك الحجة)346.

7ـ مع راهب نصراني
كان في الشام راهب معروف تقدسه النصارى وتعظمه، وتسمع منه، وكان يخرج لهم في كل يوم يوماً يعظهم. التقى به الإمام في ذلك اليوم الذي يعظ به وقد طافت به الرهبان وعلية القوم، فلما استقر المجلس بالإمام التفت إليه الراهب قائلاً:
ـ يا هذا، أنت غريب؟ قال (عليه السلام): نعم.

ـ منّا أو علينا؟ قال (عليه السلام): لست منكم.

ـ أنت من الأمة المرحومة؟ قال (عليه السلام): نعم.

ـ أمن علمائها أمن جهالها؟ قال (عليه السلام): لست من جهالها.

فاضطرب الراهب، وتقدم إلى الإمام يسأله عن أعقد المسائل عنده قائلاً: كيف طوبى أصلها في دار عيسى عندنا، وعندكم في دار محمد (صلّى الله عليه وآله) وأغصانها في كل دار؟

قال (عليه السلام): إنها كالشمس يصل ضوؤها إلى كل مكان وموضع وهي في السماء.

ـ قال الراهب: إن الجنة كيف لا ينفذ طعامها وإن أكلوا منه، وكيف لا ينقص شيء منه؟

ـ قال الإمام (عليه السلام) أنه كالسراج في الدنيا ولا ينقص منه شيء.

ـ قال الراهب: إن في الجنة ظلاً ممدوداً، ما هو؟

ـ قال الإمام (عليه السلام): الوقت الذي قبل طلوع الشمس، هو الظل الممدود، ثم تلا قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً)347.

ـ قال الراهب: إن أهل الجنة يأكلون ويشربون كيف لا يكون لهم غائط ولا بول؟

ـ قال الإمام (عليه السلام): إنهم كالجنين في بطن أمه.

ـ قال الراهب: إن لأهل الجنة خدماً يأتونهم بما أرادوا بلا أمر؟

ـ قال الإمام (عليه السلام): إن الإنسان إذا احتاج إلى شيء عرفت أعضاؤه ذلك فتعرفه الخدم فيحققون مراده من غير أمر.

ـ قال الراهب: مفاتيح الجنة من ذهب أو فضة؟

ـ قال الإمام (عليه السلام): مفاتيح الجنة قول العبد: لا اله إلا الله.

ـ قال الراهب: صدقت. ثم أسلم هو وقومه.348

8ـ مع نفيع (وهو رجل من الأنصار)

قدم مع الرشيد رجل من الأنصار يقال له (نفيع) وكان عارفاً، فحضر يوماً باب الرشيد وتبعه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وحضر موسى بن جعفر (عليه السلام) على حمار له، فتلقاه الحاجب بالإكرام، وأعظمه من كان هناك، وعجل له الإذن.

فقال نفيع لعبد العزيز: من هذا الشيخ؟

فقال له: أو ما تعرفه؟ هذا شيخ آل أبي طالب، هذا موسى بن جعفر (عليهما السلام).

فقال نفيع: ما رأيت أعجب من هؤلاء القوم يفعلون هذا برجل لو يقدر على زوالهم عن السرير لفعل، أما إن خرج لأسوءنّه.

فقال له عبد العزيز: لا تفعل، فإن هؤلاء أهل بيت قلما تعرض لهم أحد بخطاب إلا وسموه في الجواب وسمة يبقى عارها أبد الدهر.

وخرج الإمام الكاظم (عليه السلام) فقال إليه نفيع وأخذ بلجام حماره ثم قال له: من أنت؟ قال (عليه السلام): يا هذا إن كنت تريد النسب فأنا ابن محمد حبيب الله بن إسماعيل ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله.

وإن كنت تريد البلد، فهو الذي فرض الله عزّ وجلّ عليك وعلى المسلمين إن كنت منهم، الحج إليه، وإن كنت تريد المفاخرة، فوالله ما رضي مشركو قومي مسلمي قومك أكفا لهم حتى قالوا: يا محمد اخرج لنا أكفاءنا من قريش.
خل عن الحمار.
فخلى عنه ويده ترجف وانصرف بخزي. فقال له عبد العزيز: ألم أقل لك؟349

9- مع المهدي في الحج

حج المهدي، ولما صار في (فتق العبادي) ضجّ الناس من العطش، فأمر أن يحفر بئراً، ولما بلغوا قريباً من القرار، هبّت عليهم ريح من البئر فوقعت الدلاء ومنعت العمل، فخرجت الفعلة خوفاً على أنفسهم. فأعطى علي بن يقطين لرجلين عطاءاً كثيراً ليحفرا، فنزلا فأبطئا، ثم خرجا مرعوبين قد ذهبت ألوانهما فسألهما عن الخبر. فقالا: إنا رأينا آثاراً وأثاثاً، ورأينا رجالاً ونساءً، فكلما أومأنا إلى شيء منهم صار هباء، فصار المهدي يسأل عن ذلك ولا يعلمون.
فقال الإمام الكاظم (عليه السلام): هؤلاء أصحاب الأحقاف، غضب الله عليهم فساخت بهم ديارهم.350

10- المهدي العبّاسي

قال علي بن يقطين: سأل المهدي أبا الحسن (عليه السلام) عن الخمر، هل هي محرمة في كتاب الله عزّ وجلّ، فإن الناس إنما يعرفون النهي عنها ولا يعرفون التحريم؟ فقال له أبو الحسن:
بل هي محرمة في كتاب الله عزّ وجلّ يا أمير المؤمنين. قال المهدي:
في أي موضع هي محرمة في كتاب الله عزّ وجلّ يا أبا الحسن؟
فقال (عليه السلام): قول الله عزّ وجلّ: (إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)351.
فأما قوله (مَا ظَهَرَ مِنْهَا) يعني الزنا المعلن، ونصب الرايات التي كانت ترفعها الفواحش في الجاهلية.
وأما قوله عزّ وجلّ: (وَمَا بَطَنَ) يعني ما نكح الآباء، لأن الناس كانوا قبل أن يبعث النبي (صلّى الله عليه وآله) إذا كان للرجل زوجة ومات عنها تزوجها ابنه الأكبر من بعده إذا لم تكن أمه، فحرّم الله عزّ وجلّ ذلك.
وأما (الإثم) فإنها الخمرة بعينها، وقد قال الله تعالى في موضع آخر:
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)352.
فأما الإثم في كتاب الله فهو الخمر والميسر، فإثمهما كبير كما قال عزّ وجل.
فقال المهدي: يا علي بن يقطين هذه والله فتوى هاشمية.
قال: فقلت له: صدقت والله يا أمير المؤمنين، الحمد لله الذي لم يخرج هذا العلم منكم أهل البيت.
قال: فوالله ما صبر المهدي أن قال لي: صدقت يا رافضي.353

11- مع أبي أحمد الخراساني

سأله أبو أحمد الخراساني: الكفر أقدم أم الشرك؟
فقال (عليه السلام) ما لك ولهذا، ما عهدي بك تكلّم الناس؟
قال: أمرني هشام بن الحكم أن أسألك.

فقال (عليه السلام): قل له الكفر أقدم، أول من كفر إبليس (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)354 ولا يخفى أن الكفر شيء واحد، والشرك يثبت واحداً ويشرك معه غيره.355

12- مع عبد الغفار

جاءه رجل يقال له عبد الغفار فسأله عن قوله تعالى:

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)356.

قال أرى هنا خروجاً من حجب وتدلياً إلى الأرض، وأرى محمداً رأى ربه بقلبه ونسب إلى بصره فكيف هذا؟

فقال أبو الحسن موسى بن جعفر (عليهما السلام): دنا فتدلى فإنه لم يزل عن موضع ولم يتدلّ ببدن. فقال عبد الغفار: أصفه بما وصف به نفسه حيث قال: دنا فتدلى، فلما يتدلى عن مجلسه إلا وقد زال عنه ولولا ذلك لم يصف بذلك نفسه.

فقال الإمام (عليه السلام): إن هذه لغة في قريش إذا أراد رجل منهم أن يقول قد سمعت، يقول: قد تدليت وإنما التدلي هو الفهم.

- وسئل (عليه السلام) عن رجل قال:

والله لأتصدقن بمال كثير فما يتصدق؟

فقال (عليه السلام): إن كان الذي حلف من أرباب شياه، فليتصدق بأربع وثمانين شاة، وإن كان من أصحاب النعم، فليتصدق بأربع وثمانين بعيراً، وإن كان من أرباب الدراهم، فليتصدق بأربع وثمانين درهماً والدليل عليه قوله تعالى: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ)357. فعدد مواطن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قبل نزول تلك الآية فكانت أربعة وثمانين موطناً.358

- سئل (عليه السلام) عن رجل نبش قبر ميت، وقطع رأس الميت، وأخذ الكفن.

فقال (عليه السلام): يقطع يد السارق لأخذ الكفن من وراء الحرز.

ويلزم مائة دينار لقطع رأس الميت، لأنا جعلناه بمنزلة الجنين في بطن أمه قبل أن ينفخ فيه الروح.359

13- مع المهدي العباسي أيضاً

أمر المهدي بتوسعة المسجد الحرام مع الجامع النبوي، فسأل فقهاء العصر عن جواز إجبارهم على ذلك، فأشار عليه علي بن يقطين أن يرفع استفتاءً في المسألة إلى الإمام الكاظم (عليه السلام) فاستصوب رأيه فردّ الإمام على سؤاله وكتب له: بعد البسملة: إن كانت الكعبة هي النازلة بالناس، فالناس أولى ببنائها وإن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها.

ولما انتهى الجواب إلى المهدي أمر بهدم الدور وأضافها إلى ساحة المسجدين ففزع أصحابها إلى الإمام (عليه السلام) والتمسوا منه أن يكتب لهم رسالة إلى المهدي ليعوضهم عن ثمن دورهم، فأجابهم وكتب إلى المهدي رسالة في ذلك فلما وصلت إليه أوصلهم وأرضاهم.360

ولم يكن ذلك من الاستملاك الذي يعبر عنه في الوقت الحاضر بالاستملاك للمصلحة العامة كما فهمه بعض المعاصرين بل إن هذا حكم شرعي يتبع أدلته الخاصة التي نصت على أن للجامع فناءً وإن من نزل به لا حرمة لما يقيمه فيه من بناء.

وعن داود بن قبيصة: قال: سمعت الرضا (عليه السلام) يقول: سئل أبي (عليه السلام): هل منع الله ما أمر به، وهل نهى عما أراد، وهل أعان على ما لم يرد؟

فقال (عليه السلام): أما ما سألت: هل منع الله عما أمر به؟ فلا يجوز ذلك، ولو جاز لكان قد منع إبليس عن السجود لآدم، ولو منع إبليس لعذره ولم يلعنه.

وأما ما سألت هل نهى عما أراد؟ فلا يجوز ذلك، ولو جاز لكان حيث نهى آدم عن أكل الشجرة أراد منه أكلها، ولو أراد منه أكلها لما نادى صبيان الكتاتيب: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) 361 والله تعالى لا يجوز عليه أن يأمر بشيء ويريد غيره.

وأما ما سالت عنه من قولك: هل أعان على ما لم يرد؟

ولا يجوز ذلك، وجلّ الله تعالى عن أن يعين على قتل الأنبياء وتكذيبهم وقتل الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) والفضلاء من ولده، وكيف يعين على ما لم يرد؟ وقد أعد جهنم لمخالفيه، ولعنهم على تكذيبهم لطاعته، وارتكابهم لمخالفته، ولو جاز أن يعين على ما لم يرد لكان أعان فرعون على كفره وادعائه أنه رب العالمين، أفترى أراد الله من فرعون أن يدّعي الربوبية؟ يستتاب هذا القول فإن تاب من كذبه على الله وإلا ضربت عنقه.362

درر من حكمه الخالدة

كان هدف أهل البيت من تعاليمهم النافعة، وحكمهم العالية، وأحاديثهم التوجيهية دعوة الأمة نحو الخير والصلاح، معتمدين السبل القويمة لنشر الإسلام، وإعلاء كلمة الله عزّ وجلّ. ولم تقتصر تعاليمهم على إلقاء الخطب والوصايا، بل كانوا يفيضون على من حولهم من توجيهاتهم القيمة جوامع الكلم ذات معان كبيرة في شتى نواحي الأخلاق والآداب والمواعظ الاجتماعية الثمينة. ولو قمنا بعملية إحصاء لكل إمام منهم (عليه السلام) لحصلنا على كتاب ضخم، وأثر نفيس في دنيا الأخلاق والمواعظ.

وقد فضلنا نموذجاً مختصراً عن بعض ما أثر عن الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) من الدرر الحكيمة الخالدة مدرجة حسب الأبجدية علّنا نفي بالهدف المطلوب.

(أ)

قال (عليه السلام) عند قبر حضره: إن هذا شيئاً آخره لحقيق أن يزهد في أوله، وإن شيئاً هذا أوله لحقيق أن يخاف آخره.

ـ اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان الثقات الذين يعرفونكم عيوبكم ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات.

ـ إياك أن تمنع في طاعة الله، فتنفق مثليه في معصية الله.

ـ اشتدت مؤونة الدنيا والدين، فأما مؤونة الدنيا فإنّك لا تمد يدك إلى شيء منها إلا وجدت فاجراً قد سبقك إليه، وأما مؤونة الآخرة فإنّك لا تجد أعواناً يعينوك عليه.

ـ أولى العلم بك ما لا يصلح لك العلم إلا به، وأوجب العمل عليك ما أنت مسؤول عن العمل به، وألزم العلم لك ما دلّك على صلاح قلبك، وأظهر لك فساده، وأحدّ العلم عاقبة ما زاد في علمك العاجل، فلا تشغلن بعلم ما لا يضرك جهله، ولا تغفلن عن علم ما يزيد في جهلك تركه.

ـ أداء الأمانة والصدق يجلبان الرزق، والخيانة والكذب يجلبان الفقر والنفاق.

وسأله رجل يدعى عبيد الله بن إسحاق المدائني: إن الرجل يراني فيحلف بالله أنه يحبني، أفأحلف بالله أنه لصادق؟

فقال (عليه السلام): امتحن قلبك فإن تحبه فاحلف وإلا فلا.

ـ أفضل العبادة بعد المعرفة انتظار الفرج.

ـ إن صلاحكم من صلاح سلطانكم، وإن السلطان العادل بمنزلة الوالد الرحيم فأحبوا له ما تحبون لأنفسكم، وأكرهوا له ما تكرهون لأنفسكم.

ـ إذا كان الجور أغلب من الحق لم يحل لأحد أن يظن بأحد خيراً حتى يعرف ذلك منه.

ـ أخذ أبي بيدي، قال يا بني: إن أبي محمد بن علي أخذ بيدي، وقال: إن أبي علي بن الحسين أخذ بيدي، وقال: يا بني: افعل الخير إلى كل من طلبه منك فإن كان من أهله فقد أصبت موضعه، وإن لم يكن له بأهل كنت أهله، وإن شتمك رجل عن يمينك ثم تحوّل عن يسارك واعتذر إليك فاقبل منه.

ـ سأله رجل عن الجواد: فقال (عليه السلام): إن لكلامك وجهين. فإن كنت تسأل عن المخلوقين، فإن الجواد الذي يؤدي ما افترض الله عليه. والبخيل من بخل بما افترض الله عليه، وإن كنت تعني الخالق فهو الجواد إن أعطى، وهو الجواد إن منع لأنه إن أعطاك أعطاك ما ليس لك وإن منعك منعك ما ليس لك.

ـ إن قوماً يصحبون السلطان يتخذهم المؤمنون كهوفاً هم الآمنون يوم القيامة.

ـ إن أهل الأرض لمرحومون ما تحابوا، وأدوا الأمانة، وعملوا بالحق.

ـ إنّ الأنبياء وأولاد الأنبياء وأتباع الأنبياء خصّوا بثلاث خصال: السقم في الأبدان، وخوف السلطان، والفقر.

ـ إن الله عزّ وجلّ يقول: إني لم أغن الغني لكرامة له عليّ، ولم أفقر الفقير لهوان به عليّ، وهو ممّا ابتليت الأغنياء بالفقراء، ولولا الفقراء لم يستوجب الأغنياء الجنّة.

ـ إذا لم تستح فاعمل ما شئت.

ـ أحسن من الصدق قائله، وخير من الخير فاعله.

ـ قال علي بن جعفر: سألت أخي موسى بن جعفر فقلت له: أصلحك الله، أيكون المؤمن بخيلاً؟

قال: نعم.

فقلت: أيكون خائناً؟

قال: لا ولا يكون كاذباً ثم قال: إن أبي حدّثني عن آبائه عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنه قال: كل خلة يطوي المؤمن عليها ليس الكذب والخيانة.

ـ قال (عليه السلام): جاء رجل إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقال له: يا رسول الله ما حق ابني علي؟

فقال (صلّى الله عليه وآله): أن تحسن اسمه وأدبه.

(ت)

وقال (عليه السلام): التحدث بنعم الله شكر، وترك ذلك كفر، فارتبطوا نعم ربكم بالشكر، وحصّنوا أموالكم بالزكاة، وادفعوا البلاء بالدعاء، فإن الدعاء منجية، ترد البلاء وقد أبرم إبراماً.

وقال (عليه السلام): التودد إلى الناس نصف العقل.

وقال (عليه السلام): تعجّب الجاهل من العاقل أكثر من تعجّب العاقل من الجاهل.

(ر)

وقال (عليه السلام): رأس السخاء أداء الأمانة.

(س)

وقال (عليه السلام): السخي الحسن الخلق في كنف الله، لا يتخلى الله عنه حتى يدخل الجنة، وما بعث الله نبياً إلا سخياً، وما زال أبي يوصيني بالسخاء وحسن الخلق حتى مضى.

(ص)

وقال (عليه السلام): الصنيعة لا تكون صنيعة إلا عند ذي دين أو حسب، والله ينزل المعونة على قدر المؤونة، وينزل الصبر على قدر المصيبة.

(ض)

قال علي بن سويد: سألت أبا الحسن موسى (عليه السلام) عن الضعفاء ـ أي ضعفاء العقيدة ـ فكتب (عليه السلام) لي: الضعيف من لم ترفع له حجّة، ولم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بمستضعف.

(ع)

وقال (عليه السلام): العجب درجات منها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب أنه يحسن صنعاً، ومنها أن يؤمن العبد بربّه فيتمنّ على الله عزّ وجلّ، ولله المنّة عليه فيه.

وقال (عليه السلام): العجلة هي الخرق.

وقال (عليه السلام): عونك للضعيف من أفضل الصدقة.

وقال (عليه السلام): عليكم بالدعاء، فإنّ الدعاء لله والطلب إلى الله يرد البلاء وقد قدر وقضى ولم يبق إلا إمضاؤه، فإذا دعي الله عزّ وجلّ وسئل صرف البلاء.

(ف)

وقال (عليه السلام): فقيه واحد ينقذ يتيماً من أيتامنا المنقطعين عن مشاهدتنا بتعليم ما هو محتاج إليه، أشد على إبليس من ألف عابد، لأن العابد همه ذات نفسه فقط، وهذا همّه مع ذات نفسه ذوات عباد الله وإمائه لينقذهم من يد إبليس ومردته، ولذلك هو أفضل عند الله من ألف عابد وألف عابد.

وقال (عليه السلام): فضل الفقيه على العابد كفضل الشمس على الكواكب.

(ق)

وقال (عليه السلام): قلة الشكر تزهد في اصطناع المعروف.

وقال (عليه السلام): قلة الوفاء عيب بالمروءة.

وقال (عليه السلام): قلة العيال أحد اليسارين.

(ك)

وقال (عليه السلام) لعلي بن يقطين: كفّارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان.

وقال (عليه السلام): كثرة الهم تورث الهرم.

وقال (عليه السلام): كلما أحدث الناس من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعدّون.

وقال (عليه السلام) ردّاً على سؤال موسى بن بكر عن الكفر:

(الكفر أقدم من الشرك وهو الجحود قال عزّ وجلّ: (إِلاَ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)363.

(ل)

قال (عليه السلام): لا تكن إمعة فتقول: أنا مع الناس، إن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال: إنما هما نجدان: نجد خير ونجد شر، فلا يكن نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير.

وقال (عليه السلام): لا تذهب الحشمة بينك وبين أخيك وابق منها، فإن ذهابها ذهاب الحياء.

وقال (عليه السلام): لو ظهرت الآجال، افتضحت الآمال.

وقال (عليه السلام): لا تصلح المسألة إلا في ثلاث: في دم منقطع، أو غرم مثقل، أو حاجة مدفعة.

وقال (عليه السلام): لا خير في العيش إلا لمستمع واع، أو عالم ناطق.

وقال (عليه السلام): لا تبذل لإخوانك من نفسك ما ضرره عليك أعظم من منفعته لهم.

وقال (عليه السلام): لا تضيع حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه، فإنّه ليس بأخ من ضيعت حقه، ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته.

وقال (عليه السلام) لبعض ولده: لا تخرجن نفسك من حدّ التقصير في عبادة الله وطاعته، فإنّ الله عزّ وجلّ لا يعبد حق عبادته.

(م)

وقال (عليه السلام): المصيبة للصابر واحدة، وللجازع اثنتان.

وقال (عليه السلام): ما تسابّ اثنان إلا انحطّ الأعلى إلى مرتبة الأسفل.

وقال (عليه السلام): ليس حسن الجوار كف الأذى، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى.

وقال (عليه السلام): المؤمن أعز من الجبل، الجبل يستغل بالمعاول، والمؤمن لا يستغل دينه بشيء.

وقال (عليه السلام): المؤمن مثل كفتيّ الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه.

وقال (عليه السلام): ما أهانت الدنيا قوم قط إلا هنّأهم الله إيّاها، وبارك لهم فيها، وما أعزّها قوم قطّ إلا بغّضهم الله إياها.

وقال (عليه السلام): من أتى إلى أخيه مكروهاً فبنفسه بدأها.

وقال (عليه السلام): من ولده الفقر أبطره الغنى.

وقال (عليه السلام): المؤمن أخو المؤمن لأمه وأبيه وإن لم يلده أبوه، ملعون من اتهم أخاه، ملعون من لم ينصح لأخيه، ملعون من استأسر لأخيه، ملعون من احتجب عن أخيه، ملعون من اغتاب أخاه.

وقال (عليه السلام): المعروف تلو المعروف غلّ لا يفكه إلا مكافأة أو شكر.

وقال (عليه السلام): من لم يكن له من نفسه واعظ تمكن منه عدوه ـ يعني الشيطان.
وقال (عليه السلام): المغبون من غبن من عمره ساعة.
وقال (عليه السلام): من ترك التماس المعالي لانقطاع رجائه فيها لم ينل جسيماً.
وقال (عليه السلام): من تكلم في الله هلك، ومن طلب الرياسة هلك، ومن دخله العجب هلك.
وقال (عليه السلام): قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): من أصبح وهو لا يهتم بظلم أحد غفر الله بما اجترم364.
وقال (عليه السلام): من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض.

(ن)
قال (عليه السلام): نعم المال النخل الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل.

(و)
وقال (عليه السلام): وجدت علم الناس في أربع: أولها: أن تعرف ربك، والثانية: أن تعرف ما صنع بك، والثالثة أن تعرف ما أراد منك، والرابعة أن تعرف ما يخرجك من دينك.

(ي)
قال (عليه السلام): يعرف شدة الجور من حكم به عليه.
وقال (عليه السلام): ينادي مناد يوم القيامة ألا من كان له على الله أجر فليقم. فلا يقوم إلا من عفا وأصلح فأجره على الله.
وقال (عليه السلام): ينبغي لمن عقل عن الله أن لا يستبطئه في رزقه، ولا يتهمه في قضائه.

كوكبة من رواته وأصحابه
قامت مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) بمجهود كبير وعظيم بمواصلة أعمالها من أجل تثقيف الجيل وتطوير المجتمع الإنساني وتقدم المسلمين في ميادين النهضة الفكرية والعلمية والحضارية. وقد ربّت خلال فترة زمنية محدودة جيلاً صالحاً أدى رسالته الإصلاحية الشاملة وقام بمساع جليلة إلى الأجيال الصاعدة. وببركة هذه المدرسة ومجهود المسؤول عنها (عليه السلام) نضجت العقلية الإسلامية بواسطة معارف الإسلام وتعاليمه الخيّرة من المحيط النظري إلى التطبيق العملي في مشارق الأرض ومغاربها.
ولما فجع العالم الإسلامي برحيل العالم الكبير والإمام العظيم الصادق (عليه السلام) نهض الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) بعد أبيه يتسلم شؤون تلك المدرسة التي أغنت العالم الإسلامي، وأعزت العلم ورفعت مناره.
واصبح بعد وفاة أبيه عميداً للشيعة في كل أمورهم، ومرشداً للنهضة الفكرية في عصره؛ وقد أقبل عليه العلماء وطلاب العلم من كل حدب وصوب ينهلون من نمير علمه، واحتفى به رجال الفكر لا يفترقون عنه، حتى بلغ الأمر بهم من شدة احتفائهم به وتقديرهم له، أنه إذا نطق بكلمة أو أفتى بموضوع بادروا إلى تدوين ذلك للحال.365

وقد روى عنه هؤلاء العلماء جميع أنواع المعارف على اختلافها وتباعد أطرافها، من حكمة، وتفسير للذكر الحكيم، وفقه إسلامي بجميع أبوابه، وتوضيح أمور عالقة، وردود على أسئلة مختلفة من قريب أو بعيد، كما رووا عنه في الآداب الاجتماعية المواعظ والنصائح القيّمة، وأيضا فقد حثهم على العلم المفيد لهم ولمجتمعهم.

تلك الكوكبة من العلماء والرواة التي يزيد عددها على أربعة آلاف لم يكن أفرادها على مستوى واحد من حيث الثقة والعدالة، وهذا قد يحدث في كل عصر، فكان بينهم عدد من المنافقين والمتكسبين باعوا ضمائرهم بثمن رخيص؛ فلم يتحرجوا من الوضع والكذب في الحديث على لسان النبي (صلّى الله عليه وآله) وعترته الميامين ليأخذوا عوض ذلك بعض الدريهمات من السلطة الحاكمة التي أفسدت عقيدة المسلمين وخدّرت عقولهم ومزقتهم شيعاً وأحزاباً (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) 366. كما كان بينهم جمهرة أخرى من الضعفاء والمجهولين غير موثوق بهم تماماً.

ولا ريب أن الفئة الغالبة كانوا من العدول والثقات الذين عرفوا بالصدق والأمانة واليهم يرجع الفضل في ضبط الأحكام الإسلامية ونشر فقه أهل البيت (عليهم السلام). ونظراً لوجود هذه الطوائف المختلفة من رواة الأثر فقد انقسم الحديث إلى أصناف فكان: الحديث الصحيح، والحسن، والموثق، والضعيف. (فبعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) نشأت الأحزاب والفرق التي اتخذت شكلاً دينياً كان له أبلغ الأثر في قيام المذاهب الدينية في الإسلام)367.

(وقد حاول كل حزب دعم ما يدعم بالقرآن والسنة،ومن البديهي ألاّ يجد كل حزب ما يؤيد دعواه في نصوص القرآن الكريم، فعمدوا إلى تحريف السنة الشريفة بالتحريف والزيادة، حتى وضعوا على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ما لم يقل)368.

لكنهم فشلوا ولم يحققوا مبتغاهم: لأن للحديث النبوي ضوءاً كضوء النهار يعرف به369 وللحديث المكذوب ظلمة كظلمة الليل تنكره العقول المستقيمة إن معرفة سيرة الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) وهديه فيما يأمر به وينهى عنه وفيما يحبه ويكرهه، ثم التعرف على جميع أحواله فيما يجوز وفيما لا يجوز، وكل ما نطق به من أقوال وقام به من أعمال. كل هذا يمنحنا النور الكاشف لأنظارنا والاطمئنان المريح لأنفسنا.

وعلى أي حال فإن الكثيرين من أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام) قد قاموا بدور مهم في التأليف والتصنيف ونشر الحضارة الإسلامية حتى ملأوا المكتبة العربية والإسلامية في عصرهم بنتاجهم القيّم، الأمر الذي دلّ بحق على أن لهم اليد الطولى في رفع منار العلم، وتهذيب الأفكار، وتقويم الأخلاق.

أما عدد أصحابه فقد ذكر أحمد بن خالد البرقي أنهم كانوا مائة وستين شخصاً. 370 وهو اشتباه ظاهر إن كان مراده الحصر، ولعله أراد بهذا العدد الأعلام النابهين منهم دون أن يليهم في مراتب العلم والفقه والحديث.

والحقيقة أن أغلب المنتمين لمدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) قد بقوا بعد وفاته ينهلون من علم الإمام الكاظم (عليه السلام) ويتلقون العلوم والفقه منه. وسوف نعرض طائفة من أصحابه ورواة حديثه مرتبته على حروف الهجاء:

(أ)

1- إبراهيم بن أبي البلاد

هو يحيى بن سليم وكنى بأبي البلاد، كان إبراهيم ثقة جليلاً رفيع المنزلة عظيم الشأن، روى عن أبي عبد الله والكاظم والرضا، وأرسل له الإمام الرضا (عليه السلام) رسالة أعرب فيها عن ثنائه وإكباره له.371

2- أحمد بن الحسن

هو ابن إسماعيل النمار، مولى بني أسد، كان من أصحاب الإمام الكاظم وروى عن الإمام الرضا (عليه السلام) وقال النجاشي: هو على كل حال ثقة صحيح الحديث معتمد عليه له كتاب نوادر.372

3- أحمد بن عمرو

هو ابن أبي شعبة الحلبي روى عن الإمام الكاظم والرضا وروى أبوه عن أبي عبد الله وهو من بيت عرف بالتقوى والصدق والولاء لأهل البيت (عليهم السلام).373.

4- إسماعيل بن عبد الخالق

مولى لبني أسد، وجه من وجوه الشيعة، وفقيه من فقهائها، وقد عرف أهله بالعدالة والولاء لأهل البيت (عليهم السلام)؛ روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن وله كتاب.374

5- إسحاق بن جرير

ثقة من أهل العلم روى عن الإمام أبي عبد الله (عليه السلام) وله كتاب، وعدّه الشيخ من أصحاب أبي الحسن موسى.375

6- أبو أيوب الحر

الملقب بالجعفي ثقة جليل روى عن أبي عبد الله، وأبي الحسن روى عنه يحيى بن عمران الحلبي وأبو عبد الله البرقي وقال الشيخ أنه ثقة وله كتاب.376

7- إبراهيم بن محمد الأشعري

القمي، روى عن الإمام الكاظم، وأبي الحسن الرضا، وثقه جماعة من الأعلام.377

(ب)

8- بكر بن الأشعث

هو أبو إسماعيل الكوفي، روى عن الإمام، ووثقه جماعة من الأعلام.378

9- بكر بن محمد

هو ابن نعيم الأزدي الغامدي، ثقة جليل من بيت رفيع بالكوفة؛ عدّه الشيخ من أصحاب الإمام الكاظم، عمّر عمراً طويلاً، وله كتاب، وروى عنه عبد الله بن مسكان واحمد بن حنبل.379

(ث)

10- ثعلبة بن ميمون

الأسدي الكوفي، قال النجاشي: كان وجهاً من أصحابنا قارئاً فقيهاً نحوياً لغوياً راوية، وكان حسن العمل كثير العبادة والزهد روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن له كتاب تختلف الرواية عنه، قد رواه جماعة من الناس. 380

وحكي أنه لما حجّ هارون مرّ بالكوفة فلما صار إلى الموضع الذي يعرف بمسجد (سماك) كان ثعلبة ينزل في غرفة على الطريق فسمعه هارون يدعو بلسان فصيح فوقف يسمع دعاءه وأقبل على الفضل بن الربيع فقال له: تسمع ما أسمع؟ فقال له: نعم. فقال هارون: إن أخيارنا بالكوفة.381

وكان يلقب بأبي إسحاق الفقيه ويعد في الطليعة من علماء هذه الطائفة بالإضافة إلى ورعه وتقواه، وقد روى عنه محمد ابن عبد الله المزخزف وعلي بن اسباط والحسن بن علي الخزاز وطريف بن ناصح.382

(ج)

11- جعفر بن خلف

الكوفي عدّه الشيخ من أصحاب أبي الحسن موسى، وقال إنه سمع الإمام يقول: سعد امرإ لم يمت حتى يرى منه خلفاً، وقد أراني الله ابني هذا خلفاً ـ وأشار لولده الرضا.383

12- جميل بن دراج

ابن عبد الله النخعي الكوفي من أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) والكاظم (عليه السلام)، وكان ثقة جليلاً من كبار العلماء، وهو أحد الستة الذين أجمعوا على تصحيح ما يصح عنهم، وكان كثير الحديث؛ روى عنه خلق كثير: كالحسن بن محبوب، وصالح بن عقبة، وأبو مالك الحضرمي وغيرهم، له مؤلفات منها كتاب اشترك في تأليفه هو ومرازم بن حكيم، وله أصل انفرد بتأليفه، وتوفي في أيام الرضا.384

13- جميل بن صالح

الأسدي الكوفي، ثقة جليل من أصحاب الإمام الصادق، والكاظم (عليه السلام)، له أصل، روى عنه جماعة منهم عمار بن موسى الساباطي وغيره.385

14- جهم بن أبي جهيم

ثقة جليل الشأن، رفيع المنزلة، روى عن الإمام الكاظم (عليه السلام) له أصل.386

(ح)

15- حبيب بن المعلل

الخثعمي المدايني، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن قال النجاشي: ثقة صحيح الحديث، وقال الكشي مثل ذلك وأضاف أن له كتاباً.387

16- حذيفة بن منصور

الخزاعي، قال النجاشي: إنه ثقة روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله وأبي الحسن، له كتاب يرويه عدّة من أصحابنا، وثقة الشيخ المفيد.388

17- الحسن بن الجهم

هو ابن بكير بن أعين أبو محمد الشيباني، عدّه الشيخ من أصحاب الإمام موسى (عليه السلام) ووثقه، وهو ثقة روى عن أبي الحسن وولده الرضا، وله كتاب.389

18- الحسن بن علي

ابن فضال بن عمرو بن أنيس التيمي الكوفي، روى عن الإمام موسى (عليه السلام) والإمام علي بن موسى (عليه السلام) وابراهيم بن محمد الأشعري ومحمد بن عبد الله بن زرارة وعلي بن عقبة وغيرهم؛ وروى عنه الفضل بن شاذان، وبالغ في الثناء عليه بالزهد والعبادة، وكان من المؤلفين. له كتاب: الزيارات، وكتاب البشارات، وكتاب النوادر، وكتاب الرد على الغالية، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب التفسير وكتاب الابتداء والمبتدأ، توفي سنة 224هـ.390

19- الحسن بن محبوب

السراد، كوفي ثقة، عدّه الشيخ من أصحاب الإمام موسى، روى عن الإمام الرضا (عليه السلام) وروي عن ستين رجلاً من أصحاب أبي عبد الله، وكان جليل القدر يعد من أعلام عصره، ألّف كتباً كثيرة منها: كتاب الحدود، وكتاب الديّات، وكتاب الفرائض، وكتاب النوادر، يقع في ألف ورقة، وكتاب التفسير.391

20- الحسين بن محمد

ابن الفضل الهاشمي ثقة جليل من شيوخ بني هاشم، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن، وألّف كتاباً أسماه: (مجالس الرضا مع أهل الأديان) وقال الشيخ المفيد: كان الحسين بن محمد من خاصة الكاظم وثقاته ومن أهل الورع والعلم والفضل من شيعته.392

21- الحسين بن زيد

ابن علي بن الحسين، يلقب بذي الدمعة، كان الإمام الصادق قد ربّاه، وزوجته بنت الأرقط، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن وقال رواة الأثر إنه نشأ في حجر الإمام الصادق منذ قتل أبوه، وأخذ منه علماً كثيراً، وكان لا يجالس أحداً ولا يدخل إليه إلا من يثق به، وإنما لقّب بذي الدمعة لكثرة بكائه. قالت له زوجته: ما أكثر بكاؤك؟! فأجاب: وهل ترك لي السهمان والنار سروراً يمنعني من البكاء؟ توفي سنة 140هـ وعمره ست وسبعون سنة.393

(خ)

22- خالد بن نجيح

كوفي، يكنى أبا عبد الله، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن قال الكشي: كان خالد خادماً عند أبي الحسن موسى وهو الذي روى عنه في شأن ولده الرضا (عليه السلام) أنه قال فيه: (عهدي إلى ابني علي أكبر ولدي وخيرهم وأفضلهم)394.

23- خالد بن سعيد

القمّاط، عدّه الشيخ في رجاله في باب الكنى من أصحاب الإمام الكاظم، ووثّقه النجاشي وقال: إنه روى عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) وله كتاب.395

24- خف بن حماد

الكوفي إمامي حسن الحال، من أصحاب الإمام الكاظم وروى عنه.396

(د)

25- داود بن أبي يزيد

الكوفي العطار ثقة، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن وله كتاب.397

26- داود بن سليمان

عدّه الشيخ المفيد من خاصة أبي الحسن موسى (عليه السلام) وثقاته ومن أهل الورع والعلم والفقه، وممن روى النص عن الإمام موسى على إمامة ولده الرضا، فقد قال فيه: إني سألت أباك ـ من الذي يكون بعده؟ فأخبرني أنك أنت، فلما توفي أبو عبد الله ذهب الناس يميناً وشمالاً وقلت لك أنا وأصحابي، فأخبرني من الذي يكون بعدك؟ فقال (عليه السلام): ابني فلان ـ يعني الرضا ـ وترجمه الشيخ في الفهرست وقال إن له أصلاً.398

27- داود بن فرقد

الأسدي، كوفي ثقة روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن موسى وله وكتاب.399

(ذ)

28- ذريح بن محمد

ابن يزيد أبو الوليد المحاربي عربي من بني محارب من بني خصفة، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن، ذكره ابن عقدة وابن نوح وله كتاب، ووثّقه الشيخ والعلامة وغيرهما.400

(ر)

29- ربعي بن عبد الله

ابن الجارود بن أبي سبرة الهذلي، أبو نعيم، بصري، ثقة، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن (عليهما السلام) وصحب الفضيل بن يسار وأكثر الأخذ عنه وكان خصيصاً به وقال الشيخ: له أصل.401

30- رفاعة بن موسى

الأسدي النحاس، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن (عليهما السلام)، كان ثقة في حديثه، مسكوناً في روايته، لم يُعترض له بشيء من الغمز، حسن الطّريقة، له كتاب مبوب في الفرائض، ذكره العلامة في القسم الأول من (الخلاصة) وورد توثيقه في الوجيزة، ومشتركات الكاظمي، والحاوي وغيرها.402

(ز)

31- زكريا بن إدريس

القمي روى عن أبي عبد الله، وأبي الحسن، والرضا (عليهم السلام) وكان وجيهاً عند الإمام الرضا وله كتاب.403

(س)

32- سعد بن أبي خلف

كوفي ثقة روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن، له كتاب يرويه جماعة منهم: ابن أبي عمير 404 عدّه ابن داود في القسم الأول من رجاله، وورد توثيقه في (الوجيزة) و(البلغة) و(الحاوي).

33- سعيد بن جناح

كوفي الأصل نشأ في بغداد ومات فيها، روى عن أبي الحسن والرضا، له كتاب في (صفة الجنة والنار) وكتاب (قبض روح المؤمن والكافر) عدّه ابن داود في القسم الأول، ووثقه في الوجيزة والبلغة405.

34- سليم الفراء

كوفي روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن (عليهما السلام) ثقة له كتاب يرويه جماعة منهم محمد بن أبي عمير.406

35- سيف بن عميرة

النخعي عربي ثقة روى عن أبي عبد الله (عليه السلام) وأبي الحسن (عليه السلام) له كتاب ترويه جماعات من أصحابنا، وهو ثقة وعدّه ابن النديم من فقهاء الشيعة.407

(ش)

36- شعيب بن يعقوب

ابن أخت أبي بصير يحيى بن القاسم، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن ثقة، له كتاب يرويه حماد بن عيسى وغيره. وورد توثيقه في الوجيزة والبلغة والحاوي.408

(ص)

37- صالح بن خالد

المحاملي، أبو شعيب الكناسي، روى عن الإمام الكاظم (عليه السلام)، له كتاب يرويه جماعة منهم عباس بن معروف؛ وثّقه الشيخ في رجاله في باب الكنى كما ورد توثيقه في الوجيزة والبلغة.409

38- صباح بن موسى

الساباطي ثقة روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن (عليه السلام).410

39- صفوان بن يحيى

أبو محمد البجلي، كوفي ثقة، قال الشيخ الطوسي: إنه أوثق أهل زمانه عند أصحاب الحديث وغيرهم، وكان يصلي في كل يوم مائة وخمسين ركعة، ويصوم في السنة ثلاثة أشهر، ويخرج زكاة ماله في كل سنة ثلاثة مرات، والسبب في ذلك أنه تعاقد هو وعبد الله بن جندب ولعي بن النعمان في بيت الله الحرام أنه إن مات واحد منهم أن يقوم من بقي منهم بالصلاة والزكاة والحج عنهم فمات صاحباه وبقي صفوان فوفى لهما بذلك، فكان جميع ما يفعله من البر والخير يجعله ثلاثة أقسام، قسم له وقسمان لصاحبيه، وكان من الزهاد المتعبدين والمحتاطين، فقد كلفه شخص وهو مسافر أن يجعل معه دينارين إلى أهله في الكوفة، فقال له: إن جمالي مكرية فلابدّ أن أستأذن الأجراء.

ويكفي للتدليل على وثاقته أنه كانت له منزلة عند الإمام الرضا (عليه السلام) وكان وكيلاً له. ألّف ثلاثين كتاباً منها: كتاب الصلاة، وكتاب الصوم، وكتاب الحج، وكتاب الزكاة، وكتاب الطلاق، وكتاب الفرائض، وكتاب الشراء والبيع، وكتاب العتق والتدبير، وكتاب البشارات، وكتاب مسائل عن أبي الحسن موسى وغير ذلك. توفي سنة 210هـ بالمدينة، وبعث إليه أبو جعفر بحنوطه وكفنه، واقر إسماعيل بن موسى بالصلاة عليه.411

(ض)

40- الضحاك الحضرمي

أبو مالك، كوفي عربي، أدرك أبا عبد الله (عليه السلام) وقال قوم: إنه روى عنه وقال آخرون: إنه روى عنه وعن أبي الحسن موسى (عليه السلام) وكان متكلماً ثقة في الحديث، له كتاب في الحديث رواه علي بن الحسن الطاطري.412

(ع)

41- عبد الحميد بن سعيد

عدة الشيخ من صحاب الإمام موسى (عليه السلام) وروى عنه صفوان بن يحيى413.

42- عبد الله بن الحارث

المخزومي، أمه من ولد جعفر بن أبي طالب، وقد وثّقه الشيخ المفيد في (الإرشاد) وعدّه من خاصة الإمام الكاظم (عليه السلام) وثقاته ومن أهل الورع والعلم والفقه.414

43- عبد الله بن جندب

البجلي، عربي، كوفي، من أصحاب الإمام الكاظم والرضا (عليهما السلام) قال الشيخ الطوسي: كان وكيلاً للإمام موسى وولده الرضا، وكان عابداً رفيع المنزلة وروى الكشي في حقه أنه قال للإمام أبي الحسن: ألست عني راضياً؟ قال (عليه السلام): أي والله، ورسول الله والله عنك راض، وعن علي بن إبراهيم عن أبيه، قال: رأيت عبد الله بن جندب بالموقف ـ أي موقف عرفة ـ فلم أر موقفاً كان أحسن من موقفه، ما زال ماداً يده إلى السماء، ودموعه تسيل على خديه حتى تبلغ الأرض فلما انصرف الناس قلت له: يا أبا محمد ما رأيت موقفاً قط أحسن من موقفك!!

قال لي: والله ما دعوت فيه إلا لإخواني، وذلك لأن أبا الحسن موسى (عليه السلام) أخبرني أنه من دعا لأخيه المؤمن بظهر الغيب نودي من العرش ولك بكل واحدة مائة ألف وكرهت أن أدعو مائة ألف لواحدة لا أدري تستجاب أم لا؟

وقد وثق الرجل في الوجيزة والحاوي ومشتركات الطريحي وقد أجمع المترجمون له أنه لم يغمز بوجه، وإنه ثقة بلا خلاف.415

44- عبد الله بن المغيرة

هو أبو محمد البجلي كوفي، ثقة لا يعدل به أحد لجلالته ودينه وورعه، روى عن أبي الحسن موسى، قيل أنه صنف ثلاثين كتاباً، منها كتاب (الوضوء) وكتاب الصلاة. وقد روى هذه الكتب كثير من أصحابنا. قال: أتيت المدينة ووقفت على باب الرضا (عليه السلام) وقلت للغلام، قل لمولاك رجل من أهل العراق بالباب فسمعت نداء الإمام وهو يقول: ادخل يا عبد الله بن المغيرة، فدخلت فلما نظر إليّ قال: قد أجاب الله دعوتك وهداك لدينه، فقلت: أشهد أنك حجة الله وأمينه على خلقه.416

45- علي بن جعفر

أخو الإمام موسى (عليه السلام) ثقة جليل من عيون الهاشميين ومن خيارهم، وفي طليعة الرواة الثقات، روى عن أبيه وبعد وفاته اختص بأخيه موسى، وروى عنه الشيء الكثير، وقد أفرد المجلسي في بحاره فصلاً لرواياته عنه، وقد ألف رسالة في الأحاديث التي رواها عن أخيه موسى، وكان قوي الإيمان، صلب العقيدة، دخل عليه بعض الواقفية فقال له: ما فعل أخوك أبو الحسن؟

ـ قد مات؟ ـ وما يدريك؟

ـ قسمت أمواله، ونطق الناطق من بعده.

ـ ومن الناطق؟ ـ ابنه علي.

ألف كتاباً في الحلال والحرام، وروى عنه جماعة منهم ابنه أحمد ومحمد وحفيده عبد الله بن الحسن، توفي سنة 210هـ.417

46- علي بن حمزة

ابن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو والد سيدنا حمزة المدفون بقرب الحلة الذي يزار ويتبرك بقبره، وهو ثقة روى وأكثر الرواية، له نسخة يرويها عن الإمام موسى (عليه السلام).418

47- علي بن عبيد الله

ابن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال فيه النجاشي: إنه أزهد آل أبي طالب وأعبدهم في زمانه؛ اختص بالإمام موسى (عليه السلام) والإمام الرضا (عليه السلام)، وقال: إنه له كتاباً في الحج يرويه كله عن الإمام موسى (عليه السلام).419

48- عمر بن محمد

ابن يزيد أبو الأسود كوفي، ثقة جليل الشأن، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن وأثنى عليه الإمام أبو عبد الله (عليه السلام) فقال له: أنت والله منا أهل البيت. جعلت فداك، من آل محمد؟ من أنفسهم أما تقرأ كتاب الله عزّ وجلّ: (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) له كتاب: مناسك الحج وفرائضه.420

49- علي بن يقطين

ولد بالكوفة سنة 124هـ في أواخر دولة الأمويين، ونشأ وترعرع على أرضها؛ كان أبوه يقطين يحمل الأموال والألطاف إلى الإمام الصادق (عليه السلام)، طلبه مروان الحمار فهرب منه وهربت زوجته بولديه علي وعبيد الله إلى المدينة، ولما زالت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية عادت بولديها إلى وطنها وفي ذلك الوقت انتشر صيت يقطين، فقد اتصل بالسفاح وبالمنصور والمهدي ثم وشي عليه بأنه يذهب إلى (الإمامة) ولكن الله تعالى صرف عنه كيد الغادرين ولما توفي قام ولده علي مقامه فاتصل اتصالاً وثيقاً بالعباسيين وتولى بعض المناصب المهمة في الدولة، وكان في الوقت نفسه عوناً وغوثاً للشيعة، يدفع عنهم الخطوب، وكان من عيون المؤمنين الصالحين، فكان يستنيب جماعة في كل سنة ليحجوا عنه، فقد حدث سليمان بن الحسين كاتبه فقال: أحصيت لعلي بن يقطين من يحج عنه، في عام واحد مائة وخمسين رجلاً، أقل من أعطاه منهم سبعمائة درهم، واكثر من أعطاه عشرة آلاف درهم. وقد انفق أموالاً ضخمة في وجوه البر والإحسان منها أنه أوصل الإمام موسى (عليه السلام) بصلات كبيرة تتراوح ما بين المائة ألف درهم إلى ثلاث مائة ألف درهم، وقد زوج ثلاثة من أولاد الإمام منهم أبو الحسن الرضا (عليه السلام)، كما دفع ثلاثة آلاف دينار للوليمة، وكان يعول بعض عوائل الشيعة. فقد قام بنفقة الكاهلي وعياله حتى توفي، إلى غير ذلك من وجوه البر والإحسان كل ذلك يدل على إيمانه وحسن عقيدته.

تقلد علي منصب أزمة الأزمة في أيام المهدي، ومن بعده عينه هارون وزيراً له، وقد تقدم بطلب إلى الإمام موسى (عليه السلام) يطلب منه الإذن في ترك منصبه والاستقالة منه فنهاه عن ذلك وقال له:

(يا علي إن لله تعالى أولياءً مع أولياء الظلمة يدفع بهم عن أوليائه وأنت منهم يا علي). وقد سمح له الإمام في بقائه في وظيفته ليقوم بالإفراج عن الشيعة الذين اضطهدتهم السلطات العباسيّة حتى حرمتهم من جميع الحقوق المشروعة.

كان الإمام (عليه السلام) يكن لعلي أخلص الود والولاء، فقد زاره يوماً فقال (عليه السلام) لأصحابه: من سره أن يرى رجلاً من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فلينظر إلى علي بن يقطين.

فانبرى إليه بعض الحاضرين قائلاً: أهو من أهل الجنة؟

فقال الإمام (عليه السلام): أما أنا فاشهد أنه من أهل الجنة.

كان الإمام (عليه السلام) حريصاً على ابن يقطين، وكان يخاف عليه من سطوة هارون وبطشه، لأن أمر تشيّعه لم يكن خافياً على العملاء الذين يتقربون إلى السلطة بكل وسيلة، وقد علم (عليه السلام) أنهم لا يتركونه حتى يقظون عليه، فتصدّى إلى تسديده ورفع الخطر عنه. فقد ردّ له (الدراعة المذهبة) التي أهداها له هارون حتى لا يكشف أمره.

مؤلفاته: كان علي بن يقطين من عيون أهل العلم ومن الفضلاء المعروفين في عصره وهذه بعض مؤلفاته:

1- (الملاحم) أخذها من الإمام الصادق (عليه السلام).

2- (مناظرة الشاك).

3- (المسائل) أخذها من الإمام موسى (عليه السلام).

وقد ورد في الفهرست للشيخ الطوسي أن الذين أخبر بهذه الكتب محمد بن محمد بن النعمان، والحسين بن عبيد الله ومحمد بن الحسن.421

وفاته: انتقل علي بن يقطين إلى دار الحق بمدينة السلام سنة 182هـ.

وله من العمر سبع وخمسون سنة، وكان الإمام موسى (عليه السلام) آنذاك في ظلمات السجون.422

50- العيص بن القاسم

ابن ثابت بن عبيد بن مهران، البجلي، كوفي عربي، يكنى أبا القاسم ثقة عين، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن موسى (عليهما السلام) وله كتاب.423

(غ)

51- غياث بن إبراهيم

التميمي الأسدي بصري، سكن الكوفة، ثقة، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن (عليهما السلام)، له كتاب مبوب في الحلال والحرام يرويه جماعة.424

(ف)

52- فضالة بن أيوب

عربي سكن الأهواز، ثقة في حديثه، روى عن الإمام موسى (عليه السلام) وعدّه الكشي ممن أجمع أصحابنا على تصحيح ما يصح عنهم من أصحاب أبي عبد الله (عليه السلام) وتصديقهم والإقرار لهم بالفقه والعلم، وله كتاب (الصلاة)425.

53- الفيض بن المختار

الجعفي، الكوفي، روى عن أبي جعفر، وأبي عبد الله، وأبي الحسن (عليهم السلام)، ثقة عين، له كتاب يرويه ابنه جعفر، وهو أول شخص سمع النص من أبي عبد الله على إمامة ولده موسى (عليه السلام) وقد تقدم ذكره في الحديث عن (النص على الإمامة)426.

(ق)

54- قيس بن موسى

الساباطي، أخو عمار الساباطي، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن وهو ثقة مقبول الحديث.427

(م)

55- محمد بن جعفر

ابن سعد الأسلمي، كتب وصية الإمام موسى (عليه السلام) الأولى، وشهد في وصيته الثانية.428

56- محمد بن حكيم

الخثعمي، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن، يكنى أبا جعفر، له كتاب يرويه جعفر بن محمد بن حكيم، وأثنى عليه في (الوجيزة)429.

57- محمد بن زرقان

ابن الحباب صاحب الإمام موسى وله نسخة يرويها عنه، ومصاحبته للإمام (عليه السلام) دليل وثاقته ونباهة شأنه.430

58- محمد بن أبي عمير

الأزدي، بغدادي الأصل والمقام، من أشهر علماء هذه الطائفة ومن عيون رواتها، وقد أجمع الأصحاب على تصحيح ما يصح عنه وعلى عد مراسيله مسانيد؛ عاصر الإمام الكاظم، والرضا، والجواد (عليهم السلام) وسوف نلخص بعض أحواله.

علمه: كان من عيون العلماء، ومن كبار الفقهاء، وقد أجمعت الأكثرية على الإقرار له بالفقه والعلم، وقد لازم ثلاثة من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وأُشبع من نمير علومهم وقد زود الفقه الإسلامي بالشيء الكثير من أحاديثه التي سمعها من الأئمة الميامين، ومراسيله بمنزلة الصحاح عند الفقهاء، وفي هذا دليل على سمو مكانته العلمية.

مؤلفاته: ألف من الكتب أربعاً وتسعين كتاباً منها:

كتاب المغازي، وكتاب الكفر والإيمان، وكتاب البداء، وكتاب الاحتجاج في الإمامة، وكتاب الحج، وكتاب فضائل الحج، وكتاب المتعة، وكتاب الاستطاعة، وكتاب الملاحم، وكتاب يوم وليلة، وكتاب مناسك الحج، وكتاب الصيام، وكتاب اختلاف الحديث، وكتاب المعارف، وكتاب الطلاق، وكتاب الرضاع.

ولكن من المؤسف أن هذه المؤلفات قد تلفت، والسبب في ذلك كما رووا أنه تركها في غرفة فسال عليها المطر فأتلفها، وقيل أن أخته دفنت كتبه أثناء حبسه فضاعت، وضاع بذلك علم هذا العالم الكبير.

عبادته: كان محمد من عيون المتقين الصالحين، فقد تربّى في بيت الإمامة، وسار على خطّ أهل البيت (عليهم السلام) من رفض الدنيا المادية، وعدم الاهتمام بملذاتها وشهواتها، ويكفي للتدليل على مدى عبادته ما رواه الفضل بن شاذان قال: دخلت العراق فرايت شخصاً يعاتب صاحبه ويقول له:

أنت رجل ذو عيال، وتحتاج أن تكسب لهم، وما آمن عليك أن تذهب عيناك لطول سجودك، وأكثر عليه التوبيخ والتقريع، فالتفت إليه وقال له: (لو ذهبت عين أحد من السجود، لذهبت عين ابن أبي عمير ما ظنك برجل سجد سجدة الشكر بعد صلاة الفجر فما رفع رأسه إلا عند زوال الشمس.

وقد عظمه وبجله جمع من المشايخ، ولا ريب أن تعظيم أولئك الأتقياء الصالحين له وإكبارهم لمنزلته ممّا يدل على سمو مكانته وعلو شأنه.

مع هارون والسجون: كان محمد بن أبي عمير من الشخصيات البارزة في العالم الشيعي نظراً لاتصاله الوثيق بأئمة أهل البيت (عليهم السلام) وفي الوقت نفسه كان عنده السجل العام الذي يتضمن أسماء الشيعة، ولقد ضاق على هارون ذلك، فأمر أن يلقى في ظلمات السجون، فبقي فيها سبعة عشر عاماً. ثم جيء به إلي الطّاغية هارون وهو مكبل بالقيود، فطلب إليه أن يعرفه بأسماء الشيعة الذين يحتفظ بأسمائهم، فامتنع وأبى، فأمر الظالم أن يضرب هذا المؤمن التّقيُّ مائة سوط، فضرب، وبلغ به الألم الشديد مبلغاً عظيمًا. يقول: كدت أن أسمي إلا أني سمعت نداء يونس بن عبد الرحمن يقول لي:

(يا محمد بن أبي عمير، اذكر موقفك بين يدي الله، فتقويت بقوله وصبرت على الألم ولم أخبر، والحمد لله رب العالمين)431.

من هذه الحادثة وأمثالها نقف على مدى الظلم والجور والضغط الهائل الذي واجهته الشيعة في تلك الأدوار المظلمة من الحكام العباسيين الذين كان جل همهم السلطة والمال والدنيا والملذات.

وفاته: انتقل إلى دار الخلود سنة 217هـ-432 فهنيئاً له على صلابة عودة وقوة عقيدته، وتمسكه بحبل أهل البيت الذي ما تمسك به أحد إلا نجا من الضلال، وكسب رضى الله جلّ وعلا.

59- محمد بن الصباح

عدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام) وقال فيه النجاشي: إنه كوفي ثقة، له كتاب أخبرنا عنه أحمد بن عبد الواحد وذكره ابن داود في القسم الأول من رجاله.433

60- محمد بن يونس

عده الشيخ في رجاله من أصحاب الإمام موسى، وقال إنه ثقة، وذكره العلامة في الخلاصة وورد توثيقه في كل من الوجيزة والبلغة434.

61- مسعدة بن صدقة

العبدي يكنى أبا محمد وقيل أبو بشر، روى عن أبي عبد الله، وأبي الحسن موسى (عليهما السلام) وله كتاب، منها كتاب (خطب أمير المؤمنين)435.

62- المفضل بن عمر

الجعفي الكوفي، من كبار العلماء، ومن عيون المتقين والصالحين، ومن أفذاذ عصره، له منزلة مرموقة ومكانة عليا عند أهل البيت (عليهم السلام).

ولادته: ولد بالكوفة في نهاية القرن الأول، في أيام الإمام الباقر.436

نشأته: ونشأ بالكوفة في وقت كان الجو السياسي مضطرباً، وكانت الأحزاب السياسية والجمعيات الدينية منتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وخصوصاً بالكوفة، فقد كانت مصدر الانطلاق لجميع الأحزاب، ونشأ المفضل في وسط هذا الخضم الهائل، وقد تغذى بحب أهل البيت (عليهم السلام)، فاتصل بهم اتصالاً وثيقاً.

وثاقته: كان من عيون الثقات الصالحين، ومن ذوي البصيرة في دينهم والدليل القاطع على ورعه وكالته عن الإمامين الصادق والكاظم (عليهما السلام) في قبض أموالهما، وقبض الحقوق الشرعية الراجعة لهما وصرفها بحسب نظره من إصلاح ذات البين وإعطائها للفقراء والبائسين، وبلا شك أن هذا التفويض ينم على سمو منزلته وثقته عندهم (عليهم السلام) قال في حقه الإمام الصادق (عليه السلام): (نعم العبد والله الذي لا إله إلا هو المفضل بن عمر الجعفي). وقال في حقه أيضاً الإمام الرضا في تأبينه: (إن المفضل كان أنسي ومستراحي) وأخبار كثيرة تدل على إيمانه الصادق وورعه واجتهاده في طاعة الله تعالى.

علمه: كان من كبار العلماء ومن قادة الفكر في عصره، اقتبس العلوم من الإمام الصادق (عليه السلام) اختص به سنين طويلة، وكان من عيون أصحابه الذين أخذوا العلم عنه، ويكفي للتدليل على غزارة علمه كتابه القيم (توحيد المفضل) الذي أملاه عليه الإمام الصادق (عليه السلام). يعد الكتاب من مفاخر التراث الإسلامي الذي يعتز به، وقد حقق الكتاب صدر الدين العاملي واثنى على المفضل بقوله: (ومن نظر في حديث المفضل المشهور عن الإمام الصادق (عليه السلام) علم أن ذلك الخطاب البليغ، والمعاني العجيبة، والألفاظ الغريبة، لا يخاطب الإمام بها إلا رجلاً عظيماً كثير العلم، ذكي الحس، أهلاً بتحمل الأسرار الرفيعة، والدقائق البديعة)437.

اقرّ الإمام الصادق (عليه السلام) بمواهبه العلمية فقد حدث الفيض بن المختار: فما أكاد أشك لاختلافهم في حديثهم حتى أرجع إلى المفضل فيقضي من ذلك ما تستريح إليه نفسي ويطمئن إليه قلبي، فقال له الإمام: أجل هو كذلك وعده الشيخ المفيد من ثقات الفقهاء الصالحين438.

مؤلفاته:

ألف المفضل عدة كتب مختلفة المواضيع تدل على طول باعه في هذه العلوم وهذه بعضها:

1- كتاب (يوم وليلة).

2- كتاب (فكر).

3- كتاب (بدئ الخلق والحث على الاعتبار).

4- كتاب (علل الشرائع).

5- كتاب (وصيّة المفضل).

وصيّته للشيعة: أوصى المفضل جماعة من إخوانه الشيعة بهذه الوصية القيمة الحافلة بأخلاق أهل البيت (عليهم السلام) وآدابهم وسيرتهم والحقيقة أنها يمكن أن تكون درساً حافلاً بالقيم والنصائح ومنهاجاً قويماً في الاجتماع والدين والأخلاق لكل مسلم ومسلمة.439

63- منصور بن حازم

أبو أيوب البجلي الكوفي ثقة عين صدوق من أجلاء الشيعة، ومن عيون الفقهاء، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن موسى (عليهما السلام)، ألف عدة كتب منها: كتاب (أصول الشرائع) وكتاب (الحج) وقد أجمع المترجمون على توثيقه وسعة علمه في الفقه.440

64- موسى بن إبراهيم

المروزي، اختص بالإمام موسى (عليه السلام) لما كان في سجن الطاغية السندي ابن شاهك لأنّه كان معلماً لولده، وقد فسح له المجال للاتصال بالإمام، وقد ألّف كتاباً ممّا سمعه من الإمام 441، وقد أسماه (مسند الإمام موسى بن جعفر) توجد نسخة منه في المكتبة الظاهرية بدمشق ضمن المجموع رقم (34-70) وقد استنسخها وصوّر بعض فصولها العلامة الجليل السيد محمد الحسين الحسيني الجلالي، وهي حسب تحقيقه يرجع عهدها إلى القرن السادس الهجري وعليها عدة تواريخ أقدمها سنة 531.

وقد عني السيد الجلالي عناية بالغة بتحقيق المسند فترجم لمؤلفه ترجمة وافية فذكر شيوخه ومن روى عنه، كما ذكر سند الكتاب حسب ما نص عليه الشيخ الطوسي والنجاشي، ويحتوي على 59 حديثاً شريفاً.

(ن)

65- نصر بن قابوس

اللخمي القابوسي، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن موسى والإمام الرضا (عليهم السلام)، وكانت له منزلة عندهم وله كتاب، وعدّه الشيخ من خاصة الإمام الكاظم (عليه السلام) ومن ثقاته، ومن أهل الورع والعلم من شيعته.

وقال الشيخ الطوسي: إنه كان وكيلاً عند الإمام الصادق (عليه السلام) عشرين سنة وهو أحد رواة النص على إمامة الإمام الرضا (عليه السلام)، وهذا يظهر عدالته ووثاقته442.

66- نشيط بن صالح

ثقة، روى عن أبي الحسن موسى (عليه السلام) وله كتاب وروى العلامة أنه كان خادماً عند الإمام موسى وهو أحد رواة النص على إمامة الرضا.443

(هـ)

67- هشام بن سالم

الجواليقي الجعفي، وهو من عظماء هذه الطائفة ومن عيونها، روى عن أبي الحسن، وقد عيّنه الإمام الصادق (عليه السلام) للمناظرة في التوحيد مع رجل من أهل الشام، وفي هذا دلالة على وفور علمه وتقدّمه في الفضل، وقد اعترف له بالفضل والوثاقة كثير من مترجميه.444

68- هند بن الحجاج

عدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام) وذكر المترجمون له حديثاً مع الإمام الكاظم (عليه السلام) يدل على وثاقة الرجل واختصاصه بالإمام.445

69- الهيثم بن عبد الله

الرماني الكوفي، روى عن الإمام الكاظم (عليه السلام)، والإمام الرضا (عليه السلام) وله كتاب.446

70- هشام بن الحكم

من كبار علماء الأمّة الإسلامية وفي طليعة المدافعين عن مبدأ أهل البيت (عليهم السلام)، ناضل كثيراً وجاهد جهاداً مباركاً في نصرة الحق والدفاع عن الشريعة الإسلامية في عصر انعدمت فيه الحرّيات العامة، وكان الذاكر لفضائل أهل البيت (عليهم السلام) عرضة للتنكيل والانتقام من قبل الحكام العباسيين الذين بذلوا كل امكاناتهم من أجل إضعاف كيان آل الرسول (عليهم السلام). لكن هشاماً الجريء الشجاع لم يهتم بكل ذلك، بل ناظر خصومه وتفوّق عليهم، وقد تحدثت الأندية العلمية عن قوة استدلالية، وبراعة برهانه، الأمر الذي ينم عن مدى حبه لأهل البيت (عليهم السلام)، وهذه باختصار بعض شؤونه وأحواله.

ولادته: ولد بالكوفة، وليس لدينا نص يعين السنة التي ولد فيها.

نشأته: المرجح عند المترجمين أنه نشأ في مدينة واسط447 وكان يتعاطى التجارة وانتقل أخيراً إلى بغداد فنزل في جانب الكرخ في قصر وضاح448، كان من أصحاب الجهم بن صفوان 449 لكنه لما التقى بالإمام الصادق (عليه السلام) وحاوره الإمام فلم يعد يقدر على مفارقته أبداً، ومنذ ذلك الحين أخذ يتلقى العلم والمعارف منه حتى أصبح في طليعة العلماء ومن أفذاذهم.450

تخرجه: انقطع هشام إلى الإمام الصادق (عليه السلام) حتى أصبح من أبرز رجال مدرسته، ولما انتقل الإمام الصادق إلى دار الخلود اختص بولده الإمام الكاظم (عليه السلام) وأخذ يتلقى منه العلم والفضل وبذلك يكون قد أخذ العلم من منبعه الصحيح ونال شرف التلمذة عند أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

رواته: روى عنه جماعة من كبار الرواة الأحاديث التي سمعها من أهل البيت (عليهم السلام) وهم كثر توجد رواياتهم عنه في كتب الفقه والحديث من هؤلاء نذكر: محمد بن أبي عمير، صفوان بن يحيى البجلي الكوفي، النضر بن سويد الصيرفي الكوفي، نشيط بن صالح، يونس بن عبد الرحمن، حماد بن عثمان، علي بن معبد البغدادي ويونس بن يعقوب.451

اختصاصه: اختص هشام في علم الكلام فكان من كبار المتكلمين في عصره، ومناظراته التي أجراها مع كبار المفكرين تنمّ عن تفوّقه في هذا الفن، قال ابن النديم في ترجمته: كان هشام بن الحكم من متكلمي الشيعة، وممن فتق الكلام في الإمامة، وهذّب المذهب والنظر، وكان حاذقاً بصناعة الكلام.452

وقد ناظر هشام الفلاسفة في مختلف الميادين العلمية حتى تفوّق عليهم وكانت نوادي بغداد تعجّ بمناظراته القيّمة التي دلّت على تفوّقه في هذا الفن. ومن مناظراته هذه مناظرته مع عمرو بن عبيد.

طلب الإمام الصادق (عليه السلام) من هشام أن يقصّ عليه مناظرته مع عمرو الزعيم الروحي للمعتزلة، فامتثل هشام لأمر الإمام وأخذ يحدثه بقصته قائلاً له: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة، وعظم ذلك عليّ، لأنه كان ينكر الإمامة، ويقول:

مات رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بلا وصي، فخرجت إليه ودخلت البصرة فأتيت مسجدها، وإذا أنت بحلقة كبيرة، وإذا أنا بعمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء مؤتزر بها، وشملة أخرى مرتدٍ بها والناس يسألونه فاستفرجت الناس فأخرجوا لي، ثم قعدت في آخر القوم ثم قلت له: أيها العالم أنا رجل غريب، أتأذن لي أن أسألك عن مسألة؟ قال: نعم. فقلت له:

ألك عين؟ فما ترى بها؟ ـ أرى بها الألوان والأشخاص. ثم تابع يسأله... ألك أنف؟ ألك فم؟ ألك إذن؟ ألك يدان؟ ألك رجلان؟ ألك قلب؟ قال: أميز به كلما ورد على هذه الجوارح، فسأله هشام: أفليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ قال: لا.

قال هشام: وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة؟

فقال عمرو: يا بني، إن الجوارح إذا شكت في شيء شمته أو ذاقته، فتؤديه إلى القلب، فيتيقن اليقين، ويبطل الشك. فإنما أقام الله القلب لشكّ الجوارح؟ قال عمرو: نعم. فقال هشام: فلابدّ من القلب، وإلا لم تستيقن الجوارح؟ قال عمرو: نعم.

وبعدما أخذ هشام من عمرو هذه المقدمات كرّ عليه في إبطال ما ذهب إليه من أن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مات بلا وصي فقال له هشام:

(يا أبا مروان إن الله لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح، وينقي ما شكّت فيه، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكّهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد حيرتك وشكك؟!

فسكت عمرو ولم يطق جواباً لأن هشام قد سدّ عليه كل نافذة يخرج منها.

وكان له جولات عديدة أخرى ومناظرات مع كبار المفكرين منهم:

ـ يحيى بن خالد البركي: الذي طلب إليه أن يخبره هل يكون الحق في وجهتين مختلفتين؟ فأجابه بلباقة وحنكة.453

ـ وله مناظرة مع النظام الذي يسأل: هل أن أهل الجنة غير مخلدين فيها، وأنه لابدّ أن يدركهم الموت؟ فأجابه هشام وانصرف النظام مخذولاً لا يجد برهاناً على ما يذهب إليه.454

ـ ومع ضرار الضبي: الذي كان جاحداً للإمامة.

أجابه هشام قائلاً: (الإمام لابدّ له من علم يقيمه الرسول له، فلا يسهى، ولا يغلط، ولا يحيف، معصوم من الذنوب مبرأ من الخطايا يحتاج إليه ولا يحتاج إلى أحد)455.

فسكت ضرار أمام هذا المنطق المدعم بالدليل العقلي.

هذه بعض مناظرات لهذا العالم الكبير الذي فتق بها مباحث الفلسفة الكلامية، وبقيت من بعده مدداً مفيداً لكل من أراد الخوض في مثل هذه البحوث. وقد بقي جماعة يناظرون على مبادئه حتى في عصور متأخرة. نذكر منهم: أبا عيسى محمد بن هارون الوراق،وأحمد بن الحسين الراوندي وغيرهما... وقد وضع هذا الأخير كتابه: (فضيحة المعتزلة) هاجم فيه الآراء الاعتزالية ورجالها مهاجمة شديدة، معتمداً في كثير منها على آراء هشام. كما يظهر تأثيره من كتابه الذي وضعه في حدوث العلم، ونجد أثر ذلك في دفاع المعتزلة أنفسهم الذين عنوا بردها ونقضها ومنهم بشر بن المعتمر من أفضل علماء المعتزلة، فقد وضع كتاباً في الرد على هشام بن الحكم.456

وفاته: مؤامرة من يحيى بن خالد البرمكي حيث جمع المتكلمين واختفى هارون وراء الستر ولا يعلم بذلك هشام. ثم جرت بينه وبين الفلاسفة مناظرة: حول الإمامة، وأخيراً وبعد حوار طويل بينه وبينهم صرح هشام بأن الإمام إذا أمره بحمل السيف أذعن بقوله ولبى طلبه. ولما سمع الرشيد بذلك تغيرت حاله واستولى عليه الغضب، فأمر بإلقاء القبض على هشام وعلى أصحابه، وعلم بما ضمر له من الشر، فهام على وجهه فزعاً مرعوباً حتى انتهى إلى الكوفة، فاعتلّ فيها ومات في دار ابن شراف.457

مؤلفاته: كان هشام خصب الإنتاج ألف في مختلف الفنون والعلوم وبرز الجميع بها، لكن إن أغلب تراثه العلمي لم يعثر عليه سوى اليسير، وهذه بعض عناوينها:

1) كتاب الإمامة.
2) كتاب الدلالات على حدوث الأشياء.
3) كتاب الرد على الزنادقة.
4) كتاب على أصحاب الاثنين.
5) كتاب التوحيد.
6) كتاب الرد على هشام الجواليقي.
7) كتاب الرد على أصحاب الطبائع.
8) كتاب الشيخ والغلام.
9) كتاب التدبير.
10) كتاب الميزان.
11) كتاب الميدان.
12) كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول.
13) كتاب اختلاف الناس في الإمامة.
14) كتاب الوصية والرد على من أنكرها.
15) كتاب الجبر والقدر.
16) كتاب الحكمين.
17) كتاب الرد على المعتزلة في طلحة والزبير.
18) كتاب القدر.
19) كتاب الألفاظ.
20) كتاب المعرفة.
21) كتاب الاستطاعة.

22) كتاب الثمانية أبواب.
23) كتاب الرد على بعض الأصحاب.
24) كتاب الأخبار كيف تفتح.
25) كتاب الرد على أرسطاليس في التوحيد.
26) كتاب الرد على المعتزلة.458
27) كتاب المجالس في الإمامة.
28) كتاب علل التحريم
29) كتاب الرد على القدرية. وقد اطلع عليه الإمام موسى (عليه السلام) فقال: (ما ترك شيئاً).
30) كتاب الفرائض.459
وهذه المجموعة الضخمة من المؤلفات في شتى المواضيع تدل على ثروة هشام بن الحكم العلمية وعلى سعة إطلاعه وعمق ثقافته. ويكفي مناظراته القيّمة التي خاضها مع علماء الأديان والمذاهب وكبار الفلاسفة.

(ي)

71- يحيى بن عبد الرحمن

الأزرق، كوفي، ثقة، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن له كتاب يرويه عدّة من أصحابنا ووثّقه جماعة من الأعلام.460

72- يحيى بن عمران

ابن علي بن أبي شعبة الحلبي، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن (عليه السلام) ثقة، صحيح الحديث، له كتاب يرويه جماعة ووثّقه أكثر المترجمين له.461

73- يزيد بن سليط

عدّه الشيخ في رجاله والكشي وغيرهما من أصحاب الإمام الكاظم وذكر بعضهم أنه من خاصة الإمام ومن ثقاته، ومن أهل الورع والعلم والفقه وأحد الراوين النص على إمامة الإمام الرضا (عليه السلام) وله حديث طويل مع الإمام الكاظم (عليه السلام).462

74- يونس بن عبد الرحمن

مولى علي بن يقطين من كبار علماء الأمة الإسلامية، كان وحيد عصره في تقواه وورعه، تربّى في مدرسة الإمام الكاظم، وأخذ منه العلوم والمعارف، ومن بعده اختص بولده الإمام الرضا (عليه السلام).

ولادته: كانت ولادته في أيام هشام بن عبد الملك.463

نشأته: نشأ يونس على التقوى والصلاح وتغذى من علوم أهل البيت (عليهم السلام) وكان في جميع أدوار حياته مثالاً للتكامل الإنساني، قضى حياته في تحصيل العلوم من منبعها، من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وقد وردت في حقه والثناء عليه أخبار كثيرة من الأئمة (عليهم السلام).

روى عبد العزيز المهتدي قال: سألت الإمام الرضا (عليه السلام) فقلت له: إني لا ألقاك فمن آخذ معالم ديني؟ فقال (عليه السلام): خذ عن يونس بن عبد الرحمن.464 وقال عنه أيضاً: يونس في زمانه كسلمان في زمانه.

وعن الإمام الجواد (عليه السلام): أنه تصفّح كتاب يونس (يوم وليلة) فردّد قائلاً:

رحم الله يونس.465

علمه: كان علاّمة زمانه، كما قال ابن النديم466، اعترف له جميع المترجمين بغزارة علمه، وسعة اطلاعه ويقال أنه انتهى علم الأئمة (عليهم السلام) إلى أربعة نفر وهم: سلمان الفارسي، وجابر، والسيد، ويونس بن عبد الرحمن.

مؤلفاته: ألّف يونس كتباً كثيرة دلّت على تضلعه في كثير من العلوم، وهذه بعض مؤلفاته:

1- كتاب يوم وليلة عرض الكتاب على أبي محمد العسكري (عليه السلام) فقال: أعطاه الله بكل حرف نوراً يوم القيامة.467

2- كتاب علل الأحداث.

3- كتاب الصلاة.

4- كتاب الصيام.

5- كتاب الزكاة.

6- كتاب الوصايا والفرائض.

7- كتاب جامع الآثار.

8- كتاب البداء468.

9- كتاب السهو.

10- كتاب الأدب والدلالة على الخير.

11- كتاب الفرائض.

12- كتاب الجامع الكبير في الفقه.

13- كتاب التجارات.

14- كتاب تفسير القرآن.

15- كتاب الحدود.

16- كتاب الأدب.

17- كتاب المثالب.

18- كتاب علل النكاح وتحليل المتعة.

19- كتاب نوادر البيع.

20- كتاب الرد على الغلاة.

21- كتاب ثواب الحج.

22- كتاب النكاح.

23- كتاب الطلاق.

24- كتاب المكاسب.

25- كتاب الوضوء.

26- كتاب البيوع والمزروعات.

27- كتاب اللؤلؤ في الزهد.

28- كتاب الإمامة.

29- كتاب فضل القرآن.469

30- كتاب اختلاف الحديث.

31- كتاب مسائله عن أبي الحسن موسى.470

نظرة سريعة على عناوين هذه الكتب تدل دلالة واضحة على سعة معارفه، وإحاطته بمختف العلوم والفنون.

حسّاده: كل عبقري صاحب شأن لابدّ له من حسّاد حاقدين ينغّصون عليه عيشه، ويونس بن عبد الرحمن كان من أولئك الأفذاذ الموهوبين الذين خصّهم الله بمزيد من العلم والفضل. وقد شكا أمره إلى الإمام الكاظم (عليه السلام) فيما يتهمونه به فهدّأ الإمام روعه وقال له:

(ما يضرّك أن يكون في يدك لؤلؤة، فيقول الناس: هي حصاة، وما ينفعك أن يكون في يدك حصاة فيقول الناس لؤلؤة)471.

وفاته: اختاره الله إلى لقائه بعد أن أبلى بلاءً حسناً في الدفاع عن الإسلام والتبشير بمبدأ أهل البيت (عليهم السلام) وقد توفي في يثرب سنة 208هـ.472

ولما وصل نعيه إلى الإمام الرضا (عليه السلام) قال: انظروا إلى ما ختم الله ليونس قبضه بالمدينة مجاوراً لرسول الله (صلّى الله عليه وآله)473.

رحم الله يونس بن عبد الرحمن وجزاه عن الإسلام خير الجزاء، وحشره مع (الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً)474.

75- يونس بن يعقوب

ابن قيس، أبو علي البجلي الدهني الكوفي، اختص بأبي عبد الله (عليه السلام) وأبي الحسن (عليه السلام) وكان يتوكّل لأبي الحسن475 وعدّه الشيخ المفيد من فقاء أصحاب الصادقين (عليهما السلام) ومن الأعلام الرؤساء المأخوذ عنهم الحلال والحرام والفتيا والأحكام الذين لا يُطعن فيهم ولا طريق إلى ذم واحد منهم، وهم أصحاب الأصول المدوّنة، والمصنفات المشهورة 476 وممّا يدل على وثاقته أنه وكّله أبو عبد الله وأبو الحسن (عليه السلام) ليشتري لهما بعض الأشياء فلما اشترى ذلك وأوصله إليهما قال له أحدهما:

(ما أنت عندنا بمتهم، إنما أنت رجل منّا أهل البيت فجعلك الله مع رسول الله وأهل بيته) والله فاعل ذلك إن شاء الله.

توفي في يثرب وتولى تجهيزه الإمام الرضا (عليه السلام).

وهنا نذكر بعض أصحاب الإمام (عليه السلام) الذين عرفوا بكنيتهم منهم:

76- أبو زكريا

عدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام) وهو ثقة، وقد روى عن علي بن رباط.477

77- أبو شعيب

المحاملي، كوفي، ثقة من رجال أبي الحسن موسى (عليه السلام) وله كتاب.478

78- أبو يحيى

المكفوف، عدّه الشيخ في باب الكنى من أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام) وقال في (الفهرست) له كتاب، وكذا قال النجاشي واستفاد الحائري من مصاحبته للإمام أنه محل اعتماد.479

هؤلاء أصحاب الإمام وحملة حديثه، وقد اخترنا منهم عظماء العلماء، وكبار المؤلفين الذين زوّدوا العالم الإسلامي في عصرهم بنتاجهم الجليل ممّا يدل بوضوح أن النهضة الفكرية كانت تستند إلى أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فهم الذين فجّروا طاقاتهم في دنيا العرب.

وهذه الكوكبة من الرواة الأجلاء قد كشفت لنا جانباً مهماً من حياة الإمام (عليه السلام) ودلّت على أهمية الدور الذي قام به في رفع منار العلم ونشر الوعي الثقافي في ربوع العالم الإسلامي.
إن الانتماء إلى مدرسة الإمام الكاظم (عليه السلام) كان من موجبات الاعتزاز والفخر لأنها بلورت الحياة الفكرية في العالم الإسلامي وعملت على تقدّم المسلمين في جميع الميادين.

دروس مثالية من إمام مثالي

أهل البيت وما أدراك ما أهل البيت!! هم الصفوة المختارة التي اختارها الله جل وعلا أعلاماً منيرة على دروب الحياة لعباده، واجتباهم هداة لخلقه وحكاماً عليهم، وورثة لنبيه (صلّى الله عليه وآله) وسدنة الرسالة الإسلامية الدائمة. فقهوا الأحكام فعنهم أخذت، وعرفوا الحلال من الحرام فكانوا الأدلاء على الله، والمبشرين لدينه، والموضحين لمنهجه، عنهم أخذ علم الكتاب المجيد وما جاءت به السور.
والرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله) أمر الأمة باتباعهم وطاعتهم والامتثال لأمرهم، لكن حب الجاه والسلطان حدا بالمسلمين إلى التزاحم على الخلافة بعد وفاة الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله)، والنبي لم يدفن بعد، فزعموا هذا الأمر خوف الفتنة التي سقطوا فيها وعانوا من ويلاتها.
علم المسلمون أن الخلافة لهل البيت (عليهم السلام) لكنها تقلبت في أيدي غيرهم حتى وصلت إلى معاوية بن أبي سفيان الذي شقّ عصا الإسلام، وأحدث الفتن بين المسلمين، ولم يكتفِ القدر بهذا حتى أورثها إلى ابنه يزيد الفجور والخمور والرذيلة. واستمرت فيهم ما يقارب السبعين عاماً. قام بعد الأمويين العباسيون، فاستبدل الناس ظلماً بظلم، وجوراً بجور، هذا والأئمة الأعلام الأطهار ليس لهم أمر ولا نهي ولم يكتف الحكام الأمويون والعباسيون بتقمّصهم الخلافة بالقوّة، مستأثرين بها على أهل البيت (عليهم السلام) حتى أخذوا يتبعونهم قتلاً وسجناً وتشريداً؛ لكن الأئمة تحمّلوا مسؤولياتهم وتكاليفهم ولم يعبأوا بهذه الشدة والظلم، بل استمروا على تبليغ رسالتهم في صدّ التيارات الفكرية الفاسدة، ونشر التعاليم الإسلامية الصحيحة، وإعلاء كلمة الله تبارك وتعالى.
فملأوا الدنيا وشغلوا الناس بعلومهم الغزيرة ومعارفهم الرشيدة من أجل رفع راية الإسلام خفّاقة في العالم بأسره.
ولا غرو إن كانوا كذلك، فهم أحق من غيرهم في تسلّم الخلافة، لا بل المكلّفون بعد الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) بنشر الإسلام والمحافظة على السنن الإلهية، والشرائع الإسلامية.
والإمام موسى الكاظم (عليه السلام) هو سابع الأئمة المعصومين الذين عانى الأمرّين، وقاوم الظلم، وحافظ على رسالة جده (صلّى الله عليه وآله) ولم يدار ولم يداهن بل تحمّل المسؤولية الشرعية بكل جرأة وصبر، وقام بالتكاليف الملقاة على عاتقه من الإصلاح في أمة جده (صلّى الله عليه وآله) على حد قول جده سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) (لم أخرج أشراً ولا بطراً، وإنما خرجت طلباً للإصلاح في أمة جدي رسول الله (صلّى الله عليه وآله)).

الإمام الكاظم (عليه السلام) في حصار التكاليف

من الحاجات الفطرية للإنسان حياته الاجتماعية الشريفة مع سائر أبناء وأمته، هذه من الميول الطبيعية فيه التي تقوده إلى تحقيق ذاته.

وكل فرد في المجتمع يلتزم بمسؤولية خاصة وتكاليف خاصة عليه أن يقوم بأدائها على أكمل وجه. فإذا آمن كل واحد من أفراده بمسؤلياته التي قبلها في دائرة أعماله، ولم تتجاوز نشاطاته حدود ما رسم لنفسه منها يدار المجتمع عند ذلك بصورة صحيحة وسليمة.

والإنسان العاقل الناطق قد أحاطت به قيود وقواعد وأصول قد شملت كل شؤون حياته، وهذه الحدود والقيود هي التي تميزه عن الحيوان الأعجم على صعيد الحياة.

في حركة وسكون يجد كل منّا تكليفاً عليه، والتكاليف تبدأ من أبسط مراحل الحياة وتمتد حتى آخر حياته، وهذا هو النظام الذي تدار عليه حياة الإنسان. ولا يمكننا في أي حال أن نفصل بين الإنسان وبين تكاليفه، مهما كانت قدراته، فهناك تكليف عليه. اللهم إلا الموت، الذي يأخذ بتلابيب الإنسان ويطوي صحيفة أعماله.

والإنسان يلتزم بفطرته بمسؤوليات وقرارات، مع قطع النظر عن أحكام الأديان وأوامرها، والتكليف هذا ينشأ من علاقته بأوصافه وخصائصه وعواطفه المغروسة في نظام كيانه ووجوده، وإن كانت دوافعه إلى أداء تكاليفه مختلفة أو صعبة. وبإمكاننا القول:

إن القواعد العقلية العامة هي محور التكاليف، أما إطاعة الأحكام الدينية فإنها ترجع إلى اتباع القواعد والقرارات العقلية أيضاً، لأن أحكام الأديان وأوامرها في مراحل الحياة والمسائل الاجتماعية هي تفصيلات لإجمال المدركات العقلية ومعرفتها في الأمور الضرورية.

وليست المشكلة في معرفة التكاليف، بل المشكلة الكبرى هي العمل بالتكاليف الشاقة. وهنا يتميز كل إنسان من الاقتراب إلى مرحلة الكمال في إيمانه الراسخ والثابت والقوي، ومراقبة نفسه مراقبة دقيقة أمام الله عزّ وجلّ وتوطينها وتعويدها على التضحية والعطاء.

والمجتمع البشري وإن كان مرتعاً صالحاً لنمو الفضائل الإنسانية وظهورها وتكاملها، لكنه صالح أيضاً لظهور كثير من الرذائل والآفات.

والتكامل الاجتماعي يصاب بالركود والتوقف فيما إذا تجاوز كل فرد من الأفراد عن حدود وظائفه وتكاليفه، أو تناسى أو تنكر لمسؤولياته الكبرى الملقاة على عاتقه. فالنبتة المزروعة حديثاً بحاجة إلى عناية خاصة ومجهود خاص حتى تتطور فتصل في مراحل نموها إلى كمالها اللائق بها. والمجتمع قد يثمر ويتكامل ليس بموقعه الجغرافي وأوضاعه المادية، بل بأوضاعه التربوية الخاصة وإمكاناته المعنوية التي يقوم على أساسها المجتمع الفاضل الراقي. وفي هذا المجتمع الذي تسود فيه روح المعرفة بالتكاليف، ستكون الطهارة والصدق في ضمائر القلوب، وفي إدراكات العقول، وفي جميع شؤون الحياة الظاهرة للعيان.

إن مجتمعاً كهذا وضعه لا تنمو فيه الخيانة، ولا يظهر فيه العدوان على حقوق الآخرين، بل لا يسمح لها المجال للنمو والظهور، فيقف كل فرد فيه عند حدوده وأمام مفاسد أعماله فيحاسب نفسه ويمنعها من التجاوز عملاً بقول الرسول الأعظم: (رحم الله إمرءاً عرف حدّه فوقف عنده) ولا نضلّ الطريق إلا إذا تقاعسنا عن القيام بتكاليفنا وخفقنا تجاه واجبنا ومسؤولياتنا. فهناك كثير من الناس، مع ما لهم من إمكانات من مختلف الجهات يحاولون الاقتصاد في الإفادة من وجودهم ومن طاقاتهم، ولهذا نراهم يتهربون من المسؤوليات والأعمال التي تسلبهم بعض راحتهم وملذاتهم كما يزعمون، فهم يعيشون لأنفسهم ولا يخصصون قسماً من أوقاتهم يعود نفعها للآخرين. هؤلاء هم أصحاب الفكر الضيّق والنشاط المحدود، تدور أمورهم على محاور شخصيّة محدودة، فيعتادون على هذه الخصائص الروحية، ولهذا فلا يتمكنون من القيام بالأعمال الكبيرة، والقضايا الاجتماعية العظيمة فنراهم قد اختفوا في مجتمعهم ولم يبرزوا طاقاتهم الشخصية.

لكن هناك فئة أخرى من الناس لا تتسامح أبداً بالنسبة إلى مسؤولياتهم باي حال من الأحوال، ولا يصابون بأي اضطراب أو قلق نفسي على أثر التطورات والتغييرات؛ بل نراهم مستعدين دائماً للمبادرة بتكاليفهم الواجبة، ومسؤولياتهم النافعة، فيستقبلونها بكل رحابة صدر ويقومون بكل جهودهم فيها. إنهم يتصوّرون أن خير إفادة من وجودهم القيام بمهام مثمرة ومفيدة لأمتهم مهما كانت شاقة، وعلى هذا فكلما كان الإنسان أكثر رشداً، وأكمل عقلاً، وأبعد رؤية، كان اشتياقه إلى القيام بمسؤولياته أكثر، وإلى أداء تكاليفه أشد وأكبر.

تحقيق الأهداف السامية

قالوا: لولا الأمل لبطل العمل. إن الذي يملأ حياة الإنسان أملاً هو السعي لتحقيق الآمال العالية والمثمرة، وعلى كل إنسان أن يصمم على أن يبلغ مقاماً سامياً يليق بإنسانيته، فيعمل بكل ما أعطي من قوى وإمكانات ليقوم بتكاليفه ومهامه وخدمة أبناء مجتمعه.

وما نراه ونسمعه في مجتمعنا من بعض أفواه الناس يقولون:

نريد أن نقوم بعمل خير في حياتنا، لكن مسؤولياتنا وأعمالنا قد منعتنا من التوفيق في هذا الطريق، فقد غرقنا إلى حد بعيد في مهام الحياة ومشاغلها ولم تسمح لنا الفرص المناسبة لنتمكن فيها من تحقيق ما نصبوا إليه في حياتنا.

ولا ريب أن هذه من الأخطاء الشائعة والخطيرة في مجتمعنا، ذلك أن كلاً منا لديه الفرص الكثيرة التي تحيط به والتي يستطيع بكل سهولة من القيام بمهامه لو صمم وأراد؛ فيحصل على رضى ضميره ورضى مجتمعه ورضى ربه جلّ وعلا. من هنا كان قول الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله):

(الخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله) إلى جانب ذلك عليه أن لا يغفل عن تكاليفه العادية، وإن يقوم بأعمال جليلة فيها كل الخير له ولمجتمعه.

فالتكليف الواجب علينا جميعاً أن نفيد من الفرص الكثيرة التي تسمح لنا لنقوم بهذا التكليف؛ وسوف تتاح لنا فرص كثيرة في هذا السبيل. ونحصل على نجاح باهر وتوفيق هام، لأن جميع القوى الكامنة فينا تكفي للقيام بتكاليفها.

والذي يحتاج إليه العالم اليوم ويفتقده هو أن يكون له جماعة يفكّرون في تلبية نداء الآخرين وقضاء حاجاتهم، وعند القيام بمهام جليلة من أجل الآخرين ستنزل رحمة الله الواسعة على المعين والمستعين كليهما. أما ما نراه من ضغوط المجتمع الحاضر الذي سموّه (المجتمع الحديث) كما هو عليه اليوم ستفقدنا شخصيتنا شيئاً فشيئاً، وبالتالي سوف نفتقد آمالنا في الإبداع والظهور.

ولهذا فإن وصول هذا المجتمع إلى الحضارة الحقّة سوف يتأخّر ما دام الوضع كما هو عليه. وما هو السبب في ذلك؟

الحقيقة أن الخطأ الكبير لكل واحد منا هو أننا نعيش بأعين ليست بصيرة، فلا نلتفت إلى الفرص الجيدة التي تواجهنا، نعم علينا أن نفتح أعيننا جيداً ونتفحّص ما حولنا بدقة ومهارة لنقدم إلى كل الناس الخير العميم. فأسمى ما لدينا وافضل أمنياتنا أن نرهن وجودنا، ونمد أيدينا لعون الآخرين إلى حد التضحية والفداء. ومثلنا الأعلى في هذا المضمار الشريف الأئمة (عليهم السلام)، كل واحد منهم قام بتكاليفه كاملة، وضحّى بأغلى ما يملك في الوجود، فبذل النفس في سبيل الآخرين. والجود بالنفس أسمى غاية الجود!

إنّ أصغر شيء ينفقه رجل فقير الحال هو أفضل بكثير من الذي ينفق كبار الأغنياء، وكثيراً ما نسمع من البعض من يقول: لو كنت ثرياً لكنت أقدّم للناس الكثير الكثير من الأعمال والخدمات ولكن؟!

نقول لهؤلاء الذين يتمنون ولا يفعلون: إننا بإمكاننا أن نكون جميعاً أثرياء من حيث الحب والعطف والحنان لهم، فلو اكتشفنا الحاجة الحقيقية للمحتاجين، وحاولنا تلبيتها، نكون بذلنا في ذلك أفضل وأعز شيء لدينا لا وهو الحب لهم، والعطف عليهم، ممّا لا يقابله كل أموال الدنيا بأجمعها!

ولا يفوتنا أن نعلم أن بإمكاننا إذا حملنا أنفسنا على البحث والتنقيب بما يمكننا القيام به لاستطعنا تقديم الكثير الكثير من أعمال الخير والمساعدة للآخرين. وهذا العمل الروحي بحاجة إلى جرأة وتضحية ورحابة صدر وقوة إرادة، وتصميم أكيد على إسداء الفائدة المرجوّة والمحبة الخالصة لجميع الناس، وهذا بنظري أكبر اختيار وامتحان لكل إنسان في هذه الدنيا على الأرض.

ولكن علينا أن نعلم أيضاً أننا في هذا التكليف الشاق، وتحمّل المسؤولية بإمكاننا أن نجد السعادة الحقيقية. وهذا واقعاً ما قدّمه الأئمة، وقدّموا في سبيل الله، وعطفوا على عباد الله، فكسبوا بذلك رضى الناس ورضى الله سبحانه وتعالى.

بإرادة الإنسان تعمر الأوطان

خلق الإنسان حرّاً في أن يطيع أوامر ضميره الحيّ أو يعصيها، فكل واحد منّا يملك نفسه وإرادته فبإمكانه أن يختار الفضائل مثل:

الصدق، والشجاعة، والإيثار، والإحسان، والقول الحسن، والإخلاص، والوفاء، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتواضع، ومقاومة الهوى، والمحبّة، والصفاء، وكظم الغيظ.

أو أن يختار طريق الشهوات والرغبات والرذائل مثل: الكبرياء، والنميمة، والانقياد لهوى النفس، والغضب، والظلم، والحسد... فكل هذه الصفات من فضائل ورذائل هي تحت إرادته واختياره، وبإمكانه أن يحلّي نفسه بها بالسعي الدائم المشكور، والمحاولات المتواصلة، أو أن يختار عكس ذلك فينغمس في محيط متخلّف من الشهوات الرذيلة والميول الهوجاء، كما فعل الحكام الأمويون والعباسيون الذين غرقوا في مستنقع شهواتهم، وفجّروا في ظلمهم وجورهم من أجل حب التملّك وشهوة السلطان.

إن قوة الإرادة موهبة إلهية خيّرة لا ينبغي أن نتركها دون الإفادة منها، أو أن نصرفها في الأعمال البربرية والمنحطّة، بدلاً من أن نوظفها في تكاليفنا الشرعية. إن افتقاد الإرادة هو ضعف في اتخاذ التصميم والقرار، وهو سدّ مانع للقيام بتكاليفنا.

لكن الإفادة من الإرادة لهداية الضمير والوجدان من أجل الكفاح ضد الشهوات، وأهواء النفس، والانتصار على عبادة النفس صعب في بداية الأمر وهو بحاجة أكيدة إلى روح التضحية، ولابد من مواصلة السعي الدائم لتتقوّى روحية الإنسان تدريجياً، وتنمو أخلاقياته الفاضلة، وعندئذٍ يصبح العمل بالتكليف له أمراً عادياً جداً يتحمله المكلف بيسر وسهولة.

فلو كان الشعور بالمسؤولية قوياً في كيان الإنسان لم تعد الموانع التي تعترضه سبباً في ضعفه وانهزامه أمامها، أما إذا فشلت مساعيه ولم تثمر في مواجهة العوامل السلبية فلا أقل بأضعف الإيمان من أن يحصل على رضا ضميره وراحة نفسه، وسيكون مرفوع الرأس أمام نفسه وأمام مجتمعه وذلك أنه قدر على تحمّل خيبة الأمل والهزيمة من أجل أداء وظيفته، والقيام بدوره الإنساني ورسالته في الحياة.

وهنا أتذكّر وصية هامة نصح بها أب ابنه فقال له:

يا بني: كن أنت فقيراً لا مال في يديك، ودع الآخرين يثرون أمام عينيك بالخداع والتزوير والخيانة. عش أنت بلا جاه ولا مقام، ودع الآخرين يتسلّمون المناصب العالية بالخضوع السمج والإلحاح الملحّ. عانِ أنت الآلام والخيبة، ودع الآخرين يبلغون أمانيهم بالخضوع والتملّق. أعرض أنت عن طلب الجاه والسعي وراء الزعامة، ودع الآخرين يبلغون أمانيهم بالخضوع والتملق. أعرض أنت عن معاشرة كبار الرجال ممن يتفانى الآخرون للاقتراب منهم. من الأفضل لك أن تتقمّص لباس الفضيلة والتقوى. فإذا ابيضّ شعر رأسك ولم تلوث قطرة من سواد الفساد حسن صيتك وعلى شرفك فأدّ حقّ شكر الله، واستسلم بقلب مبتهج مسرور.

يتبين لنا من خلال هذه الوصية القيمة باختصار وكأن الأب يوصي ابنه بالبعد عن حكام بني مروان وبني العباس والاقتراب من أهل البيت (عليهم السلام) وبعدئذٍ يستسلم للموت بقلب مبتهج مسرور.

وما نراه أن الثواب والعقاب أمر ضروري في أداء التكاليف. فكما يفيد التنبيه والتوبيخ واللوم في التقليل من المفاسد، كذلك لا مجال للجدال في اثر التقدير والترغيب في زيادة الرغبة في العمل والنشاط في أداء التكاليف وتحمل المسؤولية. وقال أحد المفكرين الاجتماعيين:

ويل لأمة يشوّق فيها الخونة ويهان فيها الخدمة ذوو الشعور بالمسؤولية ويبعدون عن المناصب الحساسة في المجتمع. أمة يبلغ فيها مقاصده من يجعل همه الخداع والمراوغة، ويصل إلى مراده من لا يتمتع بأية قيمة من قيم الإنسانية. أمة يكون على من يريد أن يؤدي رسالة الإنسانية فيها أن يبقى محروماً مكظوماً من كل شيء. إن مثل هذا المجتمع لا يبقى فيه مال لنمو الأخلاق وظهور الفضيلة.

والعصر العباسي شاهد على ذلك فالإمام الكاظم (عليه السلام) العالم الفقيه، والتقي الورع، الذي أراد أن يؤدّي رسالة الإسلام الإنسانية الحقّة سائراً على خطى جده سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي قال: (ما خرجت أشراً ولا بطراً وإنما خرجت طلباً للإصلاح في أمة جدي) وهكذا فعل الإمام الكاظم (عليه السلام) فعندما أراد أداء التكاليف والقيام بالرسالة الإنسانية أبعد عن منصب الخلافة وسجن وقيّد بالحديد، ودسّ إليه السمّ حتى خسر بموته الإسلام عالماً مجاهداً كبيراً، ومصلحاً اجتماعياً عظيماً.

وبديهي أن في مثل هذه البيئة التي تشبه البيئة العباسية ستتفشّى الأمراض إلى أعماق النفوس، كالغش والفساد والتزوير والرياء؛ فالأخلاق السيئة تتصدر المجتمع بدلاً من النزاهة والأخلاق الفاضلة، فقليل جداً من الأشخاص الطاهرين الأتقياء يستطيعون العيش في مثل هذه البيئات الملوّثة، وأقل منهم الذين يستطيعون استمرار بطهارتهم وتقواهم، ويعيشون حياتهم الروحية بروح عالية وكريمة بين أناس طغاة أذلاء أنانيين سفهاء في هذه البيئة الملوّثة بالضغائن والأحقاد، استمر الإمام الكاظم (عليه السلام) مجاهداً لم يداهن ولم يساير ولم يلين، بل قاوم الطغاة وألف الجماهير، وقام بتكاليفه مع ما لاقى من الاضطهاد والآلام والعذاب.

وهنا يتجلى معنى الصبر الجميل على النوائب والدواهي وهنا تبرز البطولات الخالدة على صفحات التاريخ. فأين مزار هارون الرشيد والمنصور والهادي؟؟ لقد اندثرت معالمهم، ومات ذكرهم معهم وبقي ذكر الإمام الكاظم كأبيه وأجداده حيّاً نضراً فوّاحاً، كلما ذكر محمد وآل محمد (عليهم السلام). إن الشفاه التي ترتل اسمه (عليه السلام) كما ترتل آيات التنزيل، والقلوب التي تلهج بحبه، والعقول تتحرك بالإعجاب به، ليست وقفاً على المسلمين، ولا على الفئة الأولى من تاريخ الإسلام. فهذا أمر ينطبق على الذي يتفوّق بحال من الأحوال، أما أهل البيت فهم لكل حال ولكل الأجيال، والإمام الكاظم والأئمة جميعاً باقين في الوجود منذ أن أبدع الله الخير والمجد والكمال.

لقد ذهب الأمويون والعباسيون، وانطفأت قناديل حياتهم لأنهم كانوا محكومين بغرائز الإمرة والاستبداد وحب المال والضياع، أما الأئمة المعصومون فقد تمسّكوا بشريعة الإسلام وأحكامه، ومبادئ الرسول الأعظم وأخلاقه، فكان لهم مواقف ثابتة حافظوا عليها، وحقوق معلنة ماتوا دونها. قالوا كلمة الحق فلهج بها التاريخ، ووقفوا المواقف الحقّة فنسخت عن صحفهم البطولات، وبقيت مشاعل صدقهم وشهادتهم كواكب مشرقة قبالة الشمس، لأنها تستوحي من نهج رسول الله، وتتوهج من نور الله.

الحقيقة أن الكل هباء، فوات، تراب، فناء، ما لم يتطلع إلى سمو الحقيقة العليا، إلى الله جل جلاله. فهو وحده الذي يبقى، أما الذي لا يحب البقاء في رحاب رضوان الله فهو ميّت جسداً وذكراً، وله جهنم وبئس المصير. فالموقف الموقف، والصدق الصدق، والعدل العدل،والحق الحق، والصبر وكظم الغيظ، وهذه كلها من شمائل أئمتنا التي بها فُضِّلوا على الناس، ومن أجلها استشهد الشرفاء الأتقياء. والإمام الكاظم ذلك العظيم، هزئ بالموت فإذا به ذو عرش على قلوب الملايين، يحتل قلوبهم، ويتملّك مشاعرهم ومحبّتهم وحسب أنه قال للموت هازئاً به: قد تجيء أيها الموت في كل لحظة، وترمي بالأحياء في غيابات المجهول، ولكني لا أخافك ولا أهابك، أريد أن تموت أنت وإن أحيا أنا إلى الأبد أبقى قطرة في محيط التاريخ، وأتجاوز السنين والعصور وأبقى مع الخالدين.

سجلت أسمي في قلب كل مؤمن، وعلقت ذكري على صدور أصحاب المواقف الحقة، وبقيت حياً في خواطر الأبطال الذين أحبوا الحياة الحرة الكريمة.

وبعد أربعة عشر قرناً ونيف نجد أنصار أهل البيت يسطع من نفوسهم ضوء يهدي، وعطر يفوح، وصوت يهب سامعه إلى نجدة الحق، الحق المسلوب في فلسطين وفي جنوب لبنان والبقاع الغربي من الدولة المعتدية الغاشمة دولة الصهاينة. لكن المقاومة كانت لهم بالمرصاد حيث تلقنهم الدرس تلو الدرس كل يوم فهنيئاً لكل الشهداء الشرفاء الذين ضحّوا بدمائهم الطاهرة من أجل تحرير الأرض. لقد ساروا على الخط الحسيني وقاموا بتكاليفهم الشرعية بإرادة صامدة قويّة، وقلب عامر بالإيمان، ونفس مطمئنة.

كل ذلك في سبيل الإنسانية والحضارة الهادفة إلى الطمأنينة العامة والسعادة لجميع الناس، وكلتاهما جناحان نحو الصراط المستقيم.

إن الإنسان العادي في أي مجتمع يحتاج إلى تربية فردية صالحة في مجتمع إسلامي صالح يستند إليه، وهو بحاجة بلا ريب إلى نماذج بشرية صالحة تعرفه بأمثولة السلوك الصالح في حياته وتكون له قدرة تنير له الطريق إلى المثل العليا.

وهنا لابدّ لنا من التحدث عن دور الإيمان في الشعور بالمسؤولية.

دور الإيمان في التعهد بالتكاليف

إن التعهد بالتكاليف والشعور بالمسؤولية التي تحيط بالشؤون الاجتماعية من كل جهة، ومن أهم الأسس لسعادة الفرد والمجتمع على حد سواء، والتربية الإسلامية العريقة تبنى على أساس الشعور بالمسؤولية، فعلى كل مسلم أن يستند إلى إيمانه أولاً ثم إلى العمل الصالح ثانياً ليضمن سعادته في حياته، ولا يجعل شيئاً آخر سواهما مستنداً لسعادته الواقعية.

والإمام زين العابدين (عليه السلام) يصف تكاليف الإنسان في مختلف الشؤون فيقول: (إعلم يرحمك الله: إن لله عليك حقوقاً محيطة بك في كل حركة تحركتها أو سكنة سكنتها، أو منزلة نزلتها، أو جارحة قلبتها، أو آلة تصرفت بها بعضها أكبر من بعض).

والإسلام يرى أن كل أحد مسؤول عن أعماله، ولا يتحمل أي فرد مسؤولية الآخرين، قال تعالى: (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)480.

إن في أعماق الإنسان قوة تدعوه إلى أداء تكاليفها ومسؤولياته، وحينما يتقبل الإنسان دعوة ضميره ويبادر إلى أداء تكاليفه فإن تلك القوة الباطنية ستؤيده، وبعد فراغه من تكليفه تملأ نفسه سروراً وارتياحاً هذه القوة هي الضمير أو الوجدان الناشئ من أعماق فطرة الإنسان وهو الذي يحملنا على ترك الرذائل، والتمسّك بالأعمال الصالحات ولكن هل الضمير وحده يضمن تنفيذ الخير على يد الإنسان فيبعثنا على اتباع التعاليم الدينية ويكون مستنداً لأداء مختلف التكاليف؟؟ الحقيقة أن الضمير الأخلاقي بما له من أهمية في ضمان سعادة الإنسان فهو لا يتمكن في جميع الأوضاع والظروف أن يمنع سقوط الإنسان وانحرافه وعلينا بعد هذا أن نلتفت إلى دائرة عمل الضمير، حيث أن أحكامه تختلف باختلاف الظروف الزمانية، والعادات القومية، اختلافاً بيناً؛ فنشاط الضمير إنما هو في الدعوة إلى أمور قد أقر بحسنها وفضلها من قبل ذلك العرف والعادة والسنن الاجتماعية. فالمرفوض في أمة من الأمم قد يكون مفضّلاً ومحبّباً عند أمة أخرى على أساس سننها وأعرافها. ويدلنا التاريخ أن الشيطان قد زين في بعض أدوار الحياة البشرية أعمالاً هي من أقبح ما يكون في الواقع، ولكن تحت ستار الأعمال الصالحة، وتلقّاها الناس حينئذٍ بصفتها أعمالاً مقبولة لديهم.

قال تعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)481.

أضف إلى ذلك كله أن الضمير من دون أن يستند إلى مستند خاص لا يقدر على المقاومة في مواجهة كثير من أهواء النفس وحب المال والسلطان وطغيان الشهوات، وهو في ساحة كفاحه مع الغرائز يفتقد شيئاً من قوة مقاومته، وربما سقط أمام أول مجاهدة لميول النفس الأمارة بالسوء، فبإمكانها أن تقلب الحقائق وتخدع الضمير وتخمد من نور المصباح المضيء الذي ينور باطن الإنسان.

وهنا يأتي دور الإيمان، الإيمان الذي يهدي الضمير ويرشد الوجدان، ويكون مستنداً صحيحاً له، وحاكماً أميناً على العادات والتقاليد والأعراف، ولا يتكلف بتنفيذ أوامر العرف والسنن الاجتماعية.

إن الذين تيقظت في ذواتهم فطرة التوحيد وآمنوا بالله إيماناً صادقاً قد استجابوا لنداء ضمائرهم استجابة تامة ويرون اتباعها إطاعة للهداية التكوينية الإلهية، فلا يثقل على كواهلهم حمل التكاليف، بل يمنحهم قوة فاعلة ونشاطاً مباركاً فيبادرون إلى أداء تكاليفهم بكل محبّة ونشاط.

أسباب اعتقال الإمام (عليه السلام)

ما هي الأسباب التي دفعت بهارون الرشيد إلى اعتقال الإمام (عليه السلام)؟

1- احتجاج الإمام (عليه السلام)

من الأسباب التي حفّزت هارون الرشيد لاعتقال الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) وزجّه في غياهب السجون، احتجاجه عليه بأنه أولى بالنبي (صلّى الله عليه وآله) من جميع المسلمين، فهو أحد أسباطه ووريثه، وأنه أحق بالخلافة من غيره، وقد جرى احتجاجه معه عند قبر النبي (صلّى الله عليه وآله) وذلك عندما زاره هارون وقد احتفّ به الأشراف والوجوه وقادة الجيش وكبار الموظفين في الدولة، فقد أقبل بوجهه على الضريح المقدّس وسلّم على النبي (صلّى الله عليه وآله) قائلاً:

(السلام عليك ابن العم).

وبذلك بدا الاعتزاز والافتخار لهارون على غيره برحمه الماسة من النبي (صلّى الله عليه وآله) وإنه نال الخلافة لهذا السبب، قربه من الرسول (صلّى الله عليه وآله).

أما الإمام الكاظم (عليه السلام) فتقدم أمام الجمهور وسلّم على النبي (صلّى الله عليه وآله) قائلاً: (السلام عليك يا أبتِ).

عندها استولت على الرشيد موجات من الاستياء وكاد يفقد صوابه لأن الإمام (عليه السلام) قد سبقه إلى ذلك المجد، فاندفع قائلاً بصوت مشحون بالغضب: (ثم قلت إنك أقرب إلى الرسول (صلّى الله عليه وآله) منّا؟!).

فأجابه الإمام (عليه السلام) بهدوء كعادته وبجواب مفحم لم يتمكن الرشيد من الرد عليه. (لو بعث رسول الله حيّاً وخطب منك كريمتك هل كنت تجيبه إلى ذلك؟ فقال هارون:

سبحان الله!! وكنت أفتخر بذلك على العرب والعجم.

فانبرى الإمام وبيّن له الوجه الصحيح في قربه من النبي (صلّى الله عليه وآله) دونه قائلاً:

(لكنه لا يخطب منّي ولا أزوجه، لأنه والدنا لا والدكم، فلذلك نحن أقرب إليه منكم) وتابع (عليه السلام) مدعماً رأيه ببرهان آخر فقال لهارون:

(هل كان يجوز له أن يدخل على حرمك وهنّ مكشفات؟؟)

فقال هارون: لا.

فقال الإمام (عليه السلام): لكن له أن يدخل على حرمي، ويجوز له ذلك، وهذا يعني أننا اقرب إليه منكم. وبذلك يكون الإمام قد سدّ أمامه كل منافذ الدفاع بحججه الدامغة بعد أن ألبسه ثوب الفشل، وبيّن بطلان ما ذهب إليه، فهو أحق منه بالخلافة لأنه سبطه ووارثه.

عندها اندفع هارون حانقاً وأمر باعتقال الإمام (عليه السلام) وزجّه في السجن 482 ثم سأله الرشيد قبل دخوله السجن:

لمَ فضلتم علينا ونحن وأنتم من شجرة واحدة بنو عبد المطلب، ونحن وأنتم واحد، إنا بنو العباس، وأنتم ولد أبي طالب وهما عمّا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقرابتهما منه سواء؟

فقال (عليه السلام): نحن أقرب إليه منكم، قال هارون: وكيف ذلك؟

فقال (عليه السلام): لأن عبد الله وأبا طالب لأب وأم، وأبوكم العباس ليس هو من أم عبد الله، ولا من أم أبي طالب.

قال هارون: فلم ادعيتم أنكم ورثتم النبي (صلّى الله عليه وآله) والعم يحجب ابن العم، وقبض رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وقد توفى أبو طالب قبله. والعباس عمه حيّ؟

فقال (عليه السلام): إن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني عن هذه المسألة يسألني عن كل باب سواه يريد.

قال: لا، أو تجيب. فقال (عليه السلام): فآمنّي. قال: آمنتك قبل الكلام.

فقال (عليه السلام): إن في قول علي بن أبي طالب (عليه السلام): إنه ليس مع ولد الصلب ذكراً كان أو أنثى لأحد سهم إلا الأبوين، والزوج والزوجة، ولم يثبت للعم مع ولد الصلب ميراث، ولم ينطق به الكتاب العزيز والسنّة، إلا إن تيماً وعدياً وبني أمية قالوا: العم والد، رأياً منهم بلا حقيقة ولا أثر عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، ومن قال بقول علي من العلماء قضاياهم خلاف قضايا هؤلاء، هذا نوح بن دارج يقول في هذه المسألة بقول علي، وقد حكم به، وقد ولاّه أمير المؤمنين المصرين:

الكوفة والبصرة، وقضى به.

فأمر هارون الظالم بإحضار من يقول خلاف قوله. منهم: سفيان الثوري وإبراهيم المازني، والفضيل بن عياض، فشهدوا جميعهم أنه قول علي (عليه السلام) في هذه المسألة.

فقال لهم: لما لا تفتون وقد قضى نوح بن دارج؟ فقالوا:

جسر وجبنا، وقد أمضى أمير المؤمنين قضيته بقول قدماء العامة عن علي أقضانا، وهو اسم جامع، لأن جميع ما مدح به النبي (صلّى الله عليه وآله) أصحابه من القرابة، والفرائض، والعلم، داخل في القضاء.

قال هارون: زدني يا موسى.

فقال (عليه السلام): المجالس بالأمانات وخاصة مجلسك.

فقال هارون: لا بأس.

فقال (عليه السلام): النبي (صلّى الله عليه وآله) لم يورث من لم يهاجر ولا اثبت له ولاية حتى يهاجر. وعمّي العباس لم يهاجر.483

2ـ تعيينه لفدك484

وسبب آخر أغاظ نفس هارون على الإمام (عليه السلام) ودعاه إلى اعتقاله، حتى والتخلص منه، تعيينه لفدك بأنها تشمل أكثر المناطق الإسلامية وذلك حينما سأله هارون عنها ليرجعها إليه فلم يرضَ (عليه السلام) إلا أن يأخذها بحدودها، فقال الرشيد:

ـ ما هذه الحدود؟ فقال (عليه السلام): إن حددتها لم تردها لنا.

فأصرّ الرشيد عليه أن يبينها له قائلاً: بحق جدك إلا فعلت.

عند ذلك لم يجد الإمام بداً من إجابته، فقال له:

(أما الحد الأول): فعدن. فلما سمع الرشيد ذلك تغيّر وجهه.

وأما الحدّ الثاني: (سمرقند). فأربد وجه الحاكم الظالم واستولت عليه موجة من الغضب، لكن الإمام (عليه السلام) بقي مستمراً دون أن يأبه له.

والحد الثالث: (إفريقيا). فاسودّ وجه الرشيد وقال بصوت يقطر غيظاً (هيه) ثم عيّن الإمام (عليه السلام) الحد الرابع والأخير قائلاً:

والحد الرابع: (سيف البحر ممّا يلي الجزر وأرمينية).

فثار الرشيد ولم يملك أعصابه دون أن قال:

ـ لم يبق لنا شيء!!

ـ فقال الإمام (عليه السلام): (قد علمت أنك لا تردّها).

وتركه الإمام (عليه السلام) والكمد يحزّ في نفسه، فأضمر له الشر منتظراً الوقت المناسب للتنكيل به.485

لقد بيّن الإمام (عليه السلام) للرشيد أن العالم الإسلامي بجميع أقاليمه من عدن إلى سيف البحر ترجع سلطته له، وإن الرشيد من سبقه من الخلفاء قبله قد استأثروا وغصبوا الخلافة من أهل البيت (عليهم السلام).

3ـ حرص الرشيد على الملك

كان هارون الرشيد يحصر حرصاً شديداً على ملكه، يضحّي في سبيل السلطة جميع المثل والقيم والمقدسات. وقد عبّر عن مدى تفانيه في حب السلطة بكلمته الحقيرة التي تناقلتها الأجيال وهي:

(لو نازعني رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على السلطة لأخذت الذي فيه عيناه).

أجل لو نازعه الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله) لأخذ الذي فيه عيناه، فكيف لو نازعه الإمام (عليه السلام)؟! فهل يمكن أن يخلّي عن سراحه؟ هذا والذي يحزّ في نفسه إجماع الناس على حب الإمام (عليه السلام) وتقديرهم له.

لذلك كان يخرج متنكراً بغير زيّه ليسمع أحاديث العامة،ويقف على رغبتهم واتجاههم، فلا يسمع إلا الذكر العاطر، والحبّ الجامع والثناء على الإمام (عليه السلام).

كل الناس يحبونه، كل الناس يرغبون في أن يتولّى شؤونهم، فلذلك أقدم على ارتكاب فعلته الشنعاء والموبقة حتى انتهى به الأمر إلى قتل الإمام (عليه السلام).

4- بغضه للعلويين

ورث هارون الرشيد بغضه للعلويين عن آبائه الذين نكّلوا بهم، وصبّوا عليهم ألواناً من العذاب والاضطهاد والقتل والتشريد. فمنهم من ساقوهم إلى السجون، ومنهم إلى القبور. طاردوهم في كل ناحية حتى هربوا هائمين على وجوههم يلاحقهم الخوف والفزع والرعب.

أما هارون قد أترعت نفسه ببغض العلويين فزاد على أسلافه جوراً وظلماً وإرهاباً حتى أشاع الحزن والثكل والحداد في كل بيت من بيوتهم. استعمل جميع إمكانياته للبطش بهم، ففرض عليهم الإقامة الجبرية في بغداد، وجعلهم تحت المراقبة الدقيقة، ولم يسمح للاتصال بهم، وحرمهم من جميع حقوقهم الاجتماعية. حتى أنه دفن البعض منهم أحياء.

وطبيعي أنه لا يترك عميد العلويين الإمام الكاظم (عليه السلام) في دعة واطمئنان، ولم يرق له محبة الجماهير للإمام، فنكّل به ودفعه لؤمه وعداؤه الموروث إلى سجنه وحرمان الأمة الإسلامية من الاستفادة بعلومه، ومن سموّ نصائحه وصواب توجيهاته.

لقد استقبل إمامته التي استمرت خمسة وثلاثين عاماً في هذا الجور المشحون بالحقد والكراهية لأهل البيت بصورة عامة، فلزم جانب الحذر واعتصم بالكتمان إلا عن خاصته. حتى أن رواته قلّما كانوا يروون عنه باسمه الصريح. لكن كل ذلك لم ينجيه من سجن الطاغية هارون.

5- الوشاية بالإمام (عليه السلام)

ضمائر رخيصة انعدمت من نفوسهم الإنسانية، فعمد فريق منهم فباعوا دينهم بثمن رخيص، فوشوا بالإمام (عليه السلام) عند الطاغية هارون ليتزلّفوا إليه بذلك وينالوا في دنياهم الفانية بعض جوائزه.

وقد بلي بهم الإسلام والمسلمون فاستعان الظالمون بهؤلاء الأوغاد في جميع مراحل التاريخ على تنفيذ خططهم الإرهابية الرامية إلى إشاعة الظلم والجور والفساد في الأرض. وقد نرى بعضاً منهم في هذه الأيام. كانت وشاية هؤلاء المجرمين بالإمام (عليه السلام) ذات طوابع متعددة.

أ) طلبه للخلافة

سعى فريق من باعة الضمير بالوشاية على الإمام (عليه السلام) عند هارون فأوغروا صدره، وأثاروا كوامن الحقد عليه، فقالوا: إنه يطالب بالخلافة، ويكتب إلى سائر الأقطار والأمصار الإسلامية يدعوهم إلى نفسه، ويحفّزهم إلى الثورة ضد الحكومة. وكان في طليعة هؤلاء يحيى البرمكي.

قال ليحيى بن أبي مريم: ألا تدلّني على رجل من آل أبي طالب له رغبة في الدنيا فأوسع له منها؟

فقال له: نعم، ذاك علي بن إسماعيل بن جعفر، فأرسل خلفه يحيى وكان آنذاك في الحج، فلما اجتمع به قال له يحيى: أخبرني عن عمّك موسى، وعن شيعته وعن المال الذي يحمل إليه.

فقال: عندي الخبر وحدثه بما يريد، فطلب منه أن يرحل معه إلى بغداد ليجمع بينه وبين هارون، فأجابه إلى ذلك.
فلما سمع الإمام الكاظم (عليه السلام) بسفره مع يحيى بعث خلفه فقال له: بلغني انك تريد السفر؟
ـ قال: نعم. فقال له الإمام: إلى أين؟ فقال: إلى بغداد. فقال له الإمام: ما تصنع؟ فقال: عليّ دين وأنا مملق.
ـ أنا أقضي دينك، وأكفيك أمورك.
فلم يلتفت إلى الإمام لأن الشيطان قد وسوس له فأجاب داعي الهوى، وترك الإمام وقام من عنده، فقال (عليه السلام) له:
لا تؤتم أولادي، ثم أمر (عليه السلام) له بثلاثمائة دينار وأربعة آلاف درهم، وقال (عليه السلام): والله ليسعى في دمي ويؤتم أولادي فقال له أصحابه.
جعلنا الله فداك فأنت تعلم هذا من حاله، وتعطيه؟!!
فقال (عليه السلام): حدثني أبي عن آبائه عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أنه قال:
إن الرحم إذا قطعت فوصلت قطعها الله.
وخرج علي يطوي البيداء حتى انتهى إلى بغداد، فدخل على الرشيد فقال له بعد السلام عليه: ما ظننت أن في الأرض خليفتين حتى رأيت عمي موسى بن جعفر يسلّم عليه بالخلافة.
وقيل أنه قال له: إن الأموال تحمل إليه من كل النواحي، وإن له بيوت أموال، وإنه اشترى ضيعة بثلاثين ألف دينار، وسماها (اليسيريّة) فلما سمع هارون هذا الكلام أحرقه الغيظ وفقد صوابه، وأمر لعلي بمائتي ألف درهم على أن يستحصلها من بعض نواحي المشرق فمضت الرسل لجباية المال إليه، فدخل العميل الذي باع آخرته بدنياه بيت الخلاء فزحر فيه وسقط أمعاؤه. فأخرج منه وهو يعاني آلام الموت فقيل له: إن الأموال قد وصلتك فقال:
ما أصنع بها والموت قد وصلني معها؛ وقيل أنه رجع إلى داره فهلك فيها في تلك الليلة التي اجتمع بها 486 مع الطاغية هارون. فقد ذهب المال منه وبقي عليه الخزي والعذاب الأليم.
ب) جباية الأموال
وسبب آخر أثار كوامن الغيظ والحقد في نفس هارون، وهو جباية الأموال، عمد بعض الأشرار بإخباره أن الإمام قد اشترى ضيعة تسمى (اليسيريّة) جمعها (عليه السلام) من الأموال التي تجبى إليه عن طريق الخُمس من كل صعيد فكمن للإمام الشرّ ليوقع به.
وكانت سياسته المكشوفة تجاه العلويين تقضي بفقرهم ووضع الحصار الاقتصادي عليهم، فإن فقرهم أجدى له وأنفع من غناهم ـ كما أوصى ولده المأمون ـ لأن المال كان ولم يزل عنصراً هاماً في سياسة الأشخاص وسياسة الدول، فهو سلاح ذو حدين يستعمل للمصالح الخيرية كما يستعمل للشر عن طريق الجماعة الباغية.
وقد ذهب ابن الصباغ إلى أن هذه الوشاية من جملة الأسباب التي دعت إلى سجن الإمام (عليه السلام).487
6ـ سموّ شخصية الإمام (عليه السلام)
كان الإمام (عليه السلام) كما هو معروف من قبل علماء عصره، من ألمع الشخصيات الإسلامية، فهو إمام معصوم ابن إمام معصوم، وأحد أوصياء الرسول (صلّى الله عليه وآله) على أمته. وقد أجمع المسلمون على اختلاف مذاهبهم على إكبار الإمام وتقديره. فكلهم نهلوا من علومه وأخلاقه، وكلهم تمثلوا بتقواه وورعه وكلهم أحبوه لسخائه وكرمه. حتى أن أعداءه كانوا يحترمونه ويبجلونه، وهارون الرشيد نفسه يبجّله ويعتقد ضميرياً بأن الإمام (عليه السلام) أولى بالخلافة الإسلامية منه، كما حدّث بذلك لابنه المأمون.

فقد قال لندمائه: أتدرون من علّمني التشيّع؟

فانبروا جميعاً قائلين: لا والله ما نعلم.. فقال: علّمني ذلك الرشيد.

فقالوا: كيف ذلك؟ والرشيد كان يقتل أهل هذا البيت؟!

قال: كان يقتلهم على المُلك لأن المُلك عقيم، ثم أخذ يحدّثهم عن ذلك قائلاً: لقد حججت معه سنة فلما انتهى إلى المدينة قال: لا يدخل عليّ رجل من أهلها أو من المكيّين سواء كانوا من أبناء المهاجرين والأنصار أو من بني هاشم حتى يعرّفني بنسبه وأسرته، فأقبلت إليه الوفود تترى وهي تعرّف الحاجب بأنسابها، فيأذن لها، وكان يمنحها العطاء حسب مكانتها ومنزلتها، وفي ذات يوم أقبل الفضل بن الربيع حاجبه يقول له: رجل على الباب، زعم أنه موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام).

فلما سمع هارون بهذا الاسم الشريف أمر جلساءه بالوقار والهدوء، ثم قال لرئيس تشريفاته: إئذن له، ولا ينزل إلا على بساطي.

وأقبل الإمام (عليه السلام) وقد وصفه المأمون فقال: إنه شيخ أنهكته العبادة، والسجود يكلم وجهه. أما هارون فقام ولم يقبل إلا أن ينزل الإمام عن دابته على بساطه، ونظر إليه بكل إجلال وإعظام فقبّل وجهه وعينيه، وأخذ بيده حتى صيّره في صدر مجلسه والحجّاب وكبار القوم محدقون به. ثم أقبل يسأله عن أحواله ويحدّثه. ثم قال له:

ـ يا أبا الحسن ما عليك من العيال؟ قال الإمام: يزيدون على الخمسمائة.

ـ أولاد كلهم؟ قال الإمام (عليه السلام): لا، أكثرهم مواليّ وحشمي فأما الأولاد فلي نيّف وثلاثون. ثم بيّن له عدد الذكور والإناث.

ـ لِمَ لا تزوّج النسوة من بني عمومتهن؟ قال الإمام: اليد تقصر عن ذلك.

ـ فما حال الضيعة؟ قال الإمام: تعطي في وقت وتمنع في آخر.

ـ فهل عليك دين؟ قال الإمام (عليه السلام): نعم.

ـ كم؟ قال الإمام (عليه السلام): نحو من عشرة آلاف دينار.

ـ يا ابن العم، أنا أعطيك من المال، ما تزوّج به أولادك، وتعمر به الضياع.

ـ قال الإمام (عليه السلام): وصلتك رحم يابن العم، وشكر الله لك هذه النية الجميلة، والرحم ماسة واشجة، والنسب واحد، والعباس عم النبي (صلّى الله عليه وآله) وصنو أبيه، وعم علي بن أبي طالب وصنو أبيه، وما أبعدك الله من أن تفعل ذلك وقد بسط يدك، وأكرم عنصرك، وأعلى محتدك.

ـ أفعل ذلك يا أبا الحسن، وكرامة.

فقال له الإمام (عليه السلام): إن الله عزّ وجلّ قد فرض على ولاة العهد أن ينعشوا فقراء الأمة، ويقضوا على الغارمين، ويؤدوا عن المثقل ويكسوا العاري، وأنت أولى من يفعل ذلك.

ـ افعل ذلك يا أبا الحسن.

فانصرف الإمام (عليه السلام) وقام هارون فودّعه وقبّل وجهه وعينيه، ثم التفت إلى أولاده فقال لهم: قوموا بين يدي عمكم وسيدكم، وخذوا بركابه وسووا عليه ثيابه، وشيّعوه إلى منزل، فانطلقوا مع الإمام بخدمته وأسرّ الإمام (عليه السلام) إلى المأمون فبشّره بالخلافة وأوصاه بالإحسان إلى والده، ولما انتهوا من خدمة الإمام (عليه السلام) وإيصاله إلى داره. قال المأمون كنت أجرأ ولد أبي عليه، فلما خلا المجلس قلت له:

(يا أمير المؤمنين، مَن هذا الرجل الذي عظّمته وقمت من مجلسك إليه فاستقبلته وأقعدته في صدر المجلس، وجلست دونه ثم أمرتنا بأخذ الركاب له)؟

قال هارون: هذا إمام الناس، وحجّة الله على خلقه، وخليفته على عباده.

قال المأمون: يا أمير المؤمنين أو ليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟

قال هارون: أنا إمام الجماعة في الظاهر بالغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام الحق، والله يا بني: إنه لأحق بمقام رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مني ومن الخلق جميعاً، ووالله لو نازعتني أنت هذا الأمر لأخذت الذي فيه عينيك فإن المُلك عقيم.

فيا سبحان الله عرف الحق ونطق به، ثم انحرف عنه حباً بالتملك والسلطان.

اهتم هارون بدنياه ونسي أو تناسى اليوم الآخر، يوم لا ينفع لا مال ولا ولد ولا سلطان!!

بقي هارون في يثرب عدة أيام، ولما أزمع على الرحيل منها أمر للإمام بصلة ضئيلة جداً قدرها مائتا دينار، وأوصى الفضل بن الربيع أن يعتذر له عند الإمام. فانبرى إليه ولده المأمون مستغرباً من قلّة صلته مع كثرة تعظيمه وتقديره الزائد له قائلاً:

(يا أمير المؤمنين تعطي أبناء المهاجرين والأنصار، وسائر قريش وبني هاشم، ومن لا يعرف نسبه خمسة آلاف دينار، وتعطي الإمام موسى بن جعفر وقد عظمته وأجللته مائتي دينار وهي أخس عطية أعطيتها أحداً من الناس)؟ فغضب هارون وصاح على ابنه قائلاً: (اسكت، لا أم لك، فإني لو أعطيت هذا ما ضمنته له ما كنت آمنه أن يضرب وجهي بمائة ألف سيف من شيعته ومواليه، وفقر هذا وأهل بيته أسلم لي ولكم من بسط أيديهم)488.

يتوضح من خلال هذه الرواية وغيرها اعتقاد هارون بإمامة موسى (عليه السلام) وأنه خليفة الله في أرضه، وحجّته على عباده، وأن الخلافة الإسلامية من حقوقه الخاصة، وهو أولى بها منه، لكن الذي حدث عكس ذلك لأن حب الدنيا وزهوة السلطان هو الذي سلبها منه ومن آبائه من قبله. فالمُلك عقيم، كما كشف هارون عن نفسه في حديثه مع ابنه المأمون، السبب الأساسي في حرمانه الإمام الكاظم (عليه السلام) من عطائه حسب منزلته.

عقدة الخوف تطارده دائماً، وهي انتفاضة الإمام وخروجه عليه إن تحسنت أحواله الاقتصادية.

وهذا هو الحرب الذي تستعمله الدول المستعمرة مع خصومها اليوم من أجل إنهاكها وإضعافها. لكن الليل سوف يزول مهما تأخر طلوع الصباح.

كان الرشيد يعلم بمكانة الإمام الاجتماعية، وكفاءته العلمية، ومحبّة الناس له، وتقديرهم لمواهبه، وهو نفسه يعتقد أن الإمام وارث علوم الأنبياء، وخليفة الله الحق على عباده، فكان يسأله دائماً عما يجري من الأحداث، والإمام (عليه السلام) لم يبخل عليه بأي جواب.

وقد سأله عن الأمين والمأمون، فأخبره بما يقع بينهما، فحزّ ذلك في نفسه، وتألّم كثيراً.

روى الأصمعي قال: دخلت على الرشيد، وكنت قد غبت عنه بالبصرة حولاً، فسلّمت عليه بالخلافة، فأومأ لي بالجلوس قريباً منه فجلست، ثم نهضت، فأومأ لي ثانية أن أجلس فجلست حتّى خفّ الناس، ثم قال لي: (يا أصمعي ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله ابنيّ؟).

قلت: (بلى يا أمير المؤمنين، إني لأحب ذلك، وما أردت القصد إلا إليهما لأسلّم عليهما).

أمر الرشيد بإحضارهما، فأقبلا حتى وقفا على أبيهما، وسلّما عليه بالخلافة، فأومأ لهما بالجلوس، فجلس محمد عن يمينه، وعبد الله عن يساره ثم أمرني بمطارحتهما الأدب، فكنت لا ألقي عليهما شيئا في فنون الأدب إلا أجابا فيه، وأصابا، فقال الرشيد: كيف ترى أدبهما؟

ـ يا أمير المؤمنين ما رأيت مثلهما في ذكائهما، وجودة فهمهما، أطال الله بقاءهما ورزق الله الأمة من رأفتهما وعطفهما.

فأخذهما الرشيد وضمّهما إلى صدره، وسبقته عبرته فبكى حتى انحدرت دموعه على لحيته، ثم إذن لهما في القيام فنهضا، وقال:

(يا أصمعي كيف فهما إذا ظهر تعاديهما، وبدا تباغضهما، ووقع بأسهما بينهما، حتى تسفك الدماء، ويود كثير من الأحياء أنهما كانا موتى) فبهر الأصمعي من ذلك وقال له:

(يا أمير المؤمنين هذا شيء قضى به المنجّمون عند مولدهما، أو شيء أثرته العلماء في أمرهما!!).

فقال الرشيد بلهجة الواثق بما يقول:

(لا، بل شيء أثرته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء في أمرهما..).

قال المأمون: كان الرشيد قد سمع جميع ما يجري بيننا من موسى بن جعفر.489

إن علم الرشيد بسموّ منزلة الإمام، وبما تذهب إليه جموع المسلمين من القول بإمامته هو الذي أثار غضبه، وزاد في أحقاده عليه، ممّا دعاه إلى زجّه في السجن أعواماً طويلة.

كان الحقد على العلويين عامة والإمام موسى (عليه السلام) خاصة من مقومات ذات الرشيد، ومن أبرز صفاته النفسية، وكان يحمل حقداً لكل شخصية مرموقة لها المكانة العليا في مجتمعه، ولم يرق له بأي حال أن يسمع الناس يتحدّثون عن أي شخص يتمتع بمكانة عليا، محاولاً احتكار الذكر الحسن لنفسه ولذاته؛ لكن الليل لا يستطيع منع الفجر من الطلوع، فالفجر يطلع والشمس تسطع بنورها الكاشف، والجمهور يميّز بين الظلام والنور.

7ـ صلابة موقف الإمام (عليه السلام)

كان صلحاء الأمة يقاومون الظلم في كل عهوده وفي كل ألوانه، لأن ذلك واجب شرعي أوصى عليه الله عزّ وجلّ في كتابه، وأوصى عليه الرسول (صلّى الله عليه وآله) في أحاديثه الشريفة، وقاومه الأئمة (عليهم السلام) كل واحد منهم حسب الظرف المناسب له. قال تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)490.

والإمام موسى الكاظم ابن أبيه وأجداده (عليهم السلام) كان موقفه مع هارون الرشيد الطاغية الظالم موقفاً سلبياً، تمثلت فيه صلابة الحق وصرامة العدل.

فقد حرّم على شيعته التعاون مع السلطة الحاكمة بأي وجه من الوجوه.

من ذلك ما قاله لصاحبه صفوان وكان صاحب جمال يكريها لهارون أيام حج بيت الله الحرام، افهمه أن التعامل مع الظالمين حرام، فاضطرّ صفوان لبيع جماله، فعرف هارون، ممّا دفعه إلى الحقد على صفوان وهمّ بقتله.

وكذلك منع الإمام (عليه السلام) زياد بن أبي سلمة من وظيفته في بلاد هارون عملاً بقول الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله)، عن أبيه الصادق عن أبيه، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: (قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): من أرضى سلطاناً بسخط الله خرج من دين الله)491.

لقد شاعت في الأوساط الإسلامية فتوى الإمام الكاظم بحرمة الولاية من قبل هارون الطاغية وأضرابه من الحكام الظالمين، فأوغر ذلك قلب هارون وساءه إلى أبعد الحدود، فترقّب له ساعة الوقوع به.

ونوجز القول: إن موقف الإمام مع هارون كان موقفاً صريحاً واضحاً، لم يصانع ولم يتسامح معه على الإطلاق.

فقد دخل عليه في بعض قصوره الأنيقة والفريدة في جمالها في بغداد، فانبرى إليه هارون وقد أسكرته نشوة الحكم قائلاً:

ما هذه الدار؟ فأجابه الإمام (عليه السلام) غير مكترث بسلطانه وجبروته قائلاً: (هذه دار الفاسقين) قال الله تعالى في كتابه العزيز:

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)492.

لما سمع هارون هذا الكلام سرت الرعدة في جسمه، وامتلأ قلبه غيظاً فقال للإمام: دار من هي؟

ـ هي لشيعتنا فترة، ولغيرهم فتنة.

ذلك أن المؤمن كل ما يملك هو وكيل عليه يملكه فترة ويتركه لغيره هو زاهد في الدنيا، والشيعة هم كذلك وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي لقب بـ(أبي تراب) وخاطب الدنيا قائلاً: (فقد طلّقتك ثلاثاً فلا رجعة لك عندي).

ـ ثم سأله هارون: ما بال صاحب الدار لا يأخذها؟

ـ أجابه الإمام: أخذت منه عامرة، ولا يأخذها إلا معمورة.

ـ أين شيعتك؟

ـ فتلا الإمام قول الله عزّ وجلّ: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)493.

فثار هارون ثورة عارمة وقال بصوت يقطر غضباً:

ـ أنحن كفار؟

ـ لا، ولكن كما قال الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)494.

فغضب هارون وأغلظ على الإمام (عليه السلام) في كلامه.495

من الواضح والمعروف مسبقاً أن موقف الإمام (عليه السلام) مع هارون موقف واضح وصريح لا يقبل الرد ولا يقبل المهادنة، لأنّ هارون مغتصب لمنصب الخلافة التي هي من حق علي بن أبي طالب والأئمة المعصومين من بعده. فالعباسيون اختلسوا السلطة، وخانوا الأمانة والعهد لقد استلموا السلطة باسم العلويين، وتبنّوا شعارهم، ولما جلسوا على كرسي الحكم خانوا العهد، واشتروا به وبأيمانهم ثمناً قليلاً.

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)496.

هذه هي أهم الأسباب التي دعت هارون الرشيد إلى اعتقال الإمام (عليه السلام).

وأيضا: قال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد وابتدأ بالطواف، ومنعت العامة من ذلك لينفرد وحده، فبينما هو في ذلك إذ ابتدر أعرابي وجعل يطوف معه.

فقال الحاجب: تنح يا هذا عن وجه الخليفة: فانتهره الأعرابي وقال: إن الله يساوي بين الناس في هذا الموضع فقال: (سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ)497.

فأمر الحاجب بالكف عنه.

ولما فرغ الأعرابي من صلاته استدعاه الحاجب وقال له: أجب أمير المؤمنين.

فقال الأعرابي: ما لي إليه حاجة فأقوم إليه، بل إن كانت الحاجة له فهو بالقيام إليّ أولى. قال: صدق.

فمشى إليه هارون وسلم عليه، فرد عليه السلام، فقال هارون: اجلس يا أعرابي؟ فقال الأعرابي:

ما الموضع لي فتستأذني فيه بالجلوس، وإنما هو بيت الله نصبه لعباده، فإن أحببت فاجلس، وإن أحببت أن تنصرف فانصرف.

فجلس هارون وقال: ويحك يا أعرابي مثلك من يزاحم الملوك؟!

قال: نعم، وفي مستمع. قال هارون: فإني سائلك، فإن عجزت آذيتك.

قال الأعرابي: سؤالك هذا سؤال متعلم، أو سؤال متعنّت؟

قال هارون: بل سؤال متعلّم.

قال الأعرابي: اجلس مكان السائل من المسؤول وسل، وأنت مسؤول.

فقال هارون: ما فرضك؟

قال الأعرابي: إن الفرض رحمك الله واحد، وخمس، وسبع عشرة، وأربع وثلاثون، وأربع وتسعون، ومائة ثلاث وخمسون على سبع عشرة، ومن إثنى عشر واحد، ومن أربعين واحد، ومن مائتين خمس، ومن الدهر كله واحد، وواحد بواحد.

فضحك الرشيد وقال: ويحك أسألك عن فرضك وأنت تعد علي الحساب؟!

قال الأعرابي: أما علمت أن الدين كله حساب، ولو لم يكن الدين كله حساب لما اتخذ الله الخلائق حسابا، ثم قرأ: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)498.

قال هارون: فبين لي ما قلت وإلا أمرت بقتلك بين الصفا والمروة؟ فقال الحاجب: تهبه لله ولهذا المقام.

فضحك الأعرابي من قوله. فقال هارون: ممّا تضحك يا أعرابي؟

قال: تعجّباً منكما، إذ لا أدري من الأجهل منكما، الذي يستوهب أجلاً قد حضر، أو الذي استعجل أجلاً لم يحضر؟

فقال هارون: فسر لنا ما قلت.

قال الأعرابي: أما قولي الفرض واحد فدين الإسلام كله واحد، وعليه خمس صلوات، وهي سبعة عشر ركعة، وأربع وثلاثون سجدة، وأربع وتسعون تكبيرة، ومائة وثلاث وخمسون تسبيحة، وأما قولي من اثني عشر واحد: فشهر رمضان من إثني عشر شهر، وأما قولي من الأربعين واحد: فمن ملك أربعين ديناراً أوجب الله عليه ديناراً، وأما قولي من مائتي خمسة: فمن ملك مائتي درهم أوجب الله عليه خمسة دراهم.

وأما قولي فمن الدهر كله واحد: فحجة الإسلام، وأما قولي واحد بواحد: فمن أهرق دماً من غير حق، وجب إهراق دمه، قال الله تعالى: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأنْفَ بِالأنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ...)499.

فقال الرشيد: لله درك، وأعطاه بدرة.

فقال الأعرابي: فبم استوجبت منك هذه البدرة يا هارون، بالكلام أم بالمسألة؟

قال هارون: بالكلام.

قال الأعرابي: فإني أسألك عن مسألة، فإن أتيت بها كانت البدرة لك، تصدّ ق بها في هذا الموضع الشريف، وإن لم تجبني عنها أضفت إلى البدرة بدرة أخرى لأتصدق بها على فقراء الحي من قومي.

فأمر هارون بإيراد أخرى وقال: سل عما بدا لك.

فقال الأعرابي: أخبرني عن الخنفساء تزق أم ترضع ولدها؟

فغضب هارون وقال: ويحك من يسأل عن هذه المسألة؟!

فقال الأعرابي: سمعت ممن سمع من رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول:

من ولي أقواماً وهب له من العقل كعقولهم، وأنت إمام هذه الأمة يجب أن لا تسأل عن شيء من أمر دينك ومن الفرائض، إلا أجبت عنها، فهل عندك جواب؟

قال هارون: رحمك الله لا، فبين لي ما قلته وخذ البدرتين.

فقال الأعرابي: إن الله تعالى لما خلق الأرض خلق ديابات الأرض التي من غير فرث ولا دم، خلقها من التراب، وجعل رزقها وعيشها منه، فإذا فارق الجنين أمه لم تزقه ولم ترضعه وكان عيشها من التراب. فقال هارون: والله ما ابتلي أحد بمثل هذه المسألة، وأخذ الأعرابي البدرتين وخرج، فتبعه الناس وسألوا عن اسمه، فإذا هو موسى بن جعفر (عليه السلام)، فأخبر هارون بذلك فقال:

والله لقد كان ينبغي أن تكون هذه الورقة من تلك الشجرة.

ولكن هل سمح لهذه الشجرة أن تنمو وتعطي وتثمر ثمراً طيباً يتغذى منه جميع الناس؟!

لم يكتف الحكام العباسيون بتقمصهم الخلافة، مستأثرين بها على أهل البيت (عليهم السلام)، حتى أخذوا يتبعونهم سجناً وقتلاً وتشريداً. أهل العلم والحكمة والأخلاق باتوا قابعين في بيوتهم ليس لهم الأمر ولا نهي! رحمك الله يا أبا فراس حيث تقول:

بنو علي رعايا في ديارهم***والأمر تملكه النسوان والخدم!

لم يعبأ الأئمة (عليهم السلام) بهذه الشدة والظلامة التي قوبلوا بها، بل استمروا على تبليغ رسالتهم في إعلاء كلمة الله، ونشر المفاهيم الإسلامية، ومحاربة التيارات الفكرية الفاسدة والملحدة، فقد نوّروا الدنيا بعلومهم ومعارفهم من أجل رفع راية الإسلام في العالم. ولا عجب إن كانوا كذلك، فهم أحق من غيرهم، لا بل هم المكلفون بعد الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله) بالمحافظة على السنن والشرائع المحمدية ونشر الإسلام إسلام المحبة والعدالة والحرية والأخلاق.

من ظلم هارون إلى ظلاّم السجن

ما العلاقة بين الظلم والظلام؟ قال علماء اللغة:

ظَلَمَ: يعني جار وجاوز الحد، ووضع الشيء في غير مكانه. جاء في المثل:

(من شابه أباه فما ظلم) وقالوا أيضاً: (من استرعى الذئب فقد ظلم).

وهذا المثل يضرب لمن يولي غير الأمين. ويقال: ظلم فلان فلاناً: غصبه حقه أو نقصه إيّاه. وفي الحديث: لزموا الطريق فلم يظلموه. ويقال:

هو ظالم. وظلام. وهو وهي ظلوم.

ـ وظَلِمَ الليل: اسود فهو ظَلِمٌ. وأظلم الليل اسود. ويقال: أظلم الشعر. والقوم دخلوا في الظلام. والبيت جعله مظلماً. وظالمه: مظالمة، وظِلاماً: ظلمه. وتظالم القوم:ظلم بعضهم بعضاً.

الظلامة: ما يطلبه المظلوم. والظلماء: الظلمة ويقال: ليلة ظلماء, والظُلمة: ذهاب النور. والمظلم: الشديد الظلمة. يقال: يوم مظلوم وأمر مظلام: لا يدري من أين يؤتى والجمع مظالم.

فالعلاقة المشتركة بين الظلام والظلم. ظلم هارون وظلام السجن حتى ذهاب النور، فيفقد النظر التمييز بين الأشياء، بين السقيم والسليم.

والظلم: يعني ذهاب الحق الذي يوضح الأمور، ويجلي الحقائق حتى تظهر على حقيقتها، ولا لبس فيها. كما يعني وضع الشيء في غير مكانه والمظلام هو هارون الرشيد وأشباهه من الملوك العباسيين، ومن سبقهم من الأمويين. والمظلوم: هو الذي انتقص من حقه أو الذي لم يعط حقه وهو الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) ومن سبقه من آبائه وأجداده الذين ضحوا بكل ما عندهم من قوى وقاوموا الظلم والظالمين من أجل إعلاء كلمة الله عزّ

وجلّ والمحافظة على الشريعة الإسلامية، والدفاع عن المظلومين والمستضعفين في الأرض ليبقوا أعزة كراماً محترمين. قال تعالى واصفاً المؤمنين: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ)500.

فلنتصور هذه المكانة الرفيعة التي منحها الله عزّ وجلّ للمؤمنين فقد أعطاهم شرفاً عظيماً ومكانة سامية لا يرقى إليها غيرهم في المجتمع، أعطاهم العزة بعد جلالته وبعد الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله). فأهل البيت (عليهم السلام) حافظوا على هذه العزة ودافعوا عنها فكانوا من المؤمنين الصادقين، والعباسيون حاولوا سلب هذه العزة منهم فكانوا ظالمين منافقين.

والإمام الكاظم (عليه السلام) الذي كظم غيظه سنيناً طويلة من ظلم الحكام العباسيين، حافظ على هذه العزة التي منحها ربّ العالمين للمؤمنين الصادقين...

فانتقل (عليه السلام) من ظلم هارون إلى ظلام السجون، ولعل هذه المحنة التي عاناها بعزم وصبر من أقسى المحن وأفجعه؛ ألمّت به فتحملها وكظم غيظه في صدره صابراً مجاهداً في سبيل الله.

لقد قضى زهرة شبابه في ظلمات السجون محجوباً عن أهله وشيعته، محروماً من نشر علومه على الناس جميعاً. فكان شبيه عيسى بن مريم في تقواه وورعه وصلاحه.

جهد هارون في ظلمه، وأمعن في التنكيل به خوفاً من تسلمه الخلافة، علماً أن الإمام (عليه السلام) لم يكن يبغي الحكم والسلطان، ولم يكن يبغي الجاه والمال، وإنما كان يبغي نشر العدل والحق بين الناس، ومقاومة ظلم أولئك الحكام وجورهم واستبدادهم بأمور المسلمين.

إن تاريخ الإنسانية قديماً وحديثاً حافل بالثورات الصاخبة التي قام بها المصلحون الاجتماعيون على حكام الظلم والطغيان من أجل إسعاد أبناء مجتمعهم، وإنماء أوطانهم، حتى عانوا في سبيل ذلك جميع ضروب الأذى، وأنواع التنكيل والتشريد والاضطهاد؛ وكان في طليعة هؤلاء المجاهدين والمكافحين عن كرامة المسلمين أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

فقد قدموا أروع التضحيات، وتحملوا أقسى ألوان الجهاد في سبيل الله من أجل إنقاذ المسلمين من الجور العباسي، والاستبداد السياسي الذي تمثل على مسرح الحكام الأمويين والعباسيين.

هؤلاء الحكام باعوا دينهم بدنياهم بثمن زهيد، فتلاعبوا بمقدّرات المجتمع، وسلبوا أموال المسلمين وصرفوها على الفجور والمجون، وبذلوها للعملاء الخونة الذين ساندوهم وأعانوهم على الظلم والجور.

وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) باعتبارهم مسؤولين عن رعاية الدين، وحماية المسلمين، كان من واجبهم الشرعي مقاومة ذلك الحكم الجائر ومكافحة الظالمين المستبدين، فنفروا في وجه الظلم، وأنقذوا المجتمع الإسلامي من الجور والاستبداد اللّذين حلا في العباد والبلاد. فقاموا بما يجب عليهم من أداء رسالتهم الإنسانية بكل أمانة وإخلاص.

وكان زعيم المعارضين المناضلين لسياسة هارون هو الإمام موسى الكاظم (عليه السلام). الذي قضى زمناً طويلاً في السجون حتى لفظ أنفاسه الأخيرة فيها وهو شهيد غريب عانى أمرّ الآلام، وأدهى الخطوب.

القبض على الإمام (عليه السلام)

انتشر اسم الإمام (عليه السلام) في الأقطار، وذاع صيته في الأمصار، وتحدّث الناس عن علمه ومآثره وفضله، فثقل ذلك على هارون، وطفح قلبه غيظاً منه فذهب الطاغية إلى قبر النبي (صلّى الله عليه وآله)، فسلم على النبي مثل الزوار المؤمنين، وخاطبه قائلاً:

(بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني اعتذر إليك من أمر عزمت عليه، إني أريد أن آخذ موسى بن جعفر (عليه السلام) فأحبسه لأني قد خشيت أن يُلقي بين أمتك حرباً يسفك فيها دماءهم)501.

إنه يريد أن يخلق مبرراً أمام المجتمع لعمله الفظيع ويخفّف ما سيواجه به من الاستياء، لا سيّما من العلماء الذين سيستنكرون عمله الإجرامي.

وبعد الاعتذار في اليوم الثاني أصدر الطاغية أوامره بإلقاء القبض على الإمام، فجاءت الشرطة وألقت القبض عليه وهو في طاعة الله يصلي لربه عند رأس جده النبي (صلّى الله عليه وآله). فقطع المجرمون الآثمون عليه صلاته ولم يمهلوه من إتمامها. لكنهم نسوا أن الله يمهل ولا يهمل. ثم حمل الإمام من ذلك المكان الشريف وقيّد بالحديد وقد توجّه إلى جدّه الرسول الأكرم:

(إليك أشكو يا رسول الله) 502. فأين احترام قداسة القبر الشريف، قبر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأين احترام أبنائه، الأئمة المعصومين التي هي أولى بالرعاية والمحبة والمودة من كل شيء؟ ثم أين احترام الصلاة التي هي أقدس عبادة في الإسلام؟

لم يحترم هارون قداسة القبر الشريف فهتك حرمته وحرمة أبنائه، وقطع صلاة الإمام (عليه السلام) وأمر بتقييده، وحمل إليه في ذل القيود، ولما مثل الطاهر الكريم أمام الفاجر اللئيم أغلظ له في القول، وكان اعتقاله سنة 179هـ في شهر شوال لعشر بقين منه.503

في البصرة

ساروا بالإمام (عليه السلام) معتقلاً إلى البصرة ووكل هارون حسان السروي بحراسته والمحافظة عله. 504

وقبل أن يصل إلى البصرة تشرّف بالمثول بين يديه عبد الله بن مرحوم الأزدي فدفع له الإمام كتباً وأمره بإيصالها إلى ولي عهده الإمام الرضا (عليه السلام) وعرفه بأنه الإمام من بعده 505 سارت القافلة بالإمام المقيد حتى وصلت إلى البصرة قبل التروية بيوم506 فأخذ حسان وكيل هارون الإمام ودفعه إلى عيسى بن أبي جعفر فسجنه في بيت من بيوت السجن، وأقفل عليه الباب، فكان لا يفتح باب السجن إلا في حالتين: خروج الإمام (عليه السلام) إلى الطهور، أو إدخال الطعام له.507

أحواله في السجن

تفرغ الإمام (عليه السلام) للعبادة، انقطع الإمام (عليه السلام) في السجن إلى العبادة المطلقة، يصوم في النهار ويقوم بالليل، يقضي كل أوقاته في الصلاة والسجود والدعاء.

لقد أدهش العقول وحير الألباب بعبادته المتواصلة، وانقطاعه إلى الله عزّ وجلّ: وقد اعتبر وجوده في السجن نعمة من أعظم النعم التي منحها الله له، وذلك لتفرغه للعبادة، فكان يشكر ربه تعالى على ذلك ويدعو بهذا الدعاء الروحاني قائلاً:

(اللهم، إنك تعلم أني كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت فلك الحمد)508.

يبدو لنا من هذا الدعاء رضى الإمام (عليه السلام) بقضاء الله تعالى وصبره الجميل وكظمه الغيظ بانتظار الفرج إن شاء الله، كما يدل هذا الدعاء من جهة أخرى على مدى حب الإمام الخالص وشوقه الزائد لعبادة الله وطاعته.

اتصال العلماء به

شاع اعتقال الإمام (عليه السلام) في البصرة وجميع أنحاء البلاد، فأقبل عليه رواة الحديث بطريق خفي لينهلوا من علمه الغزير، وقد رووا عنه بعض الأحكام والعلوم ومن هؤلاء ياسين الزياتي509.
كما اتصل به كبار العلماء من البصرة ومن نواح أخرى فرووا عنه الشيء الكثير ممّا يتعلق بالتشريع الإسلامي.
ولا يخفى ما قلناه سابقاً إن الإمام (عليه السلام) دائرة معارف يغترف منها كل من أراد المعرفة.

الإيعاز باغتياله

لما انتشر خبر اعتقال الإمام (عليه السلام) في سجن البصرة، وتناقل الناس حديثه مقروناً بالحسرة واللوعة والحزن، خاف هارون من حدوث الفتن، وقيام الاضطرابات في المدينة فأوعز إلى عيسى باغتيال الإمام (عليه السلام) ليستريح منه ويطمئن باله. ولكن هل يقدم عيسى على ارتكاب مثل هذه الجريمة النكراء؟!

طلب عيسى بالإعفاء

لما وصلت أوامر هارون لعيسى لتنفيذ الاغتيال، ثقل عليه الأمر وفكر ملياً بالمصير، جمع أصحابه وخواصه وعرض عليهم الأمر فأشاروا عليه بالتحذير من ارتكاب مثل هذه الجريمة التي تغضب الله ورسوله، فاستصوب رأيهم وكتب إلى هارون رسالة يطلب فيها إعفاءه عن ذلك.
جاء في الرسالة:
(يا أمير المؤمنين، كتبت إلي في هذا الرجل، وقد اختبرته طول مقامه بمن حبسته معه عيناً عليه، لينظروا حيلته، وأمره وطويته ممن له المعرفة والدراية، ويجري من الإنسان مجرى الدم، فلم يكن منه سوء قط، ولم يذكر أمير المؤمنين إلا بخير، ولم يكن عنده تطلع إلى ولاية، ولا خروج ولا شيء من أمر الدنيا، ولا دعا قط على أمير المؤمنين، ولا على أحد من الناس، ولا يدعو إلا بالمغفرة والرحمة له ولجميع المسلمين مع ملازمته للصيام والصلاة والعبادة، فإن رأي أمير المؤمنين أن يعفيني من أمره، أو ينفذ من يتسلمه مني وإلا سرحت سبيله، فإني منه في غاية الحرج)510.
تدل هذه الرسالة بوضوح على إكبار عيسى وتقديره للإمام (عليه السلام)، فقد راقبه ووضع العيون عليه فلم يره إلا مشغولاً بذكر الله وطاعته، ولم يتعرض بذكر أحد بسوء حتى الظالمين له، لذا خاف عيسى وراقب الله.
بقي في سجن عيسى سنة كاملة.

حمل الإمام إلى بغداد

عندما شعر هارون بعدم تنفيذ طلبه في اغتيال الإمام من قبل عيسى عامله على البصرة، خاف منه أن يطلق سراح الإمام (عليه السلام)، فأمر بحمل الإمام إلى بغداد مقيّداً بالحديد، تحف به الحرس والشرطة. ساروا به مسرعين حتى انتهوا إلى بغداد، وفوراً أعلموا الرشيد بصنيعهم فأمر بحبسه عند أحد وزرائه يدعى الفضل بن الربيع.
أخذه الفضل وسجنه في بيته، هكذا كانت إرادة هارون، فلم يعتقله في السجون العامة لمكانة الإمام العالية في المجتمع، وسمو شخصيته لأن الشخصيات الهامة في عهد الطاغية هارون كانت تعتقل في بيوت وزرائه وليس في السجون العامة، فقد سجن عبد الملك بن صالح عندما غضب عليه عند الفضل بن الربيع 511، وكذلك سجن إبراهيم بن المهدي عند أحمد بن أبي خالد.512

انشغال الإمام بالعبادة

تفرغ الإمام (عليه السلام) في السجن لطاعة ربّه، فقضى معظم أوقاته في الصلاة والتضرع والابتهال إلى الله، فرّاج الكروب والهموم. فقد بهر الفضل بعبادته، فكان يتحدث عنها أمام زائريه بتعجب وإكبار للإمام.

حدّث عبد الله القزويني قال: دخلت على الفضل بن الربيع وهو جالس على سطح داره، فقال لي: أُدْنُ مني، فدنوت حتى حاذيته فقال لي: أشرف على الدار، فأشرف عبد الله على الدار فقال له الفضل ـ ما ترى في البيت؟ ـ أرى ثوباً مطروحاً هناك.

ـ انظر حسناً. فتأمل عبد الله ملياً، فقال له: رجل ساجد.

ـ هل تعرفه؟ ـ لا. فقال له: هذا مولاك.

ـ من مولاي؟!! ـ تتجاهل علي؟!!

ـ ما أتجاهل، ولكن لا أعرف لي مولى.

ـ قال الفضل: هذا أبو الحسن موسى بن جعفر.

وأخذ الفضل يحدث عبد الله عن عبادة الإمام وتقواه وطاعته لله فقال: (إني اتفقده الليل والنهار فلم أجده في وقت من الأوقات إلا على الحال التي أخبرك بها، يصلي الفجر، فيعقب ساعة في دبر صلاته إلى أن تطلع الشمس ثم يسجد سجدة فلا يزال ساجداً حتى تزول الشمس، ثم يبتدئ بالصلاة من غير أن يجدد الوضوء، فاعلم أنه لم ينم في سجوده ولا أغفى، فلا يزال كذلك إلى أن يفرغ من صلاة العصر، فإذا صلى العصر سجد سجدة فلا يزال ساجداً إلى أن تغيب الشمس، فإذا غابت وثب من سجدته فصلى المغرب من غير أن يحدث حدثاً، ولا يزال في صلاته وتعقيبه إلى أن يصلي العشاء، فإذا صلى العشاء أفطر على شوى يؤتى به، ثم يجدد الوضوء، ثم يسجد ثم يرفع رأسه فينام نومة خفيفة، ثم يقوم فيجدد الوضوء، ثم يقوم، فلا يزال يصلي في جوف الليل حتى يطلع الفجر فلست أدري حتى يقول الغلام إن الفجر قد طلع؟ إذ قد وثب هو لصلاة الفجر فهذا دأبه منذ حُوّل إليّ..).

لما رأى عبد الله إكبار الفضل للإمام (عليه السلام) حذره من أن يستجيب لرغبة الرشيد باغتياله. فقال له: (اتق الله، ولا تحدث في أمره حدثاً يكون منه زوال النعمة، فقد تعلم أنه لم يفعل أحد بأحد منهم سوءاً إلا كانت نعمته زائلة).

وكان الفضل مؤمناً بذلك فقال له: (قد أرسلوا إليّ غير مرّة يأمروني بقتله، فلم أجبهم إلى ذلك، وأعلمتهم أني لا أفعل، ولو قتلوني ما أجبتهم إلى ما سألوني)513.

ولا غرو فالإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) كان مثلاً صالحاً يحتذى في التقوى والورع والإيمان بالله، فحب الله مطبوع في قلبه ومشاعره.

إشراف هارون على الإمام في سجنه

لما امتنع حراسه ووزراؤه من القدوم على اغتياله، لم يثق بالعيون التي وضعها عليه في السجن، فأخذ يراقبه بنفسه، ويتطلع على شؤونه خوفاً من أن يتصل به أحد من الناس، فأطل من أعلى القصر على السجن فرأى ثوباً مطروحاً في مكان خاص لم يتغير عن موضعه فقال للفضل:

ـ ما ذاك الثوب المطروح الذي أراه كل يوم في ذلك الموضع؟!

ـ يا أمير المؤمنين، ما ذاك ثوب، وإنما هو موسى بن جعفر، له في كل يوم سجدة بعد طلوع الشمس إلى وقت الزوال.

فبهر هارون بصلابة الإمام (عليه السلام) وقوة إرادته وقال للفضل:

ـ أما هذا فإنه من رهبان بني هاشم!!

فالتفت إليه الفضل بعدما سمع منه اعترافه بزهد الإمام قائلاً له:

ـ يا أمير المؤمنين: ما لك قد ضيّقت عليه في السجن؟!!

فأجابه هارون بكل لؤم وغرور قائلاً:

(هيهات: لابدّ من ذلك)514.

هارون الطاغية كان يعلم عزوف الإمام عن الدنيا، ويعلم إقبال الإمام على الله، ويعلم منزلة الإمام السامية وتقدير الناس له، لكن حبه للسلطان والدنيا أعمى بصره وبصيرته، وملأ قلبه غيظاً وحسداً له. وهذا ما دفعه إلى ذلك.

الحسد القاتل الذي يميت القلب ويضعف الروح ويخدر الإيمان، ويعمي البصيرة عن رؤية الحق.

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ).

لم يقرأ هارون هذه السورة ولم يعلم مضامينها؟!

مصائب ومتاعب

ضاق صدر الإمام من ظلمة السجن وطول المدة فيه بعد أن حجب عن عياله وأطفاله وشيعته، ينتقل من سجن إلى سجن مثقلاً بالحديد، والشرطة تراقبه خوفاً من اتصال أحد من شيعته به، فأحسّ بآلام مرهقة أحاطت به، وخطوب مريرة ثقلت عليه، وهارون ما زال على موقفه يراقبه بحذر، ويخطط لاغتياله. فما العمل؟

لقد لجأ (عليه السلام) إلى الله تبارك وتعالى في أن يخلّصه من هذا الطاغية وهذه المحنة المريرة.

دعاء من القلب

سئم الإمام من السجن وطالت مدة الحبس عليه، وهو رهين السجون فقام في غلس الليل وجدد طهوره وصلى لربه أربع ركعات، وأخذ يناجي الله بهذا الدعاء الروحي الصاعد من قلب طاهر أثقلته الهموم فقال: (يا سيدي، نجّني من حبس هارون وخلّصني من يده، يا مخلّص الشجر من بين رمل وطين، ويا مخلّص النار من بين الحديد والحجر، ويا مخلّص اللبن من بين فرث ودم، ويا مخلّص الولد من بين مشيمة ورحم، ويا مخلّص الروح من بين الأحشاء والأمعاء، خلّصني من يد هارون الرشيد).

يرشح من هذا الدعاء المرارة التي عاناها الإمام (عليه السلام) في السجن والحزن العميق الذي رزح على صدره خلاف هذه الفترة الطويلة لكن إرادة الله فوق كل إرادة فمنه الفرج وهو على كل شيء قدير.

إطلاق سراح الإمام (عليه السلام)

قال تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)515.

الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) مؤمن طاهر وعبد صالح دعا الله عزّ وجلّ لينقذه من هذه المحنة الظالمة التي أثقلت صدره فاستجاب سبحانه لدعائه وأخرج عنه الغمّ الذي أصابه في سجن الطاغية هارون.

فأطلق سراحه غلس الليل. ويعود السبب في ذلك إلى رؤيا رآها في منامه. حدّث عبد الله بن مالك الخزاعي 516 قال:

أتاني رسول الرشيد في ما جاءني به قط، فانتزعني من موضعي، ومنعني من تغيير ثيابي، فراعني ذلك، فلما صرت إلى الدار سبقني الخادم، فعرف الرشيد خبري، فأذن لي بالدخول، فوجدته جالساً على فراشه فسلّمت فسكت ساعة، فطار عقلي، وتضاعف جزعي، ثم قال لي:

ـ يا عبد الله، أتدري لما طلبتك في هذا الوقت؟

ـ لا، والله يا أمير المؤمنين. قال: إني رأيت الساعة في منامي كأن حبشياً قد أتاني، ومعه حربة فقال: إن لم تخلّ عن موسى بن جعفر الساعة، وإلا نحرتك بهذه الحربة، اذهب فخل عنه.517

ولم يطمئن عبد الله بأمر الرشيد بإطلاق سراح الإمام، فقال له: أطلق سراح موسى بن جعفر؟ قال له ذلك ثلاث مرات، فقال الرشيد: (نعم، امض الساعة حتى تطلق موسى بن جعفر، وأعطه ثلاثين ألف درهم، وقل له: إن أحببت المقام قبلنا فلك عندي ما تحب، وإن أحببت المضي إلى المدينة فالأمر في ذلك إليك).

مضى عبد الله مسرعاً إلى السجن يقول: لما دخلت وثب الإمام (عليه السلام) قائماً، وظنّ أني قد أمرت فيه بمكروه، فقلت له:

(قد أمرني أمير المؤمنين بإطلاقك وأن أدفع إليك ثلاثين ألف درهم، وهو يقول لك: إن أحببت المقام قبلنا فلك ما تحب، وإن أحببت الانصراف فالأمر في ذلك مطلق لك، وأعطيته الثلاثين ألف درهم)518.

وقلت له: لقد رأيت من أمرك عجبا.

وأخذ الإمام (عليه السلام) يحدثه عن السبب في إطلاق سراحه قائلاً:

(بينما أنا نائم إذ أتاني رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقال لي: يا موسى، حبست مظلوماً قل هذه الكلمات فإنك لا تبيت هذه الليلة في الحبس، فقلت له بأبي أنت وأمي ما أقول فقال (صلّى الله عليه وآله): قل:

(يا سامع كل صوت، ويا سابق الفوت، ويا كاسي العظام لحماً ومنشرها بعد الموت، أسألك بأسمائك الحسنى، وباسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون الذي لم يطلع عليه أحد من المخلوقين، يا حليماً ذا أناة لا يقوى على أناته، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً، ولا يحصى عدداً، فرج عني) فكان ما ترى.519

وفرج الله عن الإمام فخلى هارون بعد رؤياه سبيله، وقد مكث في سجن الفضل مدة طويلة من الزمن لم يعينها لنا التاريخ.

بعد إطلاق سراحه لم يذهب الإمام (عليه السلام) إلى يثرب بل بقي في بغداد لم ينزح عنها وكان يدخل على الرشيد في كل أسبوع مرة في يوم الخميس.520

كان الرشيد يحتفي به كثيراً إذا رآه، وقد دخل عليه يوماً، وقد استولى عليه الغضب من أجل رجل ارتكب جرماً فأمر أن يضرب ثلاثة حدود فنهاه الإمام (عليه السلام) عن ذلك وقال إنما تغضب لله، فلا تغضب له أكثر ممّا غضب لنفسه)521.

الإذن بالرجوع إلى يثرب

طلب الإمام (عليه السلام) من هارون أن يسمح له بالرحيل إلى يثرب، مدينة آبائه وجدّه (صلّى الله عليه وآله) لرؤية عياله وأطفاله، قيل أنه سمح له، وقيل أنه لم يجبه قائلاً له: أنظر في ذلك حتى حبسه في السجن عند السندي.522

وأكبر الظن أن هارون فرض عليه الإقامة الجبرية في بغداد ولم يسمح له بالسفر إلى وطنه. فمكث (عليه السلام) في بغداد مدة من الزمن لم يحددها لنا قسم كبير من المؤرخين. خلال هذه المدة لم يتعرض له هارون بسوء. قال السيد مير علي الهندي قال: (وقد حدث مرتين أن سمح هارون لهذا الإمام الوديع بالرجوع إلى الحجاز ولكن شكوكه كانت في كلتا المرتين تتغلب على طيبة قلبه فيبقيه في الحبس)523.

استمر الإمام في تلك الفترة من بذل الجهود لإرشاد الناس وهدايتهم إلى طريق الحق ومن الذين اهتدوا متأثرين بنصائحه بشر الحافي فقد تاب على يد الإمام (عليه السلام) حتى صار من عيون عباد الله الصالحين المتقين لكن التاريخ لم يذكر المدة التي خلي فيها عن سبيل الإمام (عليه السلام)، فيحتمل أنها فترة قصيرة، وكل ما ذكره المؤرخون أنه (عليه السلام) انتقل من سجن إلى سجن، من سجن الفضل بن الربيع إلى سجن الفضل بن يحيى.. فيا سبحان الله إلى هذا الحد محبة الدنيا وعشق السلطان تعمي القلوب عن الحقيقة، وتصم الآذان عن سماع الحق؟!!

فهارون لم يؤمن بكل ما رآه من الآيات والمعجزات التي ظهرت للإمام (عليه السلام) فاطلق سراحه وندم على ذلك فأصر على التنكيل به وكانت الجريمة.

اعتقال الإمام (عليه السلام) عند الفضل بن يحيى

مرة ثانية ألقى هارون القبض على الإمام فأمر باعتقاله عند الفضل بن يحيى، فماذا حدث له في سجنه؟

معاملة حسنة في سجن الفضل:

لما رأى الفضل بن يحيى إقبال الإمام (عليه السلام) على الله سبحانه وتعالى، وانشغاله بذكره، أكبر الإمام ورفّه عليه وأحسن معاملته، فكان يرسل له كل يوم مائدة فاخرة من الطعام، وقد رأى (عليه السلام) من السعة في سجن الفضل ما لم يرها في السجون الأخرى.

الإيعاز باغتياله من جديد

أوعز هارون للفضل باغتيال الإمام (عليه السلام)، فخاف الفضل من الله وامتنع عن تنفيذ هذه الجريمة النكراء، ولم يلبّ رغبة هارون. ذلك أنه كان ممن يذهب إلى الإمامة ويدين بها، وهذا هو السبب في اتهام البرامكة بالتشيع. قال الفضل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أقود نفسي إلى النار وأحفر قبري بيديّ؟! لا يمكن أن أنفذ رغبات هارون الطاغية في قتل ابن بنت رسول الله (صلّى الله عليه وآله) مهما كانت النتيجة.

التنكيل بالفضل

كان لهارون بعض العملاء المأجورين يراقبون ويوصلون بأخبارهم إليه، كما في عصرنا اليوم، انطلقوا إليه وأخبروه بحسن معاملة الفضل للإمام (عليه السلام) ولما سمع ذلك الطاغية استشاط غضباً وأنفذ بالحال خادمه مسرور إلى بغداد ليكشف له حقيقة الأمر، فإن كان الأمر على ما بلغه مضى إلى العباس بن محمد وأوصله رسالة يأمره فيها بجلد الفضل بن يحيى، وكذلك أمره بالوصول إلى السندي بن شاهك مدير شرطته ومنفذ أوامره لينفذ ما أمر به دون أي تأخير.

قدم العميل مسرور إلى بغداد فنزل دار الفضل بن يحيى لا يدري أحد ما يريده ثم دخل خلسة إلى الإمام موسى (عليه السلام) فوجده مرقّهاً مرتاحاً كما بلغ هارون فمضى من فوره إلى العباس وأمره بتنفيذ أمر الخليفة، وكذلك

سار إلى السندي فأمره بإطاعة العباس، أرسل العباس فوراً الشرطة إلى الفضل فأخرجوه من داره وهو يهرول والناس من حوله، فدخل على العباس فأمر بتجريده، ثم ضربه مائة سوط.

خرج الفضل بعد هذا الجزاء الظالم وقد انهارت قواه ودكّت أعصابه متحرقاً على الإمام ماذا سيحصل له.

كتب مسرور الوغد الحقير إلى هارون بما فعله، فأمره بنقل الإمام من عند الفضل واعتقاله في دار السندي بن شاهك. ثم جلس هارون في مجلس حافل ضمّ جمهوراً غفيراً من الناس، فرفع صوته قائلاً: أيها الناس، إن الفضل بن يحيى قد عصاني، وخالف طاعتي، ورأيت أن ألعنه فالعنوه.

ارتفعت أصوات العملاء من جميع جنبات الحفل باللعن والسباب والشتم على الفضل حتى اهتزت الأرض من أصوات اللعن.

وبلغ يحيى بن خالد ذلك فأسرع إلى الرشيد ودخل عليه من غير الباب الذي يدخل منه الناس، وأسره قائلاً: يا أمير المؤمنين، إن الفضل حدث، وأنا أكفيك ما تريد.

فسرّ هارون بما أخبره صنيعه الوغد وذهب عن نفسه ما يحمله من الحقد على الفضل، فأراد يحيى أن يستعيد كيان ولده ويرد له كرامته.

فقال للرشيد: (يا أمير المؤمنين، قد غضضت من الفضل بلعنك إياه فشرّفه بإزالة ذلك) فأقبل هارون يوجهه على الناس، ورفع عقيرته قائلاً: (إن الفضل قد عصاني في شيء فلعنته، وقد تاب وناب إلى طاعتي فتولوه).

ارتفعت الأصوات المأجورة ثانية من جميع جنبات الحفل وأعلنت التأييد الشامل لتلك السياسة المتقلبة والمتناقضة وهي ذات لهجة واحدة أعلنها أولئك الناس الذين يهتمون بمصالحهم الخاصة ولا يؤمنون بالقيم ولا بالمثل العليا مرددين:

(يا أمير المؤمنين، نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت، وقد توليناه)524.

وكما ترى هكذا كانت حالة الجماهير الإسلامية في ذلك العصر قد انحرفت عن المبادئ الأصيلة، وفقدت وعيها وحسها وساعدت الطاغية على ظلمه في أطاعته ونفذت رغباته الظالمة والجائرة بحق إمام معصوم ابن إمام معصوم، شريف بريء لم يقترف ذنباً ولا ارتكب خطأ، ولو كان عندهم أي شعور ديني لما سجن الإمام (عليه السلام) ولما نكل به من سجن إلى سجن مقيداً بالأغلال والحديد.

ويعود السبب في ذلك كله إلى عبث السياسة الملتوية في الأوساط الاجتماعية ونشرها الفساد والفجور والبؤس والشقاء والتسبّب في ربوع ذلك المجتمع حتى كان من نتائجه مواقف مذمومة لا يحمد عقباها بأي حال. كما كشفت لنا هذه البادرة مدى الحقد والكراهية التي يكنها هارون اللعين في نفسه للإمام (عليه السلام) الشريف. فقد نكل بالفضل بن يحيى وهو كان من أعز الناس عنده وأقربهم إليه، وأعلن شتمه وسبه لأنه أحسن معاملته للإمام (عليه السلام) ولم يضيق عليه في السجن. علماً أن المدة التي قضاها الإمام (عليه السلام) في سجن الفضل قصيرة للغاية كما ذكر الرواة أياماً معدودة. ونختصر فنقول:

كانت أرواح الناس في العصر العباسي ودماؤهم يتصرف فيها الحكام حسب ما أرادوا، فالملك يفعل ما يريد فهو ظل الله على الأرض لا يسأل عن ذنب ولا جرم، همه كرسي الحكم وكفى.

خاتمة المطاف

أحزان جديدة، وخطب مريع حلّ بسبط النبي (صلّى الله عليه وآله) وريحانته العطرة ووديعته في أمته، فقد سدت نوافذ الحياة عليه وحفّت به المصائب والمصاعب من كل جانب، فجمع هارون الطاغية كل ما عنده من لؤم

وغضب وبغض وصبها عليه دفعة واحدة؛ من تكبيل بالقيود، وزج في السجون، ومراقبة بالعيون خوفاً من العطف عليه، فنكل بكل من أكرمه ورعى جانبه، حين جلد الفضل بن يحيى مائة جلدة، وأعلن سبه وشهّر به لأنه لم يضيّق عليه.

لقد أصبح هارون قلقاً جداً من وجود الإمام (عليه السلام) فذيوع فضله بين الملأ وانتشار اسمه وحديث الناس عن محنته واضطهاده، كل ذلك أقلق مضجعه وأربك فكره، فأوعز إلى كبار رجال دولته باغتياله لكنهم لم يجيبوه على ذلك، لما رأوا للإمام (عليه السلام) من كرامة وتقى وانقطاع إلى عبادة الله عزّ وجلّ، فخافوا من غضب الله ورسوله عليهم وزوال نعمتهم إن تعرضوا له بمكروه. استمر هارون في التفتيش عن مثل هؤلاء الأوغاد الذين يبيعون آخرتهم بدنياهم فلم يجد سوى السندي بن شاهك 525 الأثيم اللعين الذي لا يرجو لله وقارا، ولا يؤمن بالآخرة، فنقله إلى سجنه، وأمره بالتضييق عليه. فاستجاب الأثيم لذلك، حيث عامل الإمام بكل قسوة، والإمام صابر محتسب، قد كظم غيظه، وأوكل أمره إلى الله. إنها المحنة الكبرى قد مُنيَ بها الإمام (عليه السلام) حينما نقل إلى سجن السندي بن شاهك، الذي بالغ في أذاه والتضييق عليه، والتنكيل به في مأكله ومشربه وتكبيله بالقيود، كل ذلك ليرضي هارون ويتقرب منه من أجل دنياه. وسوف نعرض لهذا الدور الرهيب، آخر أدوار حياة الإمام الكاظم المظلوم، ونذكر بعض شؤونه الأخرى كأوقافه ووصاياه وغيرها من الأمور.

مكان السجن

سجن (عليه السلام) في السجن المعروف بدار المسيّب الواقع قرب باب الكوفة 526 وفيه كانت وفاته (عليه السلام).527.

التضييق على الإمام (عليه السلام)

أمر هارون الطاغية جلاده السندي الباغي أن يضيّق على الإمام، وإن يقيّده بثلاثين رطلاً من الحديد، ويقفل الباب في وجهه، ولا يدعه يخرج إلا للوضوء. وامتثل السندي لأوامر معلمه، فعمل على التضييق على الإمام، ووكل على مراقبته مولاه بشاراً، وكان من أشد الناس بغضاً لآل أبي طالب ولكنه لم يلبث أن تغيّر حاله، وتاب إلى طريق الحق، لما رآه من كرامات الإمام (عليه السلام) ومعاجزه، وقام ببعض الخدمات له.528

لم يرع السندي حرمة الإمام (عليه السلام) وتعرض لإساءته، فقد حدث أبو الأزهر ابن ناصح البرجي قال: اجتمعت مع ابن السكّيت529 في مسجد يقع بالقرب من دار السندي، فدارت بيننا مذاكرة في علم العربية، وكان في الجامع رجل لا نعرفه فالتفت إلينا قائلاً: (يا هؤلاء، أنتم إلى إقامة دينكم أحوج منكم إلى إقامة ألسنتكم).

وأخذ الرجل يدلي علينا بالأدلة الوافرة على ضرورة الإمامة، ثم قال:

ـ ليس بينكم، وبين إمام العصر غير هذا الجدار ـ وأشار إلى جدار السندي.

ـ لعلك تعني هذا المحبوس؟

ـ نعم. يقول أبو الأزهر فعرفنا الرجل من الشيعة، وإنه يذهب إلى الإمامة فقلنا له: قد سترنا عليك، وطلبنا منه أن يذهب عنا لئلا نبتلي بسببه فانبرى الرجل لنا وقال: (والله لا يفعلون ذلك أبداً، والله ما قلت لكم إلا بأمره، وإنه ليرانا ويسمع كلامنا، ولو شاء أن يكون ثالثنا لكان).

يقول أبو الأزهر: وفي أثناء الحديث دخل علينا رجل من باب المسجد تكاد العقول أن تذهب لهيبته ووقاره، فعلمنا أنه الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) فبادرنا قائلاً: أنا ذلك الرجل الذي حدثكم عني صاحبي، وفي الوقت أقبل

السندي ومعه جماعة من شرطته فقال للإمام بغير حياء ولا خجل: (يا ويحك كم تخرج بسحرك وحيلتك من وراء الأبواب والأغلال فلو كنت هربت كان أحب إليّ من وقوفك ههنا أتريد يا موسى أن يقتلني الخليفة؟).

فقال له الإمام (عليه السلام) والتأثر باد عليه:

(كيف أهرب، وكرامتي ـ أي نيلي الشهادة ـ على أيديكم).

ثم أخذ بيد الإمام (عليه السلام) وأودعه السجن.

هكذا كانت حالة الإمام (عليه السلام) يساء إليه ويضيّق عليه وهو صابر محتسب قد كظم غيظه، وبث همومه وأشجانه إلى الله تعالى.

تفرّغ الإمام (عليه السلام) للعبادة من جديد

اعتاد الإمام (عليه السلام) على عذاب السجون من قبل الحكام الظالمين الطغاة، فأقبل على العبادة، يصوم في النهار، ويقوم في الليل، ويقضي أكثر أوقاته بالسجود والعبادة، لا يفتر لسانه عن ذكر الله. حتى أن أخت السندي لما رأت إقبال الإمام (عليه السلام) على الطاعة الخالصة والعبادة المستمرة أثر ذلك في نفسها، وأصبحت من الصالحات، وعند ذلك دبّت الرأفة في قلبها وأخذت تعطف على الإمام (عليه السلام) وتقوم بخدمته دون علم أخيها وكانت إذا نظرت إليه أرسلت الدموع مدراراً من عينيها وتقول: (خاب قوم تعرّضوا لهذا الرجل)530.

اتصال العلماء بالإمام (عليه السلام)

الإمام الكاظم (عليه السلام) ذلك الينبوع الغزير والمنهل الذي لا ينضب ماؤه كان مقصد العلماء والرواة والمحدثين، اتصلوا به من طريق خفي فنهلوا من نمير علومه، من هؤلاء نذكر موسى بن إبراهيم المروزي، وقد سمح له السندي بذلك لأنه كان معلماً لولده، وقد ألف المروزي كتاباً ممّا سمعه من الإمام (عليه السلام). واتصل به هند بن الحجاج وغيره من قادة الفكر الإسلامي، كما دخل عليه من غلس الليل أبو يوسف ومحمد بن الحسن531 وقد أراد اختباره في بعض المسائل المهمة ليطلعا على مدى علمه ولما استقر بهما المجلس جاء إلى الإمام (عليه السلام) أحد الموظفين في السجن فقال له:

إن نوبتي قد فرغت وأريد الانصراف، فإن كانت لك حاجة فأمرني أن آتيك بها غداً، فقال (عليه السلام):

ليس لي حاجة انصرف. فلما انصرف، التفت (عليه السلام) إلى أبي يوسف وصاحبيه فقال لهما:

(إني لأعجب من هذا الرجل يسألني أن أكلفه حاجة يأتيني بها غداً إذا جاء وهو ميت في هذه الليلة) فأمسكا عن سؤاله، وقاما، وقد استولى عليهما الذهول وجعل كل واحد منهما يقول لصاحبه:

أردنا أن نسأله عن الفرض، والسنة، فأخذ يتكلم معنا في علم الغيب!!

والله لنرسلن خلف الرجل من يبيت على باب داره لينظر ما ذا يكون من أمره؟ وأرسلا في الوقت شخصاً فجلس على باب دار الرجل يراقبه فلما استقر في مكانه سمع الصراخ والعويل قد على من الدار، فسأل عن الحادث فأخبر بأن الرجل قد توفى، فقام مبادراً وأخبرهما بالأمر، متعجباً من علم الإمام (عليه السلام). وقد روى هذه القصة العديد من رواة الأثر532 وإن دلّت هذه الرواية على شيء فإنها تدل على علم الإمام بالمغيبات، وانكشاف الحجاب له، وهذا ما تعتقده الشيعة في الإمام فهو يرى بعين الله تعالى.

إن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) قد أخبروا بالملاحم والأمور الغيبية التي تحققت كلها، فهم بلا ريب ولا شك ورثة علم النبي الأكرم (صلّى الله عليه وآله) قد ألهمهم عزّ وجلّ جميع أنواع العلوم، وأطلعهم على خفايا الأمور.

إرسال الفتاوى إلى الإمام (عليه السلام)

كانت بعض الأقاليم الإسلامية التي تدين بالإمامة ترسل عنها مبعوثاً خاصاً إلى الإمام (عليه السلام) حينما كان في سجن السندي، فتزوده بالرسائل والفتاوى فيجيبهم (عليه السلام) عنها، وممن جاءه علي بن سويد، اتصل بالإمام (عليه السلام) وسلّم إليه الكتب والفتاوى، فأجابه (عليه السلام) عنها.

تعيين وكلاء الإمام (عليه السلام)

عيّن الإمام (عليه السلام) جماعة من طلابه وأصحابه الذين يثق بهم وجعلهم وكلاء له في بعض المناطق الإسلامية، ثم أوماً لشيعته بالرجوع إليهم لأخذ الأحكام الدينية منهم، كما أذن لهم في أخذ الحقوق الشرعية، لصرفها في مواضعها الشرعية على الفقراء والبائسين من الشيعة وإنفاقها في وجه البرّ والخير.

فقد نصب المفضل بن عمر533 وكيلاً له في قبض الحقوق وأذن له في صرفها على مستحقيها.

تعيين ولي عهده

نصب الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) من بعده ولده الإمام الرضا (عليه السلام) فجعله علماً لشيعته، مرجعاً لأمة جده (صلّى الله عليه وآله)، فقد حدّث الحسين بن المختار قال: لما كان الإمام الكاظم (عليه السلام) في السجن خرجت لنا ألواح من عنده وقد كتب فيها (عهدي إلى أكبر ولدي)534.

علماً أنه عيّن ولده الرضا (عليه السلام) من بعده وذلك قبل أن يعتقله الطاغية هارون، وقلّده منصب الإمامة، ودلّ عليه الخواص من شيعته، فقد روى محمد بن زيد بن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: دعانا أبو إبراهيم ونحن سبعة عشر من ولد علي وفاطمة، فأشهدنا لعلي ابنه بالوصية والوكالة في حياته وبعد موته.

لقد بيّن (عليه السلام) الحجة من بعده، ولم يهمل أمر الإمامة لأن هذا واجب شرعي لكل إمام، ولا يجوز أن تترك الأمة بدون إمام. وبذلك يكون قد هدى شيعته إلى طريق الحق والصواب. وقد جاء في حديث معروف عن الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله) بما معناه: (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات موتة جاهلية).

وصية الإمام الكاظم (عليه السلام)

أوصى الإمام الكاظم (عليه السلام) ولده الإمام الرضا (عليه السلام) وعهد إليه بالأمر من بعده وقد أوصاه بوصية تتضمن ولايته على صدقاته، ونيابته عنه في شؤونه الخاصة والعامة. وقد أشهد عليها جماعة من المؤمنين الأعلام، وقبل أن يدلي بها ويسجلها أمر بإحضار الشهود وهم:

إبراهيم بن محمد الجعفري، وإسحاق بن محمد الجعفري، وإسحاق بن جعفر بن محمد، وجعفر بن صالح، ومحمد الجعفري، ويحيى بن الحسين بن زيد، وسعد بن عمران الأنصاري ومحمد بن الحارث الأنصاري، ويزيد بن سليط الأنصاري، ومحمد بن جعفر سعد الأسلمي ـ وهو كاتب الوصية ـ ولما حضر هؤلاء شرع بذكر وصيته، وهذا نصها:

(إن موسى يشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وإن محمداً عبده ورسوله، وإن الساعة آتية لا ريب فيها، وإن الله يبعث من في القبور، وإن البعث من بعد الموت حق، وأن الوعد حق، وإن الحساب حق، والقضاء حق، وإن الوقوف بين يدي الله حق، وأن ما جاء به محمد (صلّى الله عليه وآله) حق، وأن ما أنزل به الروح الأمين

حق، على ذلك أحيى وعليه أموت، وعليه أبعث إن شاء الله، وأشهدهم أن هذه وصيتي بخطي، وقد نسخت وصية جدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ووصية محمد بن علي قبل ذلك نسختها حرفاً بحرف، ووصية جعفر بن محمد، على مثل ذلك، وإني قد أوصيت بها إلى علي وبني بعده معه إن شاء وآنس منهم رشداً، وأحب أن يقرهم فذاك له، ولا أمر لهم معه، وأوصيت إليه بصدقاتي وأموالي وموالي وصبياني الذي خلفت وولدي إلى إبراهيم والعباس وقاسم وإسماعيل وأحمد وأم أحمد، وإلى علي أمر نسائي دونهم، وثلث صدقة أبي وثلثي يضعه حيث يرى، ويجعل فيه ما يجعل ذو المال في ماله، فإن أحب أن يبيع أو يهب أو ينحل أو يتصدّق بها على من سمّيت له وعلى غير من سمّيت فذاك له، وهو أنا في وصيتي في مالي، وفي أهلي وولدي وإن يرى أن يقر أخوته الذين سميتهم في كتابي هذا أقربهم، وإن كره فله أن يخرجهم غير مثرب 535 عليه، ولا مردود، فإن آنس منهم غير الذي فارقتهم عليه فأحب أن يردهم في ولاية فذاك له، وإن أراد رجل منهم أن يزوج أخته فليس له أن يزوجها إلا بإذنه وأمره فإنه أعرف بمناكح قومه، وأي سلطان أو أحد من الناس كفه عن شيء أو حال بينه وبين شيء ممّا ذكرت فهو من الله ومن رسوله بريء، والله ورسوله منه براء، وعليه لعنة الله وغضبه ولعنة اللاعنين والملائكة المقربين والنبيين والمرسلين وجماعة المؤمنين، وليس لأحد من السلاطين أن يكفه عن شيء، وليس لي عنده تبعة، ولا تباعة، ولا لأحد من ولدي وله قبلي مال، فهو مصدق فيما ذكر، فإن أقل فهو أعلم، وإن أكثر فهو الصادق كذلك، وإنما أردت بإدخال الذين أدخلتهم معه من ولدي التنويه بأسمائهم، والتشريف لهم، وأمهات أولادي من أقامت منهنّ في منزلها وحجابها فلها ما كان يجري عليها في حياتي، إن رأى ذلك. ومن خرجت منهنّ إلى زوج فليس لها أن ترجع إلى محواي 536 إلا أن يرى عليّ غير ذلك، وبناتي بمثل ذلك، ولا يزوّج بناتي أحد من إخوتهن، من أمهاتهن، ولا سلطان ولا عم إلا برأيه ومشورته، فإن فعلوا غير ذلك فقد خالفوا الله ورسوله، وجاهدوا في ملكه، وهو أعرف بمناكح قومه، فإن أراد أن يزوّج زوّج وإن أراد أن يترك ترك، وقد أوصيتهنّ بما ذكرت في كتابي هذا، وجعلت الله عزّ وجلّ عليهنّ شهيداً، وهو وأم أحمد شاهدان وليس لأحد أن يكشف وصيتي، ولا ينشرها، وهو منها على غير ما ذكرت وسمّيت، فمن أساء فعليه، ومن أحسن فلنفسه، وما ربّك بظلاّم للعبيد، وصلّى الله على محمد وعلى آله، وليس لأحد من سلطان ولا غيره أن يفض كتابي هذا الذي ختمت عليه الأسفل، فمن فعل ذلك فعليه لعنة الله وغضبه ولعنة اللاعنين، والملائكة المقربين، وجماعة المرسلين والمؤمنين، وعلى من فضّ كتابي هذا)537.

ووقع عليه السلام الوصية وختمها، وكذلك وقّع عليها الشهود السالفة أسماؤهم. وواضح أن وصيّه والحجة من بعده ولده الإمام الرضا (عليه السلام) فقد فوّض إليه جميع شؤونه، وألزم أبناءه بإتباعه والانصياع لأوامره. كما أمر (عليه السلام) أن يكون زواج كريماته بيد الإمام الرضا (عليه السلام) وتحت مشورته ورأيه فإنه أعرف بمناكح قومه من غيره فإنّهنّ ودائع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وكريماته فينبغي أن لا يتزوّجن إلا بمؤمن تقي يعرف مكانتهنّ ويقدّر منزلتهنّ ولا يعرف الكفؤ لهنّ إلا ولده الرضا. وأكبر الظن أنه إنما أمر بإخفاء وصيته وعدم ذيوعها خوفاً على ولده من السلطة العباسية التي لم تقصر أبداً في محاربة أهل البيت (عليهم السلام) لذلك أراد إخفاءها خوفاً من نقمتهم عليه وتنكيلهم به.

أوقافه وصدقاته

تصدّق الإمام (عليه السلام) ببعض أراضيه على أولاده وسجّل ذلك في وثيقة، والزم أبناءه بتنفيذ مضامينها، والعمل على وقفها، وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تصدّق به موسى بن جعفر بأرضه مكان كذا وكذا ـ وقد عيّن ذلك ـ كلها: نخلها وأرضها وماؤها وأرجاؤها وحقوقها وشربها من الماء وكل حق هو لها في مرفع 538 أو مطهر 539 أو عيص540 أو مرفق أو ساحة أو مسيل أو عامر أو غامر 541 تصدّق بجميع حقه من ذلك على ولده من صلبه الرجال والنساء يقسم واليها ما أخرج الله عزّ وجلّ من غلتها بعد الذي يكفيها من عمارتها ومرافقها وبعد ثلاثين عذقاً يقسم في مساكين أهل القرية، بين ولد موسى بن جعفر للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن تزوجت امرأة من ولد موسى بن جعفر فلا حقّ لها في هذه الصدقة حتى ترجع إليها بغير زوج، فإن رجعت كان لها مثل حظ التي لم تتزوج من بنات موسى، ومن توفي من ولد موسى وله ولد فولده على سهم أبيهم للذكر مثل حظ الأنثيين على مثل ما شرط موسى بين ولده من صلبه. ومن توفي من ولد موسى ولم يترك ولداً رد حقه على أهل الصدقة وليس لولد بناتي في صدقتي هذه حق إلا أن يكون آباؤهم من ولدي، وليس لأحد في صدقتي حق مع ولدي وولد ولدي وأعقابهم ما بقي منهم أحد، فإن انقرضوا ولم يبق منهم أحد فصدقتي على ولد أبي من أمي ما بقي منهم أحد، ما شرطت بين ولدي وعقبى، فإن انقرض ولد أبي من أمي وأولادهم فصدقتي على ولد أبي وأعقابهم ما بقي منهم أحد فإن لم يبق منهم أحد فصدقتي على الأولى فالأولى حتى يرث الله الذي يرثها وهو خير الوارثين.

تصدّق الإمام موسى بن جعفر بصدقته هذه وهو صحيح، صدقة حبيساً بتاً لا مثنوية فيها542، ولا رداً أبداً ابتغاء وجه الله تعالى والدار الآخرة ولا يحلّ لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيعها أو يبتاعها أو ينحلها أو يغير شيئاً ممّا وضعتها عليه حتى يرث الله الأرض ومن عليها وجعل صدقته هذه إلى علي وإبراهيم فإن انقرض أحدهما دخل القاسم مع الباقي في مكانه، فإن انقرض أحدهما دخل إسماعيل مع الباقي منهما، فإن انقرض أحدهما دخل العباس مع الباقي منهما، فإن انقرض أحدهما فالأكبر من ولدي يقوم مقامه فإن لم يبق من ولدي إلا واحد فهو الذي يقوم به...)543.

هذا الموقف الذري هو بعض ميراثه وخيراته، وقد خص به أبناءه وذريته لأجل أن تقوم تلك الغلة بشؤونهم وتغنيهم عما في أيدي الناس.

ترفع الإمام من المطالبة بإطلاق سراحه

مكث الإمام (عليه السلام) زمناً طويلاً في سجن هارون، فطلب منه جماعته من شيعته الخاصة أن يتصل مع بعض الشخصيات المقرّبة عند هارون ليتوسطوا في إطلاق سراحه، فترفّع وامتنع عن ذلك وقال لهم: (حدّثني أبي عن آبائه أن الله جل وعلا أوصى إلى داود أنه ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي دوني وعرفت ذلك منه إلا قطعت عنه أسباب السماء، وأسخت الأرض من تحته)544.

تدل هذه البادرة من الإمام المعصوم (عليه السلام) على مدى إيمانه بالله سبحانه وتعالى، وانقطاعه إليه، ورضائه بقضائه، وترفّعه من سؤال أي أحد من المخلوقين. لقد تذكر (عليه السلام) قول جدّه الرسول الأكرم عندما قال (اللهم أكفنا ذل السؤال) وقوله (صلّى الله عليه وآله): (اليد العليا خير من اليد السفلى) وما حدث مع الإمام (عليه السلام) عكس ما طلب منه لقد أرسل كتاباً إلى هارون وهو في السجن يعبر فيه عن سخطه.

كتابه لهارون

أرسل الإمام (عليه السلام) وهو في السجن رسالة لهارون الطاغية أعرب فيها عن سخطه البالغ عليه، قال فيها:

(إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء حتى ينقضي عنك يوم من الرخاء، حتى نفنى جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء وهناك يخسر المبطلون)545.

في هذه الحياة تحمّل الإمام (عليه السلام) الآلام المبرحة والجزع الدائم من السجن لكنه سوف ينتظر اليوم العظيم الذي سيحاكم فيه خصمه الطاغية عند الله، يوم يخسر فيه المبطلون والظالمون.

إغراء وفتنة

أرسل هارون إلى الإمام في سجنه جارية بارعة في الجمال، بيد أحد خواصه لتتولى خدمته، علّ الإمام يفتتن بحسنها في اعتقاد هارون.

فلما وصلت إليه قال (عليه السلام) لمبعوث هارون:

(قل لهارون: بل أنتم بهديتكم تفرحون546، لا حاجة لي في هذه ولا في أمثالها) فرجع الخادم ومعه الجارية وأبلغ هارون قول الإمام فغضب غضباً شديداً وقال للخادم: ارجع إليه وقل له: ليس برضاك حبسناك، ولا برضاك أخدمناك، واترك الجارية عنده وانصرف).

رجع رسول هارون وترك الجارية الحسناء عند الإمام، وأبلغه بمقالته ثم أنفذ هارون خادماً إلى السجن ليراقب ويتفحص حال الجارية. فلما انتهى إليها رآها ساجدة لا ترفع راسها وهي تقول: (قدّوس، قدّوس) فمضى الخادم مسرعاً وأخبر هارون بحالها فقال: سحرها والله موسى بن جعفر عليّ بها!!).

فجيء بها إليه، وهي ترتعد خوفاً فشخصت ببصرها نحو السماء وهي تذكر الله وتمجّده، فقال لها هارون: ما شأنك؟

قالت: شأني الشأن البديع، إني كنت عنده واقفة، وهو قائم يصلّي ليله ونهاره، فلما انصرف من صلاته قلت له: هل لكَ حاجة أعطيكها؟ فقال (عليه السلام): وما حاجتي إليكِ؟

قلت: إني أدخلت عليك لحوائجك. قال الإمام (عليه السلام):

فما بال هؤلاء ـ وأشار بيده إلى جهة ـ فالتفت، فإذا روضة مزهرة لا أبلغ آخرها من أولها بنظري، ولا أولها من آخرها، فيها مجالس مفروشة بالوشي والديباج، وعليها وصائف ووصايف لم أرَ مثل وجوههم حسناً، ولا مثل لباسهم لباساً، عليها الحرير الأخضر، والأكاليل والدرّ والياقوت وفي أيديهم الأباريق والمناديل، ومن كل الطعام فخررت ساجدة حتى أقامني هذا الخادم فرأيت نفسي حيث كنت، فقال لها هارون والحقد يتطاير من عينيه لأن مؤامرته باءت بالفشل فقال: يا خبيثة لعلّك سجدت فنمتِ فرأيتِ هذا في منامك.

فقالت: لا والله يا سيدي، رأيت هذا قبل سجودي، فسجدت من أجل ذلك.

فالتفت هارون إلى خادمه، وأمره باعتقال الجارية، ليخفى الحادث تماماً، لئلا يسمعه الناس. فأخذها الخادم، واعتقلها عنده، فأقبلت على العبادة والصلاة، فإذا سئلت عن ذلك قالت: هكذا رأيت العبد الصالح، وقالت إني لما عاينت من الأمر نادتني الجواري يا فلانة، إبعدي عن العبد الصالح حتى ندخل عليه فنحن له دونك، وبقيت عاكفة على العبادة حتى لحقت بالرفيق الأعلى.547

تبارك الله بهذا الإمام العظيم الذي يغيّر أسماء الأشياء من قبيح إلى جميل ومن سيء إلى حسن ومن شرير إلى صالح ومن كافر إلى مؤمن، كل ذلك بعمق إيمانه ولطف محبته وسمو أخلاقه وغزارة علمه فكانت له تلك الكرامات بين الناس جميعاً. فحارسه انقلب إلى صديق والجارية الخليعة انقلبت إلى مؤمنة صالحة.

لكن هارون الطاغية، هارون اللئيم، هارون العنيد ألم يشاهد أنواع هذه الكرامات للإمام (عليه السلام)؟ فلماذا لم يؤمن بها؟ ولماذا زاغ قلبه؟ ولما استولت على نفسه دكنة قاتمة أنسته ذكر الله واليوم الآخر؟ كل ذلك حب الجاه والسلطان، حب المال والدنيا الفانية!!

محاولة اغتيال فاشلة:

تحدث الناس في مناقب الإمام (عليه السلام) وانتشرت فضائله بين الجموع وأصبح أحدوثة العصر بعلمه وحلمه، وصبره وبلواه، ضاق صدر هارون من ذلك وعقد العزم على اغتيال الإمام المظلوم ثانية فدعا برطب فأكل منه ثم أخذ إناءً ووضع فيه عشرين رطبة، وأخذ سلكاً فعركه في السم وأدخله في سم الخيّاط. وأخذ رطبة من ذلك الرطب فوضع فيها ذلك السلك وأخرجه منها حتى تكللت بالسم، ووضعها مع ذلك الرطب وقال لخادمه: احمله إلى موسى بن جعفر، وقل له:

إن أمير المؤمنين أكل من ذلك الرطب، وهو يقسم عليك بحقه لما أكلته عن آخره، فإني اخترتها لك بيدي، ولا تتركه يبقي منها شيئاً ولا يطعم منها أحداً. فحمل الخادم الرطب وجاء به إلى الإمام، وأبلغه برسالة هارون. فأمره (عليه السلام) أن يأتيه بخلال، فجاء به إليه، وقام بإزائه فأخذ الإمام يأكل من الرطب، وكانت لهارون كلبة عزيزة عنده، فجذبت نفسها وخرجت تجرّ سلاسلها الذهبية حتى حاذت الإمام (عليه السلام) فبادر بالخلال إلى الرطبة المسمومة ورمى بها إلى الكلبة فأكلتها فلم تلبث إن ضربت بنفسها الأرض وماتت للحال، وأكمل الإمام في أكل باقي الرطب. والخادم ينظر إليه مشدوهاً، حمل الإناء إلى هارون فلما رآه بادره قائلاً: قد أكل الرطب عن آخره؟ ـ نعم يا أمير المؤمنين.

ـ كيف رأيته؟

ـ ما أنكرت منه شيئاً، ثم قصّ عليه حديث الكلبة وطريقة موتها فقام هارون بنفسه ليشرف عليها، لأنها عزيزة على قلبه كثيراً، فرآها اهترأت أمعاؤها وتقطعت من السم فوقف مذهولاً وقد سرت الرعدة بأوصاله والشرر ينزف من عينيه وقال:

(ما ربحنا من موسى إلا أن أطعمنا جيد الرطب وضيعنا سمنا وقتلنا كلبتنا ما في موسى حيلة)548.

لقد فشل في مشروعه الخسيس ولم تنجح محاولته في اغتيال الإمام (عليه السلام) والله سبحانه وتعالى قد أنقذه منه وصرف عنه السوء. ولا ندري من أين تعلم طريقة الاغتيال بالسم؟ فيجوز أنه اطلع على تاريخ معاوية بن أبي سفيان واستعماله السم في اغتيال الأئمة (عليهم السلام) وهو القائل: (إن لله جنوداً من عسل)549.

وساطة فاشلة عن نفس علوية أبية

لقد احتار هارون في أمره فكل وسيلة سلكها للقضاء على الإمام (عليه السلام) تبوء بالفشل، فاستدعى وزيره يحيى بن خالد بعد أن انتشرت معاجز الإمام ومناقبه وتحدث الناس عن مناقبه وكراماته، فقال له:

(يا أبا علي أما ترى ما نحن فيه من هذه العجائب؟ ألا تدبر في أمر هذا الرجل تدبيراً يريحنا من غمه).

فأشار عليه يحيى بالصواب وأرشده إلى الخير فقال له:

(الذي أراه لك يا أمير المؤمنين أن تمنّ عليه وتصل رحمه فقد والله أفسد علينا قلوب شيعته).

فاستجاب هارون لنصيحة وزيره وقال له: انطلق إليه وانزع عنه الحديد وأبلغه عني السلام وقل له: يقول لك ابن عمك: إنه قد سبق مني فيك يمين إني لا أخليك حتى تقرّ لي بالإساءة وتسألني العفو عما سلف منك وليس عليك

في إقرارك عار ولا في مسألتك إيّاي من منقصة، وهذا يحيى بن خالد ثقتي ووزيري وصاحب أمري فاسأله بقدر ما أخرج من يميني).

أراد هارون أن يأخذ من الإمام اعترافاً بالذنب والإساءة ليصدر مرسوماً ملكياً بالعفو عنه، فيكون قد اتخذ بذلك وسيلة إلى التشهير بالإمام من جهة، ومن جهة ثانية يكون له مبرراً في الوقت نفسه على سجنه له. لم يخف على الإمام (عليه السلام) ذلك، فلما مثل يحيى وأخبره بمقالة هارون انبرى إليه الإمام (عليه السلام) وقال له:

(سأخبرك بما سيجري عليك وعلى أسرتك من زوال النعمة على يد هارون، وشدة النقمة، فأحذرك من بطشه ومن الغدر بك فجأة) ثم ردّ على مقالة هارون فقال ليحيى:

(يا أبا علي، أبلغه عني، يقول لك موسى بن جعفر يأتيك رسولي يوم الجمعة فيخبرك بما ترى ـ أي بموته ـ وستعلم غداً إذا جاثيتك بين يدي الله من الظالم والمعتدي على صاحبه؟).

خرج يحيى وهو لا يبصر طريقه من الحزن والجزع فأخذ يبكي لما رأى الإمام (عليه السلام) ابن بنت رسول الله بتلك الحالة، فأخبر هارون بمقالته، فقال الطاغية مستهزئاً ساخراً:

(إن لم يدع النبوة بعد أيام فما أحسن حالنا!).

ولم يمض أسبوع حتى التحق الإمام (عليه السلام) بالرفيق الأعلى كما أخبر.550

الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) ينعي نفسه

علم الإمام المعصوم موسى بن جعفر أن لقاءه بربّه أصبح قريباً، فنعى نفسه لبعض شيعته الخاصة، وعزّاهم بمصيبته بدل أن يعزّوه، فأوصاهم بالتمسك بالعروة الوثقى من آل محمد (صلّى الله عليه وآله) وذلك في جوابه عن المسائل التي بعثها إليه علي بن سويد 551 حينما كان في السجن، فيها بعض المسائل يسأله عنها، فأجابه (عليه السلام) بهذا الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي العظيم الذي بعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين، وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون، وبعظمته ونوره ابتغى من في السماوات والأرض إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة، والأديان المتضادة، فمصيب ومخطئ وضال ومهتدي، وسميع وأصم، وبصير وأعمى فالحمد لله الذي عرف ووصف دينه بمحمد (صلّى الله عليه وآله).

أما بعد؛ فإنك امرؤ أنزلك الله من آل محمد بمنزلة خاصة، وحفظ مودة ما استرعاك من دينه، وما ألهمك من رشدك، وبصّرك من أمر دينك بتفضيلك إياهم، وبردّك الأمور إليهم؛ كتبت إلى تسألني عن أمور كنت منها في تقية، ومن كتمانها في سعة، فلما انقضى سلطان الجبابرة وجاء سلطان ذي السلطان العظيم بفراق الدنيا المذمومة إلى أهلها العتاة على خالقهم، رأيت أن أفسّر لك ما سألتني عنه مخافة أن تدخل الحيرة على ضعاف شيعتنا من قبل حبها لهم، فاتق الله عزّ ذكره، وخصّ بذلك الأمر أهله، وأحذر أن تكون سبب بلية على الأوصياء أو حارشاً عليهم552 بإفشاء ما استودعتك، وإظهار ما استكتمتك وإن تفعل إن شاء الله.

إن أول ما أنهى إليك أني أنعي إليك نفسي في ليالي هذه، غير جازع ولا نادم ولا شاك فيما هو كائن ممّا قد قضى الله عزّ وجلّ وختم، فاستمسك بعروة الدين، آل محمد والعروة الوثقى الوصي بعد الوصي، والمسالمة لهم، والرضا بما قالوا: ولا تلتمس دين من ليس من شيعتك، ولا تحب دينهم، فإنهم الخائنون الذين خانوا الله ورسوله، وخانوا أمانتهم، أو تدري ما خانوا أمانتهم؟

إئتمنوا على كتاب الله فحرّفوه، ودلّوا على ولاة الأمر منهم فانصرفوا عنهم (فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)553 وسألت عن رجلين اغتصبا رجلاً مالاً كان ينفقه على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وفي سبيل الله فلما اغتصباه ذلك لم يرضيا حيث غصباه حتى حملاه إيّاه كرهاً فوق رقبته إلى منازلهما فلما أحرزاه توليا إنفاقه أيبلغان بذلك كفراً؟

فلعمري لقد نافقا قبل ذلك وردا على الله عزّ وجلّ كلامه، وهزئا برسوله (صلّى الله عليه وآله) وهما الكافران عليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، والله ما دخل قلب أحد منهما شيء من الإيمان منذ خروجهما من حالتيهما، وما زادا إلا شكاً، كانا خداعين مرتابين منافقين حتى توفتهما ملائكة العذاب إلى محل الخزي في دار المقام.

وسألت عمن حضر ذلك الرجل وهو يغصب ماله ويوضع على رقبته منهم عارف ومنكر فأولئك أهل الردة الأولى من هذه الأمة فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وسألت عن مبلغ علمنا، وهو على ثلاثة وجوه: ماض وغابر وحادث، فأما الماضي فمفسر وأما الغابر فمزبور، وأما الحادث فقذف في القلوب، ونقر في الأسماع، وهو افضل علمنا، ولا نبي بعد نبينا محمد (صلّى الله عليه وآله). وسألت عن أمهات أولادهم وعن نكاحهم وعن طلاقهم، فأما أمهات أولادهم فهنّ عواهر إلى يوم القيامة نكاح بغير ولي، وطلاق في غير عدة. وأما من دخل في دعوتنا فقد هدم إيمانه ضلاله ويقينه شكه، وسألت عن الزكاة فيهم فما كان من الزكاة فأنتم أحق به لأنّا قد أحللنا ذلك لكم من كان منكم وأين كان.

وسألت عن الضعفاء فالضعيف من لم يرفع إليه حجة، ولم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف.

وسألت عن الشهادة لهم، فأقم الشهادة لله عزّ وجلّ ولو على نفسك والوالدين والأقربين فيما بينك وبينهم، فإن خفت على أخيك ضيماً فلا وادع إلى شرائط الله عزّ ذكره من رجوت إجابته ولا تحصن بحصن رياء. ووال آل محمد ولا تقل لما بلغك عنا ونسب إلينا هذا باطلاً وإن كنت تعرف منا خلافه، فإنّك لا تدري لما قلناه، وعلى أي وجه وضعناه آمن بما أخبرك، ولا تفش بما استكتمناك من خبرك، إن من واجب حق أخيك أن لا تكتمه شيئاً تنفعه به لأمر دنياه وآخرته، ولا تحقد عليه وإن أساء، وأجب دعوته إذا دعاك ولا تخل بينه وبين عدوه من الناس وإن كان أقرب إليه منك، وعده في مرضه، ليس من أخلاق المؤمن الغش ولا الأذى، ولا الخيانة ولا الكبر والخنا 554 ولا الفحش ولا الأمر به، فإذا رأيت المشوه الأعرابي في جحفل جرار فانتظر فرجك ولشيعتك المؤمنين وإذا انكسفت الشمس فارفع بصرك إلى السماء وانظر ما فعل الله بالمجرمين، فقد فسرت لك جملاً مجملاً، وصلى الله على محمد وآله الأخيار...)555.

كرامة أخرى من كرامات إمام معصوم

مع المسيب بن زهرة

كان المسيب بن زهرة موكلاً بحراسة الإمام (عليه السلام) حيث نقل من حبس السندي إلى داره على ما يستفاد من بعض المصادر، وكان الرجل من دعاة الدولة العباسية الأشداء، فقد ولي شرطة بغداد أيام المنصور والمهدي والرشيد، كما ولي خراسان أيام المهدي556. وكان على جانب من الغلاظة والشدة، فكان أبو جعفر المنصور إذا أراد بأحد خيراً أمر بتسليمه إلى الربيع، وإذا أراد برجل شراً أمر بتسليمه إلى المسيّب557 ولما سجن الإمام عنده أو وكّل بحسبه أثّر عليه الإمام وسيطر على مشاعره، فاهتدى إلى طريق الحق والصواب، وأصبح من الشيعة

المخلصين ومن حملة أسرار الأئمة (عليهم السلام)558 وقد استدعاه الإمام قبل وفاته بثلاثة أيام فلما مثل عنده قال له: يا مسيّب.

ـ لبّيك يا مولاي.

ـ إني ظاعن في هذه الليلة إلى المدينة، مدينة جدّي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لأعهد إلى ابني علي ما عهده إلى آبائي، وأجعله وصيّي وخليفتي، وآمره بأمري.

ـ يا مولاي، كيف تأمرني أن أفتح لك الأبواب وأقفالها والحرس معي على الأبواب؟؟!

ـ يا مسيب ضعف يقينك في الله عزّ وجلّ وفينا؟

ـ لا، يا سيدي ادع الله أن يثبتني.

ـ اللهم، ثبّته، ثم قال: أدعو الله عزّ وجلّ باسمه العظيم الذي دعاه به آصف حين جاء بسرير بلقيس فوضعه بين يدي سليمان قبل ارتداد طرفه إليه حتى يجمع بيني وبين علي ابني بالمدينة.

قال المسيّب: فسمعته يدعو، ففقدته عن مصلاّه فلم أزل قائماً على قدمي حتى رأيته قد عاد إلى مكانه وأعاد الحديد إلى رجليه، فوقعت على وجهي ساجداً شاكراً لله على ما أنعم به علي من معرفته والتفت الإمام (عليه السلام) له فقال: (يا مسيّب، ارفع رأسك، واعلم أني راحل إلى الله عزّ وجلّ في ثالث هذا اليوم).

قال المسيّب: فبكيت، فلما رآني الإمام (عليه السلام) وأنا باكٍ حزين قال لي:

(لا تبكِ يا مسيّب فإن علياً ابني هو إمامك، ومولاك بعدي فاستمسك بولايته فإنك لن تضلّ ما لزمته) قال المسيّب: الحمد لله على ذلك.559

اغتيال الإمام (عليه السلام)

قول في سمّه

اتفق المؤرخون أن الإمام لم يمت حتف أنفه، وإنما توفي مسموماً، وإن هارون الرشيد هو الذي أوعز في دسّ السم واغتياله، لكنهم اختلفوا فيمن تولّى ذلك. فمنهم من قال: يحيى بن خالد ومنهم من قال: الفضل بن يحيى لكن الأول أقرب إلى الحقيقة، لأن الفضل عرف بميله للعلويين وقد رفّه على الإمام حينما كان في سجنه فاستحق بذلك التنكيل والتشهير من قبل هارون.

أن يحيى بن خالد دسّ السمّ إلى الإمام في رطب وعنب فقتله560 ومما يؤيد ذلك ما رواه عبد الله بن طاووس قال: سألت الإمام الرضا (عليه السلام) قلت له: هل أن يحيى بن خالد سمّ أباك موسى بن جعفر؟

فقال الإمام: نعم سمّه في ثلاثين رطبة مسمومة.561

وذكر أبو الفرج الأصفهاني أن الرشيد لما غضب على الفضل بن يحيى لترفيهه على الإمام حينما كان في سجنه، وأمره بجلده خرج يحيى من عند الرشيد وقد ماج الناس واضطرب أمرهم، فجاء إلى بغداد ودعا السندي بن شاهك وأمره بقتل الإمام (عليه السلام)، فاستدعى السندي الفراشين وكانوا من النصارى فأمرهم بلفّ الإمام في بساط فلفّ وهو حي فجلس عليه الفرّاشون حتى توفي562.

وذكر ابن المهنا أن الرشيد لما سافر إلى الشام أمر يحيى بن خالد السندي بقتله فقتله 563. وهذه الروايات على اختلافها تفيد أن يحيى هو الذي أمر بقتل الإمام (عليه السلام) ولكنه المخالفة لما عليه الجمهور في أن الرشيد عهد إلى السندي بقتله.

كيفية سمّه

المشهور عند أكثر الرواة أن الرشيد عمد إلى رطب فوضع فيه سماً فاتكاً وأمر السندي أن يقدمه إلى الإمام ويحتم عليه أن يتناول منه564 وقيل أن الرشيد أوعز إلى السندي في ذلك. فأخذ رطباً ووضع فيه السم وقدمه للإمام فأكل منه عشر رطبات، فقال له السندي: (زد على ذلك) فرمقه الإمام بطرفه وقال له:

(حسبك قد بلغت ما تحتاج إليه)565.

ولما تناول الإمام (عليه السلام) تلك الرطبات المسمومة تسمم بدنه، وأخذ يعاني آلاماً مبرحة وأوجاعاً قاسية، وأحاط به الأسى والحزن، قد حفّت به الشرطة القساة، ولازمه الوغد الخبيث السندي بن شاهك فكان يسمعه في كل فترة أخشن الكلام وأغلظه، ومنع عنه جميع الإسعافات ليجعل له النهاية المحتومة، لقد عانى الإمام العظيم في تلك الفترة الرهيبة ما لم يعانه أي إنسان، فتكبيل بالقيود وأذى مرهق، وآلام السم قطعت أوصاله وأذابت قلبه، والحزن الشديد الذي أثر فيه تأثيراً عميقاً لانتهاك حرمته، وغربته عن أهله وعدم مشاهدة أعزائه وأحبائه، وقد أشرف على مفارقة هذه الدنيا.

رعب وخوف واضطراب

أقدم السندي الخبيث الذي باع ضميره للشيطان على ارتكاب الجريمة الخطيرة، فدبّ الرعب في قلبه واضطرب اضطراباً شديداً وخوفاً بالغاً من المسؤولية إمام الشيعة العلويين. فيا لهول المصيبة إمام معصوم ابن إمام معصوم، ريحانة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) تنتهك حرمته ويقيد بالحديد والأغلال ويهان في السجن ويوكل بحراسته أشرار لئام ثم يدسّون له السم في السجن، فإنها لجريمة نكراء وأي جريمة!! فماذا يعمل السندي بعد فعلته هذه؟!

استدعى الوجوه والشخصيات المعروفة في مجتمعه إلى قاعة السجن وكانوا ثمانين شخصاً، كما حدث بذلك بعض شيوخ العامة يقول: أحضرنا السندي، فلما حضرنا، انبرى إلينا فقال:

(أنظروا إلى هذا الرجل هل حدث به حدث؟ فإن الناس يزعمون أنه قد فعل به مكروه، ويكثرون من ذلك، وهذا منزله وفراشه موسع عليه غير مضيق، ولم يرد به أمير المؤمنين ـ يعني هارون ـ سوءاً وإنما ينتظره أن يقدم فيناظره، وها هوذا موسع عليه في جميع أموره) يقول ذلك الشيخ: ولم يكن لنا همّ سوى مشاهدة الإمام ومقابلته فلما دنونا منه لم نرَ مثله قط في فضله ونسكه وتقواه فانبرى إلينا وقال لنا: (أما ما ذكر من التوسعة، وما أشبه ذلك، فهو على ما ذكر، غير أني أخبركم أيها النفر أني قد سقيت السم في تسع تمرات، وإني أصفر غداً وبعد غدٍ أموت).

ولما سمع السندي ذلك انهارت أعصابه، ومشت الرعدة بأوصاله واضطرب مثل السعفة التي تلعب بها الرياح العاصفة.566

لقد أفسد عليه الإمام (عليه السلام) بشهادته هذه ما كان يرومه من الحصول على البراءة من المسؤولية في قتله.

إلى جنّة المأوى

في اليوم الثالث سرى السم في جميع أجزاء جسم الإمام الطّاهر (عليه السلام) فأخذ يعاني اشد الآلام وأقسى الأوجاع، وقد علم (عليه السلام) أن لقاءه بربه أصبح قريباً فاستدعى السندي وطلب إليه أن يحضر مولى له ينزل

عند دار العبّاس بن محمد بن مشرعة القصب ليتولى غسله، وسأله السندي أن يأذن له في تكفينه فأبى (عليه السلام) وقال:

(إنا أهل بيت مهور نسائنا وحجّ صيرورتنا وأكفان موتانا من طاهر أموالنا وعندي كفني)567.

أحضر له السندي مولاه الذي طلبه، ولما ثقل حال الإمام (عليه السلام) مع وأشرف على النهاية المحتومة وأخذ يعاني زفرات الموت، استدعى المسيّب بن زهرة وقال له: (إني على ما عرفتك من الرحيل إلى الله عزّ وجلّ فإذا دعوت بشربة ماء وشربتها ورأيتني قد انتفخت، واصفرّ لوني واحمرّ واخضرّ وتلوّن ألواناً فأخبر الطاغية هارون بوفاتي) قال المسيّب:

فلم أزل أراقب وعده حتى دعا (عليه السلام) بشربة فشربها ثم استدعاني فقال لي:

(يا مسيّب إن هذا الرجس السندي بن شاهك سيزعم أنه تولى غسلي ودفني، وهيهات هيهات أن يكون ذلك أبداً، فإذا حملت إلى المقبرة المعروفة بمقابر قريش فألحدوني بها، ولا ترفعوا قبري فوق أربعة أصابع مفرجات، ولا تأخذوا من تربتي شيئاً لتتبركوا به، فإن كل تربة لنا محرمة إلا تربة جدي الحسين بن علي (عليه السلام) فإن الله عزّ وجلّ جعلها شفاء لشيعتنا وأوليائنا).

قال المسيب: ثم رأيت شخصاً أشبه الأشخاص به جالساً إلى جانبه وكان عهدي بسيدي الرضا (عليه السلام) وهو غلام، فأردت أن أسأله، فصاح بي سيدي موسى، وقال: أليس قد نهيتك، ثم إن ذلك الشخص قد غاب عنّي، فجئت إلى الإمام (عليه السلام) فإذا به جثة هامدة قد فارق الحياة فأنهيت الخبر إلى الرشيد بوفاته.568

لقد لحق الإمام (عليه السلام) بالرفيق الأعلى إلى جنة المأوى إلى جوار أبيه جعفر الصادق (عليه السلام) وأجداده المعصومين (عليهم السلام) وجدّه الرسول الأمين (صلّى الله عليه وآله) فاضت نفسه الزكية إلى بارئها فأظلمت الدنيا لفقده وأشرقت الآخرة بقدومه. وقد خسر المسلمون ألمع شخصية كانت تدافع عنهم وتطالب بحقوقهم، كما خسر الإسلام علماً عظيماً يذبّ عن كيان الإسلام، ويدافع عن كلمة التوحيد، ويناظر ويحاجج كل من أراد الاعتداء أو التحريف في شريعة الله الخالدة.

عاش معظم حياته لغيره، فكان أبرّ الناس بالناس، يعطف على الضعفاء، ويساعد الفقراء بصرره المعروفة باسمه، وأثلج قلوب المحتاجين بهباته الدائمة وعطاياه السخية ليخفف عنهم مرارة العيش وشقاء الحياة.

كان حليماً، كريماً، باراً، متسامحاً، محباً، عالماً، تقياً، ورعاً، مجاهداً، فقالوا عند موته: مات أحلم الناس، وأكظمهم للغيظ، وقد طويت بموته صفحة بيضاء من أروع الصفحات في العقيدة الإسلامية.

أيها العالم المجاهد المكافح، أيها الإمام العظيم لقد تلحّفت بثوب الشهادة ومضيت إلى الله شهيداً سعيداً فهنيئاً لك في مثواك الشريف الذي ما زال وسيبقى مزاراً لكل المسلمين المؤمنين.

فأين قبر هارون الطاغية؟ الذي صبّ عليك جام غضبه وأذاقك ألوان الأذى والإرهاق لقد اندثر كما اندثر غيره من قبور الطغاة الظالمين. وقفت في وجه هارون وكنت من أقوى خصومه تنعى عليه ظلمه وتندد بإسرافه وتبذيره أموال المسلمين على قصوره وخدامه وراقصاته وحيواناته...

أيها الشهيد السعيد سجبت استبداد الظالمين وجورهم وفزت برضاء الله ولم تصانع ولم تخادع بل رفعت راية الحق التي رفعها قبلك أبوك وجدك، وهتفت بصوت العدل تريد الخير والسعادة لجميع المسلمين الأحرار. لقد فزت فوزاً كبيراً وبقي اسمك عطراً على ألسن المسلمين المجاهدين قاطبة، ولقد خسر خصمك، وبطل سعيه، وأخمد ذكره وبات لعنة تلفظه الأفواه ولا يذكر إلا قرين الخيبة والخسران.

أنت كوكب من كواكب الإسلام المشرقة وعلم من أعلام الإنسانية نقف عندك لنأخذ عبرة ونستلهم من مواقفك كل جوانب الخير والحق.

لقد كنت على شفة الموت وجفن الحياة وبينهما مشرف الشهادة وهذه فوق الحياة والموت لأنها عري الذات وامتشاق الإرادة للانهمار على بحر الله والانذياع فيه بدون شراع. فسلام عليك يابن رسول الله، يوم ولدت، ويوم استشهدت، ويوم تُبعث حياً.

زمن وفاته

المشهور عند المؤرخين أن وفاة الإمام الكاظم (عليه السلام) كانت سنة 173هـ لخمس بقين من شهر رجب.569 وكانت وفاته في يوم الجمعة وعمره الشريف أربع وخمسون سنة أو خمس وخمسون 570 وكان مقامه منها مع أبيه عشرين سنة وبعد أبيه خمس وثلاثون سنة.571

محل وفاته

المعروف أن وفاته كانت في حبس السندي بن شاهك، وقيل أنه توفي في دار المسيّب بن زهرة بباب الكوفة الذي تقع فيه السدرة572 وقيل أن وفاته في مسجد هارون، وهو المعروف بمسجد المسيّب ويقع في الجانب الغربي من باب الكوفة لأنه نقل من دار تعرف بدار عمرو.573

التحقيق بالحادث

تحقيق وأي تحقيق: خداع وتضليل لتبرير ساحة الطاغية هارون! قامت شرطة الحاكم الظالم في التحقيق بهذا الأمر الخطير وغايتها تبرئة هارون من المسؤولية إمام جماهير الشيعة ومحبّي الإمام ومن المكلّف بالتحقيق؟ فاعل الجريمة نفسه! ما عاذ الله فالنتيجة مكتوبة قبل المباشرة بالتحقيق.

كلف هارون السندي بالتحقيق وكما يقولون (حاميها حراميها).

أرسل السندي إلى عمرو بن واقد وطلب إليه أن يجمع أشخاصاً يعرفون الإمام (عليه السلام)، ولما حضروا وعددهم يقارب الخمسين رجلاً سألهم: هل تعرفون موسى بن جعفر؟ قالوا: نعم. فقام عمرو وكشف الثوب عن وجه موسى، فالتفت السندي إلى الجماعة الشهود وقال لهم: انظروا إليه، فدنا واحد منهم بعد واحد فنظروا إليه، ثم قال لهم: (تشهدون كلكم أن به أثراً تنكرونه؟).

فقالوا: لا، ثم سجل شهاداتهم وانصرفوا)574.

ورواية أخرى تقول: إن السندي استدعى الفقهاء ووجوه أهل بغداد وفيهم الهيثم بن عدي وغيره فنظروا إلى الإمام وهو ميت وشهدوا على ذلك أن لا أثر به!

هذه الإجراءات التي اتخذها السندي بن شاهك إنما جاءت لتبرير ساحة الحكومة من المسؤولية وإبعاد الأنظار عنها في ارتكاب الجريمة لكن الإمام (عليه السلام) قد أفسد عليهم صنعهم وتضليلهم وكشف للناس أن هارون هو الذي اغتاله بالسم.

وأما ما اتخذه هارون المجرم لرفع الشبهات التي حامت حوله فإنه جمع شيوخ الطالبيين والعباسيين وسائر أهل مملكته والحكام فقال لهم: (هذا موسى بن جعفر قد مات حتف أنفه وما كان بيني وبينه ما استغفر الله منه ـ يعني

في قتله ـ فانظروا إليه) فدخل على الإمام سبعون رجلاً من شيعته، فنظروا إليه وليس به أثر جراحة ولا خنق.575 وقال أحد الشعراء:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة***وإن خالها تخفى على الناس تعلم

كل هذه الإجراءات لم تجد هارون نفعاً لأن الحق لابدّ أن يظهر، ولا يخفيه الدجل والخداع والتضليل فقد عرف الخاص والعام أنه هو الذي اغتال الإمام وهو المسؤول عن دمه وكل مساعيه باءت بالفشل.

على الجسر

إمام المسلمين وسيد المتقين العابدين وسبط النبي الأمين (صلّى الله عليه وآله) ألقي على جسر الرصافة في بغداد، قد أحاطت الشرطة بجثمانه المقدس، وكشفت عن وجهه بقصد انتهاك حرمته، والتشهير به. حاول هارون بفعلته الحقيرة هذه إذلال الشيعة عامة والعلويين خاصة ولم يرع الرحم الماسة التي بينه وبين الإمام (عليه السلام). لقد اثر ذلك في نفوسهم تأثيراً كبيراً وظلوا يذكرونه طوال مراحل حياتهم. اندفع شعراؤهم إلى نظم هذا الحدث المفجع وقال بحسرة ولوعة المرحوم الشيخ محمد الملا:

من مبلغ الإسلام أن زعيمه***قد مات في سجن الرشيد سميما

فالغي بات بموته طرب الحشا***وغدا لمأتمه الرشاد مقيما

ملقى على جسر الرصافة نعشه***فيه الملائك أحدقوا تعظيما

لقد ملأ الرشيد قلوب الشيعة بالحقد والحزن وتركهم يرددون هذه الفعلة المشينة بكرامة إمامهم طوال مراحل حياتهم.

ولم يكتف هارون الطاغية عند هذا الحد، بل أوعز إلى حارسه السندي اللعين ليأمر جلاوزته أن ينادوا على جثمان الإمام الشريف بنداء مؤلم تذهب لنفوس لهوله أسى وحسرات، فبدل أن يأمرهم بالحضور لجنازة الإمام المعصوم ابن الإمام المعصوم أمرهم أن ينادوا بنداء قذر موحش فهتفوا في الشوارع والطرقات:

(هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة أنه لا يموت، فانظروا إليه ميتاً)576.

التوهين بمركز الإمام (عليه السلام)

بقي الإمام ثلاثة أيام لم يوار جثمانه المقدس577، فتارة موضوع في قاعة السجن والشرطة تجري التحقيق في حادث وفاته، وأخرى ملقى على جسر الرصافة تتفرج عليه المارة وهو مكشوف الوجه. كل ذلك للاستهانة بمركزه والتوهين بكرامته.

تجهيز الإمام (عليه السلام)

اهتم سليمان بن أبي جعفر المنصور578 بتجهيز الإمام وتشييعه، كان قصره مطلاً على نهر دجلة، فسمع الصياح والضوضاء ورأى بغداد قد ماجت واضطربت فهاله ذلك، فالتفت إلى ولده وغلمانه قائلاً: (ما الخبر؟) فقالوا له: هذا السندي ابن شاهك ينادي على موسى بن جعفر، وأخبروه بذلك النداء القاسي. فثارت عواطفه واستولت عليه موجة من الغيظ فصاح بولده قائلاً:

(إنزلوا مع غلمانكم فخذوه من أيديهم، فإن مانعوكم فاضربوهم وخرقوا ما عليهم من سواد ـ وهو لباس الشرطة والجيش ـ انطلق أبناء سليمان579 وغلمانه إلى الشرطة فأخذوا جثمان الإمام (عليه السلام) منهم ولم تبد الشرطة

أية معارضة، حمل الغلمان النعش وجاءوا به إلى سليمان فأمر فوراً أن ينادي في شوارع بغداد بنداء معاكس لنداء السندي أخذ الغلمان ينادون بأعلى أصواتهم بهذا النداء:

(ألا من أراد أن يحضر جنازة الطيب ابن الطيب موسى بن جعفر فليحضر) 580. فلما سمع الناس هذا النداء خرجوا على اختلاف طبقاتهم لتشييع جثمان إمام المسلمين وسيد المتقين الورعين، وخرج الشيعة بصورة خاصة يذرفون الدموع ويلطمون الصدور والأسى والحزن قد أدمى قلوبهم، فجاء سليمان ففرج عنهم الكروب وواساهم في مصيبتهم المفجعة.

وتم تشييع الإمام (عليه السلام) بموكب حافل لم تشاهد بغداد نظيراً له.

أما إذا ما سألنا عن الأسباب التي دفعت سليمان للقيام بمواراة الإمام (عليه السلام) وتشييعه فيمكن اختصارها بما يلي:

أ) الرحم الماسة:

تلك الرحم التي تربط بينه وبين الإمام (عليه السلام) هي التي هزت مشاعره وأثارت عواطفه، فلم يستطع صبراً أن يسمع أولئك العبيد وهم ينادون بذلك النداء المنكر على جثمان زعيم الهاشميين وعميد العلويين. إضافة إلى أنه لم يكن بينه وبين الإمام ما يوجب الشحناء والبغضاء، فلذا أثرت فيه أواصر الرحم وانطلق إلى إنقاذ الجثمان ابن عمه من أيدي الجلاوزة وصنع بعض ما يستحق من الحفاوة والتكريم.

ب) محو العار عن أسرته:

رأى سليمان الذي حنكته التجارب أن الأعمال التي قام بها الرشيد تجاه الإمام (عليه السلام) هي أعمال مشينة لطخت جبين الأسرة العباسية، إذ كان يكفي هارون دسه السم إلى الإمام واغتياله عن القيام بتلك الأعمال البربرية الحاقدة والتي تدل على نفس لا عهد لها بالشرف والنبل والكرامة، كما تدل في الوقت نفسه على فقدان المعروف والإنسانية عند العباسيين. فقام سليمان بما يفرضه عليه الواجب الإنساني فقط للحفاظ على سمعته وسمعة أسرته ومحو العار عنهم.

ج) الخوف من انتفاضة شيعية:

خاف سليمان من قيام الشيعة بانتفاضة للثأر والانتقام، فيتمرد الجيش وتحدث اضطرابات عنيفة وفتن داخلية، لأنّ ذلك الاعتداء الصارخ على كرامة الإمام (عليه السلام) الطيب ابن الطيب، إنما هو طعنة نجلاء في صميم العقيدة الشيعية، فكان من الطبيعي أن تثير أعمال هارون البربرية عواطفهم وتحفزهم على الثورة والانتقام من خصومهم.

ولا يخفى أن عدد الشيعة في ذلك الوقت عدد لا يستهان به، فقد اعتنق عقيدتهم خلق كثير من رجال الدولة، وكبار الموظفين والكتاب في الدولة، وقادة الجيش، ولذا تدارك سليمان الموقف وقام بما أملاه عليه الواجب الإنساني وأنقذ حكومة هارون من الاضطراب والفتن المتوقعة في كل آن. كما أسدى بفعلته هذه يداً بيضاء على عموم الشيعة تذكر له الخير والثناء.

تجهيز الإمام (عليه السلام) على يد سليمان

قام سليمان بتجهيز الإمام (عليه السلام) فغسله، وكفنه، ولفه بحبرة كتب عليها القرآن الكريم بأسره كلفته ألفين وخمسمائة دينار.581

حدث المسيب بن زهرة قال: والله لقد رأيت القوم بعيني وهم يظنون أنهم يغسلونه فلا تصل أيديهم إليه ويظنون أنهم يحنطونه ويكفنونه وأراهم أنهم لا يصنعون شيئاً، ورأيت ذلك الشخص الذي حضر وفاته ـ وهو الإمام الرضا (عليه السلام) ـ وهو الذي تولى غسله وتحنيطه وتكفينه وهو يظهر المعاونة لهم، وهم لا يعرفونه فلما فرغ من أمره التفت إليّ فقال: (يا مسيب مهما شككت في شيء فلا تشكن في، فإني إمامك ومولاك وحجة الله عليك بعد أبي، يا مسيب مثلي مثل يوسف الصديق ومثلهم مثل إخوته حين دخلوا عليه وهم له منكرون)582.

مواكب التشييع

يوم تشييع الإمام موسى (عليه السلام) يوم أغر لم تر مثله بغداد في أيامها يوم مشهود حيث هرعت الجماهير من جميع الطبقات إلى تشييع ريحانة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فقد خرج لتشييع جثمانه الطاهر جمهور المسلمين، على اختلاف طبقاتهم يتقرّبون إلى الله جل جلاله بحمل جثمان سبط النبي (صلّى الله عليه وآله)، سارت المواكب تجوب الشوارع والطرقات وتصرخ ملتاعة حزينة.

أيضاً فقد خرج كبار الموظفين والمسؤولين من رجال الحكم يتقدمهم سليمان وهو حافي القدمين، وإمام النعش مجامير العطور. وقد حمل الجثمان على الأكف محاطاً بالهيبة والجلال، جيء به فوضع في سوق سمي بعد ذلك بسوق الرياحين، كما بني على الموضع الذي وضع فيه الجثمان المقدس بناء لئلا تطأه الناس بأقدامهم تكريماً له.583

وانبرى أحد الشعراء فأنشد هذه الأبيات:

وأزل أفاويه الحنوط ونحها***عنه وحنطه بطيب ثنائه

ومر الملائكة الكرام بحمله***كرماً ألست تراهم بإزائه

لأتوه أعناق الرجال بحمله***يكفي الذي حملوه من نعمائه584

وسارت المواكب متجهة إلى محلة باب التبن585 وقد ساد عليهم الوجوم والحزن، وخيم عليهم الأسى من هول المصاب.

إلى المقر الأخير

قال تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)586.

أحاطت الجماهير الحزينة بالجثمان المقدس وهي تتسابق على حمله للتبرك به. حفر له قبر في مقابر قريش، وأنزله سليمان بن أبي جعفر في مقره الأخير هو مذهول مرعوب خائر القوى، وبعد فراغه من مراسيم الدفن، أقبلت إليه الناس تعزيه وتواسيه بالمصاب الأليم.

فهنيئاً لك أيها القبر باستقبال هذا الضيف الطاهر هذا العالم المعلم، وهذا العبد الصالح الذي آثر طاعة الله على كل شيء في هذه الدنيا انصرف المشيعون وهم يعدّدون فضائل الإمام الشريفة ومناقبه السامية ويذكرون ما عاناه الكاظم غيظه من المحن والخطوب وقيود السجن قالوا كلهم: إن فقد الإمام كان من أعظم النكبات التي مني بها العالم الإسلامي عامة والشيعة خاصة في ذلك العصر.

ولا غرو في ذلك لقد فقد المسلمون علماً من أعلام العقيدة الإسلامية وإماماً معصوماً من الأئمة المعصومين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وغصناً من دوحة النبوة.

هكذا عمت قلوب الطامعين بالملك فتحجرت قلوبهم وتصلبت أحاسيسهم فجاروا وظلموا وبطشوا وضيعوا موازين الحق والعدل. والغريب العجيب أنهم نصبوا أنفسهم على الناس بحد السيف وسموا أنفسهم خلفاء الله على الأرض. لقد ضاعوا في دنيا الجاه والسلطان وغرقوا في لجج الأنانية وحب التسلط وقد تحمل الإمام الكاظم كل هذا الجور والظلم وبقي صامداً أمام الظالمين لا يلين ولا يضعف أمام جورهم وظلمهم.

عاش (عليه السلام) في حياته عيشة المتقين الصالحين، والمجاهدين المدافعين عن حقوق الأمة الإسلامية، لقد رفع كلمة الحق وحطم الباطل فلم يجار هارون، ولم يصانعه، بل كان من أقوى الجهات المعادية، له، وقد تحمل في سبيل ذلك جميع ضروب الأذى وكل ألوان الآلام حتى لفظ نفسه الشريف في ظلمات السجون وفاز بالشهادة، وجعل الله ذكره خالداً مدى الدهور، وقدوة صالحة تسير عليها الأجيال المجاهدة في سبيل الله، ومرقده في بغداد كان ولم يزل ملجأ للمنكوبين وملاذاً للملهوفين يسعون إليه من كل حدب وصوب ويدعون له لحل مشاكلهم وتسهيل أمورهم، وما قصد مرقده أحد من طلاب الحاجات إلا لبى حاجته وما خاب من دعاه.

وقد منّ الله عليه فجعله من أئمة أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

ما قاله الشعراء في مدح الإمام الكاظم (عليه السلام)

وهذا باب واسع، لو أردنا أن نستقصي ما قيل في مدح الإمام (عليه السلام) ورثائه لجاء اضعاف ما ذكرناه، وعملاً بمنهجنا في الاختصار نذكر:

قال الشيخ موسى محيي الدين587 في الإمام موسى كاظم الغيظ (عليه السلام):

يا كاظم الغيظ يا جد الجواد ومن***عمّت جميع بني الدنيا مكارمه

ومن غدا شرع خير المرسلين به***سامي الذرى وبه شيدت دعائمه

الحق لولاك ما بانَت حقائقه***والشرع لولاك ما قامت قوائمه588

وفيك ينكشف الكرب العظيم إذا***جاشت علينا بلا جرم قشاعمه589

إمام حق أبان الحق وانتشرت***أفعاله الغرمذ نيطت تمائمه

فعالم الدين خير الناس عالمه***وكاظم الغيظ خير الناس كاظمه590

مولى غدا من رسول الله عنصره***أكرم به عنصراً طابت جراثمه591

به وآبائه زان الوجود وفي***أبنائه الغرقد شيدت معالمه

من أم مغناك يا أزكى الورى نسباً***للازم كيف لا تقضى لوازمه592

فيا خليلي والخل الخليل إذا***حبا الخليل بأسنى ما يلائمه593

لا تحسبا كل شوق يدعى عبثاً***فالشوق إن هاج لا تخفى معالمه

ولا تلوما إذا ما رحت ذا كلف***والدمع من مقلتي فاضت سواجمه594

أنا المشوق المعنى بازدياد حمى***موسى بن جعفر صب القلب هائمه595

فعلّلا قلبي العاني الضعيف به***فإن في ذكره تقوى عزائمه596

وقال السيد صالح القزويني قصيدة يمكن أن نضع لها عنواناً:

(ليس الرشيد رشيداً ولا المأمون مأمونا) قال:

اعطف على الكرخ من بغداد وابكِ بها***كنزاً لعلم رسول الله مخزونا

موسى بن جعفر سر الله والعلم الـ***ـمبين في الدين مفروضاً ومسنونا

باب الحوائج عند الله والسبب الـ***ـموصول بالله غوث المستغيثينا
الكاظم الغيظ عمن كان مقترفاً***ذنباً ومن عمّ بالحسنى المسيئينا
يابن النبيين كم أظهرت معجزة***في السجن أزعجت في الرجس هارونا
وكم بك الله عافى مبتلى ولكم***شافى مريضاً وأعنى فيك مسكينا
لم يُلهك السجن عن هدي وعن نسك***إذ لا تزال بذكر الله مفتونا
وكم أسروا بزاد أطعموك به***سمّاً فأخبرتهم عمّا يسرونا
وللطبيب بسطت الكف تخبره***لما تمكن منها السمّ تمكينا
بكت على نعشك الأعداء قاطبة***ما حال نعش له الأعداء باكونا
راموا البراءة عند الناس من دمه***والله يشهد ما كانوا بريئينا
كم جرّعتك بنو العباس من غصص***تذيب أحشاءنا ذكراً وتُشجينا
قاسيت ما لم تقاس الأنبياء وقد***لاقيت أضعاف ما كانوا يلاقونا
أبكيت جديك والزهراء أمّك***والأطهار آباؤك الغر الميامينا
طالت لطول سجود منه ثفنته***فقرحت جبهة منه وعرنينا
رأى فراغته في السجن منيته***ونعمة شكر الباري بها حينا
يا ويل هارون لم تربح تجارته***بصفقة كان فيها الدهر مغبونا
ليس الرشيد رشيداً في سياسته***كلاّ ولا ابنه المأمون مأمونا
تالله من كان من قربى ولا رحم***بين المصلين ليلاً والمغنينا
لهفي لموسى بهم طالت بليته***وقد أقام بهم خمساً وخمسينا
يزيدهم معجزات كل آونة***ونائلاً وله ظلماً يزيدونا
لم يحفظوا من رسول الله منزله***ولا لحسناه بالحسنى يكافونا
باعوا لعمري بدنيا الغير دينهم***جهلاً فما ربحوا دنيا ولا دينا
في كل يوم يقاسي منهم حزنا***حتى قضى في سبيل الله محزونا597
وقال الشيخ محمد الملا598:
من مبلغ الإسلام أن زعيمه***قد مات في سجن الرشيد سميما
فالغي بات بموته طرب الحشا***وغدا لمأتمه الرشاد مقيما
ملقى علىجسر الرصافة نعشه***فيه الملائك أحدقوا تعظيما
فعليه روح الله أزهق روحه***وحشا كليم الله بات كليما
لا تألفي لمسرة فهرٍ فقد***أضحى سرورك هالكاً معدوما
منح القلوب مصابه سقما كما***منع النواظر في الدجى التهوينا599
وقال الشيخ عبد الحسين الحياوي600:
جانب الكرخ شأن أرضك شيّد***قبر موسى بن جعفر بن محمد
بثرى طاول الثريا مقاماً***دون أعتابه الملائك سجد
ضم منه الضريح لاهوت قدس***ليديه تلقى المقادير مقود
من عليه تاج الزعامة في الدين***امتناناً به من الله يعقد

وقد تجلى للخلق في هيكـ***ـل الناس لكنه بقدس مجرد
هو معنى وراء كل المعاني***صوّب الفكر في علاه وصعّد
سابع الصفوة التي اختارها***الله على الخلق أوصياء لأحمد
هو غيث إن أقلعت سحب الغيث***وغوث إن عزّ كهف ومقصد
كان للمؤمنين حصناً منيعاً***وعلى الكافرينا سيفاً مجرد
أخرجوه من المدينة قسراً***كاظماً مطلق الدموع مقيد
حر قلبي عليه يقضي سنيناً***وهو في السجن لا يزار ويقصد
مثل موسى يرمى على الجسر ميتاً***لم يشيعه للقبور موحد
حملوه وللحديد برجليه***دوي له الأهاضب تنهد601
وقال الشيخ مجيد خميس602 من قصيدة له تعرض فيها لوفاة الإمام موسى الكاظم (عليه السلام):
إن لم يشيع نعشه فلم تكن***منقصة عليه في عليائه
فخلفه الأملاك قد تزاحمت***والروح أدمى الأفق من بكائه
منادياً عن شجنٍ وإنه***قطع قلب الدين في ندائه
يا قمر الإسلام قد أمسى الهدى***دجنة منذ غبت عن سمائه
وقد غدى الإيمان ينعي نفسه***فطبق الأكوان في نعمائه
هذا إمام الحق عاش في العدى***مضطهدا ومات في غمائه
لقد ثوى بلحده وما ثوى***إلا الهدى والدين في ثوائه603
وقال الأربلي:
القائم الصائم أكرم به***من قائم مجتهد صائم
من معشر سنوا الندى والقرى***وأشرقوا في الزمن القائم
واحرزوا خصل العلى فاغتدوا***أشرف خلق الله في العالم
يروي المعالي عالم منهم***مصدق في النقل عن عالم
قد استووا في شرف المرتقى***كما تساوت حلقة الخاتم
من ذا يجاريهم إذا ما اعتزوا***إلى عليّ وإلى فاطم
ومن يناويهم إذا عدّدوا***خير بني الدنيا أبا القاسم604
وقال الشيخ مطر بن محمود الخفاجي الغروي605:
إذا ما دهاك الدهر يوماً بمعضل***وأنزلت في واد من الهول مخطر
وحاطت بك الأهوال من كل جانب***عليك بباب الله موسى بن جعفر606
وقال عبد الباقي العمري:
لذ واستجر متوسلاً***إن ضاق أمرك أو تعسر
بأبي الرضا جد الجوا***د محمد موسى بن جعفر607

الخاتمة

ابتُلي التاريخ الإسلامي بكثير من المؤرخين والرواة الذين عاشوا على موائد الملوك وأموالهم، فافتعلوا لهم المآثر والفضائل وأضافوا إليهم النعوت البرّاقة والأوصاف الخلاّبة الأمر الذي أدى إلى تشويه التاريخ الإسلامي. فعلى كل باحث منصف أن ينظر إلى هذا التاريخ نظرة عميقة صادقة فيعريه من ألوان الدعاية ليكون فهمه على أساس واقعي رصين.

إن على الباحثين في تاريخ الشخصيات الإسلامية أن لا يضيفوا إلى مراكزه العليا إلا الأكفاء المتربين على مثاليته وهديه؛ أما الأدعياء الذين لفّوا لواء الإسلام وهدموا وخرّبوا وظلموا فيجب تجريدهم من إطار الشخصية الإسلامية المثالية وإبعادهم عن تاريخه الناصع.

إن المقياس الحقيقي والميزان السليم هي الشريعة الإسلامية فما كان من أعمال الحكام مرتبطاً بها فهم محسوبون على الإسلام وهو مسؤول عنهم كالأئمة المعصومين (عليهم السلام)، أما الأعمال النابية المنحرفة عن الإسلام والتي لا تمثل هديه وواقعه فإنه غير مسؤول عنها ولا تمثل وجهة نظره، وكثيرون من أعداء الإسلام قد آخذوه بأعمال بعض الحكام كالوليد والمنصور والرشيد والمتوكل والهادي ونظائرهم من الذين أثبتوا في أعمالهم السياسة والإدارية أنهم أعداء الإسلام فكيف يحاسب الإسلام على ما اقترفوه من عظيم الذنوب والآثام.

من هنا كان على دعاة الإصلاح أن يؤدوا رسالة الإسلام على حقيقتها النازلة من رب العالمين، ويعرفوا الجماهير برجال الإسلام المخلصين الذين قاموا بأهم التضحيات في سبيل نشر العدالة والقيم الإنسانية، ورفع مستوى الحياة اللائقة.

وإني أرى أنه من الضرورة الملحة إفهام الناس بذلك وتغذية ناشئتهم بالآداب الإسلامية ليتربى على ذلك جيل واع سبّاق لفعل الخيرات والقيام بخدمة بلاده ومجتمعه بإخلاص ووفاء.

ومما لا شك فيه بإجماع المسلمين أن أكبر رجال الإسلام علماً وأكثرهم تضحية وأشدهم جهاداً في سبيل الله هم أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فهم القدوة الصالحة للأمة الإسلامية وهم منابرها المشرقة على دروب الخير والهداية، وقد ضمن النبي الأعظم (صلّى الله عليه وآله) لأمته أن لا تضل عن طريق الحق والصواب لو أخذت بتعاليمهم وتمسكت بهم. قال (صلّى الله عليه وآله): (إني مخلّف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً).

والجميع منهم (عليهم السلام) على تجردهم من مآثم هذه الحياة، كان لهم اتجاه واحد هو خدمة الإسلام والعمل في سبيل المصالح العامة. ولذلك نراهم قد جاهدوا وكافحوا ضد الظالمين والمنحرفين والمضللين. ومما لا ريب فيه أن بلوغ هذه الأمة ذروة الحق ونهضتها الحضارية المباركة من أجل الزحف المقدس يتوقف على اقتدائها بسيرة أهل البيت (عليهم السلام) والأخذ بتعاليمهم، لأن تعاليمهم هي تعاليم جدهم المصطفى (صلّى الله عليه وآله) وتعاليم جدهم (صلّى الله عليه وآله) من رب العالمين جلّ وعلا. والإمام موسى أحد هذه الكواكب المشرقة وإمام من أئمة العترة الطاهرة، وقد كظم غيظه وأدى رسالة ربه بكل أمانة وإخلاص وتحمّل في سبيل ذلك أقسى ألوان المحن والخطوب في السجون والقيود بعيداً عن الأهل والأصحاب. فقاوم وازدرى بسلطان هارون وصارحه بجوره واغتصابه لمركز الخلافة الإسلامية ولم يدار ولم يصانع.

ولقد تشرفت بالبحث عن سيرة هذا الإمام العظيم الإمام السابع من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فذكرت سيرته منذ الولادة حتى انتقاله (عليه السلام) إلى مقره الأخير، ثم تحدثت عن عصره ومحنه مع الحكام العباسيين. ثم علمه الزاخر ورده على الضالين والمشعوذين ومناظراته معهم جميعاً حتى إفحامهم وإقناعهم.

كما أجريت عرضاً موجزاً لدرر من حكمه الخالدة حسب حروف الأبجدية وسردت دروساً مثالية عن هذا الإمام المثالي، وتحقيقه الأهداف السامية بفضل إيمانه العميق وتعهده بالتكاليف الشرعية المطلوبة منه تجاه أمته وتجاه رب العالمين.

ثم أجريت كشفاً عن أبرز الرواة والأصحاب الذين رووا عنه.

وأخيراً الإمام الكاظم (عليه السلام) ينعي نفسه إلى المقرّ الأخير.

وإني أسعى بكل جهودي لأقدم إلى المكتبة الإسلامية هذا العمل المتواضع وهو صفحة من حياة الإمام موسى الكاظم (عليه السلام)، ومثل موجز لشخصية العظيمة. ولا أزعم أنني قد ألممت بجميع شؤونه وعلومه وآثاره، فذاك أمر لا تسعه المجلدات الكبيرة. وإن الباحث المتتبع لعلوم هذا الإمام العظيم يجد صوراً جديدة مشرقة كثيرة من حياته، كما يجد في تراثه الكثير من الحكم والآراء القيّمة في جميع ميادين السلوك والأخلاق والآداب والاجتماع والفقه والعلوم الأخرى...

وقد أعطيت صورة موجزة عن بعض معارفه ومثله وتراثه، كما ذكرت كوكبة من أصحابه ورواة حديثه وأبنائه؛ وبحثت موضوعي بعيداً عن التحيّز والتعصّب وكان رائدي الإخلاص للحق راجياً أن يكون ذلك خدمة للإسلام وخدمة لعلم كبير من أعلامه العظماء النابهين.

هذا بعض ما في هذا البحث أرفع به أسمى آيات الشكر والتقدير للمساهمين بهذه المباراة الكريمة، كما أشكر اللجنة الكريمة وأرجو منها نقداً موضوعياً تصحيحياً راجياً لهم دوام العافية وجزاهم الله عنّي خير جزاء إنه نعم المولى ونعم النصير، والحمد لله رب العالمين.

د. حسين إبراهيم الحاج حسن

الفهرس

بين يدي الكتاب
الإهداء
كلمة شكر وتقدير
تمهيد
الوليد المبارك
مناقبه وفضائله
ما قاله العلماء والعظماء في فضائله
أدعيته
استجابة دعاء الإمام الكاظم
أدعية الأسبوع
قيمة الدعاء
الإمامة

عصر الإمام الكاظم

سياسة الحكم العباسي

الفرق الإسلامية

التنكيل بالعلويين

مع المنصور

في عهد المهدي

الإمام الكاظم في عهد الهادي

الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) وهارون

الإمام الكاظم دائرة معارف

الاستدلال عن طريق العقل

وجوب الاستدلال ـ وحدوث الهداية

كيف نصر الله أنبياءه

1ـ خلق السماوات والأرض

2ـ الأرض

3ـ اختلاف الليل والنهار

4ـ جريان الفلك

5ـ نزول الماء من السماء

6ـ بث الدواب في الأرض

7ـ تسخير السحاب

وصية الإمام (عليه السلام) لهشام بن الحكم في صفة العقل

الإمام الكاظم (عليه السلام) علاّمة عصره وعلامة كل عصر

العلم عند أهل البيت (عليهم السلام)

صفات العالم الصحيح

حدود العلم

العلم والعمل

الفقه الديني عند الإمام (عليه السلام)

مجالسة العلماء ـ واجبات المسلم المتعلم

معنى الله ـ صفات الله

النهي عن التشبيه ـ النهي عن الحركة

علم الله تبارك وتعالى

جوامع التوحيد

العدل ـ هل الله تعالى شيء

ليس كمثله شيء

نفي الزمان والمكان

الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية
الإمام الكاظم عالم في الاقتصاد
التحذير من الكسل
حسن الجوار
إغاثة المستجير
التراحم والتعاطف
السخاء وحسن الخلق
مكارم الأخلاق
الصبر وفضله
في حقيقة الصبر
الإمام الكاظم عالم نفسي
محاسبة النفس
مراقبة النفس
كيف تقاس الأعمال
القياس بالنفس
المسؤولية الفردية
عيوب النفس
معرفة النفس
الحب الخالص والود الخالد
في سبيل الشريعة الإسلامية
مناظرات الإمام الكاظم (عليه السلام)
الإمام الكاظم (عليه السلام) في حصار التكاليف
تحقيق الأهداف السامية
بإرادة الإنسان تعمر الأوطان
دور الإيمان في التعهد بالتكاليف
أسباب اعتقال الإمام (عليه السلام)
من ظلم المجتمع إلى ظلام السجن
القبض على الإمام (عليه السلام)
في البصرة
اتصال العلماء به ـ الإيعاز باغتياله
طلب عيسى بالإعفاء
حمل الإمام (عليه السلام) إلى بغداد
إشراف هارون على الإمام (عليه السلام) في سجنه
مصائب ومتاعب ـ دعاء من القلب

إطلاق سراح الإمام (عليه السلام)
الإذن بالرجوع إلى يثرب
اعتقال الإمام (عليه السلام) عند الفضل بن يحيى
الإيعاز باغتياله من جديد
التنكيل بالفضل
خاتمة المطاف
مكان السجن
التضييق على الإمام (عليه السلام)
تفرغ الإمام للعبادة من جديد
اتصال العلماء بالإمام (عليه السلام)
إرسال الفتاوى إلى الإمام (عليه السلام)
تعيين وكلاء الإمام (عليه السلام)
تعيين ولي عهده
وصية الإمام الكاظم (عليه السلام)
أوقافه وصدقاته
ترفع الإمام من المطالبة بإطلاق سراحه
إغراء وفتنة
محاولة اغتيال جديدة لكنها فاشلة
وساطة فاشلة عند نفس علوية أبية
الإمام ينعي نفسه
مع المسيب بن زهرة
اغتيال الإمام (عليه السلام)
كيفية سمّه
رعب وخوف واضطراب
إلى جنة المأوى
زمن وفاته
محل وفاته
التحقيق بالحادث
على الجسر
التوهين بمركز الإمام (عليه السلام)
تجهيز الإمام
تجهيز الإمام (عليه السلام) على يد سليمان
مواكب التشيع
إلى المقر الأخير

ما قاله الشعراء في مدح الإمام الكاظم (عليه السلام)
الخاتمة

1 - إحياء الميت بفضائل أهل البيت، الحديث الرابع والعشرون، ذكره عن طرق كثيرة.
2 - إحياء الميت بفضائل أهل البيت، الحديث السابع والعشرون.
3 - قال الشيخ المظفّر في كتابه الثقلان: إن طرق هذا الحديث بلغت مائتين وخمسين طريقاً؛ من هنا يُعلم أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان يكرس على مسامع المسلمين في كلّ مناسبة، طالباً من الأمّة التمسّك بهما.
4 - إحياء الميت بفضائل أهل البيت، الحديث الحادي والعشرون، وأيضاً في مستدرك الصحيحين: ج 3 ص457. وكنز العمال: ج6 ص216. ومجمع الزوائد: ج9 ص174.
5 - روضة الواعظين، ج2 ص271.
6 - إحياء الميت بفضائل أهل البيت، الحديث الثامن عشر.
7 - عقاب الأعمال: 204.
8 - أمالي الشيخ الطوسي، 73.
9 - مجمع البيان، 9-10، 29.
10 - ديوان الإمام الشافعي، 72.
11 - سورة الأحزاب، الآية 33.
12 - سورة آل عمران، الآية 134.
13 - الرسالية في الثورة الحسينية، للمؤلف.
14 - الفقه الإسلامي في مدخل نظام المعاملات، ص160.
15 - ينابيع المودة، ج2، ص78.
16 - حُمَيْدَة: وقيل أن اسمها نباتة، النفحات العنبرية، ص15، مخطوط بمكتبة الإمام كاشف الغطاء العامة، طبع مؤخراً.
17 - الأبواء: قرية من أعمال الفرع بالمدينة، وبه قبر الزاكية آمنة بنت وهب أم النبي الأكرم (صلّى الله عليه وآله). وقال ثابت اللغوي سميت الأبواء لتبوء السيول بها. راجع معجم البلدان، ج1، ص92.
18 - بحار الأنوار، ج11، ص230 دلائل الإمامة.
19 - الطبقات الكبرى، ج1، ص33 - وتهذيب التهذيب، ج10، ص34 - وكشف الغمة، ج 3، ص2 - والمناقب، ج4، ص323.
20 - أعلام الورى، ص286.
21 - أعيان الشيعة، ج4، ص9.
22 - الفصول المهمة، ص112.
23 - الفصول المهمة، ص112.
24 - أعيان الشيعة، ج4، ص9.
25 - المناقب، ج4، ص318.

26 - الإرشاد، ص270.

27 - الفصول المهمة، ص214.

28 - المناقب، ج2، ص212.

29 - نفس المصدر، ص212، ومختصر تاريخ العرب، ص209.

30 - الفصول المهمة، ص214.

31 - تاريخ بغداد، ج1، ص120.

32 - تحفة العالم: 2 ص22.

33 - المصدر نفسه.

34 - الكافي، ج4، ص578.

35 - باقر شريف القرشي حياة الإمام موسى بن جعفر، ج 1، ص52، عن ديوان السيد مهدي آل بحر العلوم مخطوط بمكتبة العلامة السيد صادق آل بحر العلوم.

36 - المصدر نفسه.

37 - الفصول المهمة، ص256.

38 - راجع الفصول المهمة، ص256، وكشف الغمة، ص243، وتذكرة الخواص، ص84.

39 - أعلام الورى، ص301.

40 - الإرشاد، ص267.

41 - الفهرست، ص113.

42 - الإرشاد، ص469.

43 - المصدر نفسه.

44 - الإرشاد، ص310.

45 - نفسه، ص270.

46 - أعيان الشيعة، ج3، ص13.

47 - أئمتنا لعلي محمد علي دخيل الذي يروي أن في حرب مؤتة أقر الرسول (صلّى الله عليه وآله) جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة وجعل القيادة لجعفر فإن أصيب فلزيد، فإن أصيب فلعبد الله.

48 - نفس المصدر، ج1، ص10.

49 - قادتنا كيف نعرفهم ج6، ص305، عن عيون أخبار الرضا، ج1، ص91.

50 - مطالب السؤول، ص225.

51 - راجع في رحاب أئمة أهل البيت، ج2، ص84.

52 - تحف العقول، ص305.

53 - بحار الأنوار، ج11، ص266.

54 - الفصول المهمة، ص 222.

55 - المناقب، ج2، ص372.

56 - كشف الغمة، ص247.

57 - حياة الإمام موسى بن جعفر.

58 - الفصول المهمة، ص219.

59 - أعيان الشيعة، ج3، ص42 وتاريخ بغداد، ج13، ص28.

60 - كشف الغمة، ص243 وتاريخ بغداد، ج13، ص29.

61 - كشف الغمة، ج2، ص253.

62 - كشف الغمة، ج2، ص246.

63 - البحار، ج11، ص264، والبحار، ج11، ص147.

64 - البحار، ج11، ص285.

65 - تذكرة الخواص، ص196.

66 - الأمالي، ص150.

67 - الأمالي، ص150.

68 - أعيان الشيعة، ج3، ص71.

69 - أئمتنا، ج1، ص66-67.

70 - مرآة الجنان، ج1، ص394.

71 - الأعلام، ج3، ص108.

72 - المناقب، ج2، 383.

73 - الصواعق المحرقة، ص121.

74 - حياة الإمام موسى بن جعفر، ج1، ص175.

75 - كشف الغمة، ص255.

76 - ينابيع المودة، ص362.

77 - حياة الإمام موسى بن جعفر، ج1، ص175.

78 - أصول الكافي ج2، ص553.

79 - مهج الدعوات، ص54.

80 - نفسه، ص33

81 - أصول الكافي، ص562.

82 - بحار الأنوار، ج11، ص239.

83 - أئمتنا، ج2، ص56.

84 - أصول الكافي، ج2، ص553.

85 - مهج الدعوات، ص67.

86 - أعيان الشيعة، ج3، ص61.

87 - أئمتنا، ج2، ص59-61.

88 - الكافي، ج2، ص550.

89 - بحار الأنوار، ج94، ص313.

90 - المصدر نفسه، ج95، ص362.

91 - سورة غافر، الآية 60.

92 - راجع مصباح المتهجد للشيخ الطوسي، ص350-357.

93 - الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين (عليه السلام) وقد عالج هذا الموضوع عدد من الباحثين العلماء منهم السيد عباس الموسوي في كتابه (في رحاب الصحيفة السجادية).

94 - ففي حرب مؤتة أمّر الرسول (صلّى الله عليه وآله) جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، وجعل القيادة للأول، فإن أصيب فللثاني فإن أصيب فللثالث.

95 - سورة يونس، الآية 35.

96 - راجع أئمتنا ج1 تجد نصوص الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) على الأئمة (عليهم السلام).

97 - الإرشاد، ص310.

98 - المعجم، ج1، ص27.

99 - سورة يس، الآية 12.

100 - السياسة الشرعية، ص172-173.

101 - الملل والأهواء، ج4، ص87.

102 - روى الحديث مسلم وكذلك رواه النسائي.

103 - المقدمة، ص151.

104 - سورة ص، الآية 26.

105 - سورة القصص، الآية 68.

106 - سورة الأعراف، الآية 155.

107 - سورة النساء، الآية 153.

108 - بحار الأنوار، ج13، ص127.

109 - سورة آل عمران، الآية 29.

110 - سورة التوبة، الآية 32.

111 - سورة ص، الآية 26.

112 - صحيح البخاري، ج9، ص62، ومسلم ج2، ص213.

113 - صحيح الترمذي، ج6، ص73 والخلة: الحاجة والفقر.

114 - راجع هذه الأوصاف في الأحكام السلطانية، ص4 والمقدمة لابن خلدون، ص135.

115 - سورة الأحزاب، الآية 33.

116 - الرجس: المعاصي.

117 - سورة يس، الآية 82.

118 - حياة الإمام موسى بن جعفر، ج1، ص112.

119 - المصدر نفسه، ص113.

120 - عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر، ص51-54.

121 - سورة الجمعة: الآية 2.

122 - سورة الأنبياء، الآية 72-73.

123 - سورة البقرة، الآية 124.

124 - سورة الأنبياء، الآيتان 72-73.

125 - سورة آل عمران، الآية 68.

126 - سورة الروم، الآية 56.

127 - سورة يونس، الآية 35.

128 - سورة البقرة، الآية 269.

129 - سورة النساء، الآية 54-55.

130 - سورة الحديد، الآية 21.

131 - سورة القصص، الآية 50.

132 - سورة محمد، الآية 8.

133 - سورة المؤمن، الآية 35.

134 - راجع عيون أخبار الرضا، ج1، ص216-222 وأصول الكافي.

135 - سورة آل عمران، الآية 110.

136 - كنز العمال، ج6، ص392.

137 - نفسه، ج6، ص154.

138 - حلية الأولياء، ج1، ص63.

139 - الاتحاف بحجب الأشراف، ص129.

140 - منهاج السنة، ج4، ص210.

141 - المراجعات، ص228.

142 - المراجعات، ص227.

143 - المصدر نفسه.

144 - حلية الأولياء، ج1، ص86.

145 - كشف الغمة، ص151، وأصول الكافي للكليني.

146 - قال الإمام كاشف الغطاء (قدس الله مثواه): إن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو نفس صاحب الشريعة الإسلامية ـ فوضعت بذرة التشيع مع بذرة الإسلام جنباً إلى جنب وسواء بسواء، ولم يزل غارسها يتعهدها بالسقي والعناية، حتى نمت وازدهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته (أصل الشيعة وأصولها، ص87-88).

147 - سورة الصف، الآيتين 8-9.

148 - مروج الذهب، ج3، ص225.

149 - الطبري، ج9، ص398.

150 - مروج الذهب، ج3، ص225.

151 - الديوان، ص128 والغدير، ج3، ص238.

152 - البداية والنهاية، ج10، ص81.

153 - بحار الأنوار، ج47، ص306-307.

154 - عيون أخبار الرضا، ج1، ص111.

155 - تاريخ اليعقوبي، ج3، ص349.

156 - الأغاني، ج5، ص5.

157 - الفخري، ص167.

158 - تاريخ اليعقوبي، ج3، ص134.

159 - الجهشياري، ص103.

160 - تاريخ بغداد، ج2، ص193.

161 - راجع نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية، ج2.

162 - الطبري، أحداث سنة 169.

163 - الطبري، ج6، ص397.

164 - سورة محمد، الآية 22.

165 - البحار، ج11، ص252 ونور الأبصار، ص136.

166 - حضارة الإسلام في دار السلام، ص84.

167 - الأغاني، ج5، ص241، ص6.

168 - اليعقوبي، ج3، ص136.

169 - الطبري، ج10، ص29.

170 - كعب بن مالك بن أبي كعب الخزرجي شاعر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وأحد السبعين الذين بايعوه بالعقبة، وشهد المشاهد كلها سوى واقعة بدر وهو القائل:

وببئر بدر إذ يرد وجوههم***جبريل تحت لوائنا ومحمد

وقد توفي في خلافة علي بن أبي طالب (عليه السلام) بعد أن كف بصره. معجم الشعراء. ص342.

171 - يعرف هذا الدعاء بدعاء الجوشن الصغير ذكر في مهج الدعوات، ص 220، وفي مفاتيح الجنان وذكره ابن شهر اشوب في المناقب.

172 - الطبري، ج10، ص33 والجهشياري، ص175 واليعقوبي، ج3، ص138.

173 - الفصول المهمة، ص252.

174 - أخبار الدول، ص113 ووفيات الأعيان، ج1، ص394 والاتحاف بحب الأشراف، ص55.

175 - تذكرة الخواص، 359، طبعاً هذا منطق الظالمين الطامعين.

176 - سورة الأعراف، الآية 146.

177 - سورة البينة، الآية 1.

178 - سورة إبراهيم، الآية 28.

179 - البحار، ج11، ص279.

180 - سورة المؤمنون، الآية 71.

181 - سورة ص، الآية 51.

182 - سورة النساء، الآية 135.

183 - سورة النازعات، الآيتان 40-41.

184 - سورة الزمر، الآيتان 17-18.

185 - سورة البقرة، الآيتان 163-164.

186 - الله يتجلى في عصر العلم. ص48.

187 - نفسه، ص48.

188 - الله يتجلى في عصر العلم، ص10-11.

189 - التكامل في الإسلام، ج6، ص128.

190 - سورة الأعراف، الآية 29.

191 - سورة المرسلات، الآيتان 25-26.

192 - سورة النازعات، الآيتان، 30-31.

193 - سورة عبس، الآيات 25-32.

194 - راجع تفسير الرازي، ج2، ص68.

195 - سورة الذاريات، الآية 20.

196 - سورة التين، الآية 4.

197 - من المفيد في هذه البحوث مراجعة موسعة في المصادر التالية:

أ) أمالي الإمام الصادق (عليه السلام).

ب) الله يتجلى في عصر العلم.

ج) العلم يدعو للإيمان.

د) الله والعلم الحديث.

198 - الله والعلم الحديث، ص174-175.

199 - سورة الزمر، الآية 18.

200 - سورة الأنعام، الآية 32.

201 - سورة الصافات، الآيات 136-138.

202 - سورة العنكبوت، الآية 43.

203 - سورة البقرة، الآية 170.

204 - سورة البقرة، الآية 171.

205 - راجع سورة يونس، الآية 42 والفرقان، الآية 44 والحشر، الآية 13 والبقرة، الآية 44.

206 - التباين في تفسير القرآن، ج1، ص188.

207 - سورة الأنعام، الآية 116.

208 - سورة لقمان، الآية 25.

209 - راجع روح المعاني، ج6، ص423.

210 - سورة سبأ، الآية 13.

211 - سورة هود، الآية 40.

212 - سورة الأنعام، الآية 37.

213 - سورة المائدة، الآية 103.

214 - سورة البقرة، الآية 269.

215 - سورة آل عمران، الآية 7.

216 - سورة الزمر، الآية 9.

217 - يعني المحكم والمتشابه من الآيات.

218 - سورة ق، الآية 37.

219 - سورة لقمان، الآية 12.

220 - المجازات النبوية للشريف الرضي، ص440، وبذلك تكون العظمة والكبرياء هما الكرامة التي يلقيها الله سبحانه على رسله القائمين بالقسط فيعظمون بها في العيون ويجلَّون في القلوب.

221 - يعتقد أي يشتد ويستحكم.

222 - سورة آل عمران، الآية 8.

223 - سورة التوبة، الآية 93.

224 - كلمة مروءة غير موجودة إلا في اللغة العربية وتعني: آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميل العادات أو هي: كمال الرجولية. المعجم الوسيط، ج2.

225 - سورة الرعد، الآية 19.

226 - راجع أصول الكافي، ج1، ص13-20. انتهت هذه الرسالة على رواية الشيخ الكليني وقد ذكر زيادة عليها الحسن بن علي الحراني في كتابه تحف العقول وسوف نقتطف منها بعض دررها التي أهملها الكليني.

227 - الشاجب: كثير الكلام والهذيان.

228 - الصفا: الحجر الصلد.

229 - تحف العقول، ص390-400.

230 - الكافي، ج1، ص32.

231 - بحار الأنوار، ج1، ص168.

232 - كشف الغمة، 2، ص255.

233 - سورة العلق، الآية 3.

234 - سورة يوسف، الآية 76.

235 - سورة الإسراء، الآية 85.

236 - سورة طه، الآية 114.

237 - هو محمد بن إبراهيم الشيرازي الحكيم المعروف كان أعلم أهل زمانه في الحكمة، متقناً لجميع فنونها ـ كما قال صاحب السلافة. له الأسفار الأربعة، وشرح أصول الكافي للشيخ العلامة الكليني وتفسير بعض السور القرآنية و(كسر الصنام الجاهلية) و(شواهد الربوبية) وغيرها من المؤلفات القيمة.

توفي في البصرة في حال توجهه إلى الحج وذلك سنة 1050هـ جاء ذلك في الكنى والألقاب، ج2، ص372. ويعد هذا العالم الجليل الذي قرن علمه بالعمل من شيعة أهل البيت المعروفين.

238 - راجع كتاب علم الاجتماع الأدبي للمؤلف، د. حسين الحاج حسن.

239 - راجع مجلة المعرفة السوية، العدد 150، ص27.

240 - سورة العلق، الآية 1.

241 - سورة الزمر، الآية 9.

242 - سورة المجادلة، الآية 11.

243 - سنن ابن ماجه، ج1، ص50 رواه أنس عن الرسول (صلّى الله عليه وآله).

244 - مجمع الزوائد، ج1، ص121 رواه الإمام احمد بإسناد صحيح.

245 - الزرابي: الفرش الفاخر.

246 - سورة الجمعة، الآية 10.

247 - العمل وحقوق العامل في الإسلام، ص135.

248 - من لا يحضره الفقيه، ج3، ص53.

249 - الكافي ج1، ص115.

250 - حياة الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، ج1، ص223.

251 - نفسه، ج1، ص224.

252 - الكافي، ج1، ص106.

253 - نفسه، ج1، ص125.

254 - نفسه، ج1، ص150.

255 - أمالي الطوسي، ج1، ص214.

256 - الكافي، ج1، ص107.

257 - نفسه، ج1، ص107.

258 - التوحيد، ص134.

259 - التوحيد، ص138.

260 - التوحيد، ص76.

261 - نفسه، ص96 وعيون أخبار الرضا، ج1، ص138.

262 - التوحيد، ص107.

263 - نفسه، ص284.

264 - نفسه، ص175.

265 - أصول الكافي، ص151.

266 - العمل وحقوق العامل في الإسلام، ص140.

267 - الكافي ج5، ص85.

268 - سورة البيّنة، الآية 5.

269 - سورة الحجرات، الآية 10.

270 - سورة النساء، الآية 114

271 - سورة آل عمران، الآية 103.

272 - إحياء علوم الدين للغزالي.

273 - سورة آل عمران، الآية 104.

274 - الوسائل باب الأمر بالمعروف.

275 - المصدر نفسه.

276 - سورة طه، الآية 29.

277 - سورة يونس، الآية 62.

278 - الكافي، ج2، ص188.

279 - سورة البقرة، الآية 245.

280 - المجازات النبوية للشريف الرضي، ج 1، ص187. والكنف: الجانب. الموطئون: الذين يدوس الناس جانبهم فلا يؤذون ولا يزعجون.

281 - الأعراف، الآية 199.

282 - المجازات النبوية للشريف الرضي.

283 - الأخلاق للعلامة السيد عبد الله شبر، ص10.

284 - سورة القلم، الآية 4.

285 - سورة الحجرات، الآية 15.

286 - سورة الفتح، الآية 29.

287 - سورة النحل، الآية 96.

288 - سورة السجدة، الآية 24.

289 - سورة القصص، الآية 54.

290 - أصول الكافي، ص353.

291 - سورة يوسف، الآية 86.

292 - سورة الإسراء، الآية 14.

293 - سورة الكهف، الآية 49.

294 - سورة المعارج، الآية 4.

295 - راجع الأخلاق لشبر، ص285-286 وحياة الإمام موسى بن جعفر للقرشي، ج1، ص248.

296 - سورة النساء، الآية 1.

297 - سورة العلق، الآية 14.

298 - سورة الطلاق، الآية 1.

299 - سورة البينة، الآية 5.

300 - سورة النساء، الآية 38.

301 - رسالة الأخلاق عن غرر الحكم، ص106.

302 - وقد اشتقته العرب من النافقاء وهو إحدى حجرة اليربوع يخفيه ويظهر غيرها ليلجأ إليها عند الحاجة.

303 - سورة الأنفال، الآية 49.

304 - عن غرر الحكم، ص104.

305 - سورة فاطر، الآية 2.

306 - الإمَّعة: قيل أصله إني معك ليس له رأي مستقل.

307 - سورة النجم، الآية 39.

308 - سورة المدثر، الآية 37.

309 - سورة النحل، الآية 97.

310 - عن نهج الفصاحة، ص592.

311 - نفسه، ص622.

312 - رسالة الأخلاق، ص347.

313 - تحف العقول، ص409.

314 - الإتحاف بحب الأشراف، ص55.

315 - غرر الحكم، ص424.

316 - غرر الحكم، ص95.

317 - الكافي ج2، ص313.

318 - غرر الحكم، ص26.

319 - عن نهج الفصاحة، ص201.

320 - الكافي ص453-454.

321 - الكافي، ص453-454.

322 - الكافي، ص453-454.

323 - سورة الحجرات، الآية 10.

324 - سورة فاطر، الآية 15.

325 - سورة الإسراء، الآية 37.

326 - سورة آل عمران، الآية 159.

327 - سورة آل عمران، الآية 139.

328 - الكافي، ج2، ص421.

329 - سورة الشعراء، الآية 88-89.

330 - حنقاً:الحنق شدة الاغتياظ والغضب.

331 - سورة الأنفال، الآية 73.

332 - سورة الأنعام، الآية 84.

333 - سورة الأنعام، الآية 85.

334 - سورة آل عمران، الآية 42.

335 - سورة المجادلة، الآية 22.

336 - سورة الأعراف، الآية 12 وسورة ص، الآية 76.

337 - سورة الأنعام، الآية 149.

338 - زهر الآداب، ج1، ص132.

339 - أبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، ولد سنة 113هـ، وتوفي في بغداد سنة 182هـ وكان من أصحاب الحديث ثم غلب عليه الرأي وأخذ الفقه عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ثم عن أبي حنيفة وولي القضاء لهارون الرشيد حتى لقب بقاضي القضاة. وكان يقضي ببغداد سنة 166هـ في أيام خروج الهادي. تحف العقول، ص300، وطبقات الفقهاء، ص113. والإرشاد، ص318.

340 - المناقب، ج3، ص429.

341 - سورة ق، الآية 16.

342 - البحار، ج12، ص283.

343 - البحار، ج4، ص148.

344 - سورة آل عمران، الآية 34.

345 - البحار، ج4، ص147.

346 - الكافي، ج1، ص179.

347 - سورة الفرقان، الآية 46.

348 - المناقب، ج3، ص427.

349 - بحار الأنوار، ج17، ص206.

350 - المناقب، ج2، ص373.

351 - سورة الأعراف، الآية 33.

352 - سورة البقرة، الآية 219.

353 - بحار الأنوار، ج11، ص277.

354 - سورة البقرة، الآية 34.

355 - بحار الأنوار، ج11، ص253.

356 - سورة النجم، الآيتان 8-9.

357 - سورة التوبة، الآية 25.

358 - بحار الأنوار، ج11، ص353.

359 - بحار الأنوار، ج11، ص253.

360 - البحار، ج4، ص248.

361 - سورة طه، الآية 121.

362 - الاحتجاج، ج2، ص158.

363 - سورة البقرة، الآية 34.

364 - اجترم: اكتسب.

365 - الأنوار البهية، ص91.

366 - سورة المؤمنون، الآية 53.

367 - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص89.

368 - نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف، ج1، ص397.

369 - المصدر نفسه عن قواعد التحديث، ص165.

370 - رجال البرقي بخط الأستاذ الشيخ علي الخاقاني رحمه الله في مكتبته.

371 - جامع الرواة، ج1، ص16، ولسان الميزان، ج1، ص47.

372 - نفسه، ج1، ص44، والنجاشي، ص55.

373 - تنقيح المقال وجامع الرواة.

374 - منهج المقال، ص57.

375 - تنقيح المقال، ج1، ص112.

376 - الفهرست لابن النديم ولسان الميزان، ج1، ص478.

377 - كشف المحجة، والوجيزة.

378 - الوجيزة.

379 - لسان الميزان، ج2، ص84، والتنقيح، ج1، ص179.

380 - النجاشي.

381 - التعليقات، ص16.

382 - لسان الميزان، ج2، ص83.

383 - تنقيح المقال، ج1، ص215.

384 - الفهرست، جامع الرواة، منهج المقال.

385 - منهج المقال، ص92.

386 - النجاشي ـ الكشي.

387 - منهج المقال، ص92.

388 - التنقيح، ج1، ص258.

389 - نفسه، ج1، ص229.

390 - لسان الميزان، ج2، ص225.

391 - الفهرست للشيخ الطوسي، الفهرست لابن النديم، وتنقيح المقال.

392 - الإرشاد.

393 - تنقيح المقال، ج1، ص328 والسهمان اللذان قتل بهما أبوه زيد وأخوه يحيى. والنار هي التي أحرق بها أبوه زيد.

394 - التنقيح، ج1، ص388.

395 - نفسه، ج1، ص391.

396 - نفسه، ج1، ص401.

397 - النجاشي، ص121.

398 - تنقيح المقال، ج1، ص410 وجامع الرواة.

399 - منهج المقال، ص135.

400 - النجاشي، ص124، والفهرست.

401 - الفهرست، قال النجاشي له كتاب.

402 - تنقيح المقال، ج1، 433.

403 - جامع الرواة، ج1، ص332.

404 - النجاشي، ص135.

405 - تنقيح المقال، ج2، ص26، وجامع الرواة، ج1، ص359.

406 - النجاشي، ص146.

407 - النجاشي، ص143، والفهرست.

408 - النجاشي، ص147، والكشي ص277.

409 - النجاشي، ص151.

410 - تنقيح المقال، ج2، ص92.

411 - النجاشي، الكشي، منهج المقال، الفهرست.

412 - النجاشي، ص45 والخلاصة.

413 - تنقيح المقال، ج2، ص136.

414 - تنقيح المقال، ج2، ص176.

415 - جامع الرواة، ج1، ص479، والروضة ج1، ص162، وتنقيح المقال، ج1، ص175.

416 - النجاشي، ص159 وتنقيح المقال، ج2، ص218.

417 - الكشي، ص269، والنجاشي، ص190، وتهذيب التهذيب، ج7، ص293.

418 - تنقيح المقال، ج2، ص288.

419 - النجاشي، ص194.

420 - الكشي، ص212، والنجاشي، ص217، راجع سورة آل عمران، الآية 68.

421 - الفهرست، لابن النديم، ص328، والفهرست للشيخ الطوسي.

422 - الكشي، ص270.

423 - النجاشي، ص232.

424 - النجاشي، ص240.

425 - تنقيح المقال، ج2، ص6.

426 - النجاشي، ص242.

427 - رجال ابن داود.

428 - الكافي للشيخ الكليني.

429 - النجاشي، ص276.

430 - نفسه، ص286.

431 - الكشي، ص364، والنجاشي، ص250-251.

432 - النجاشي، ص251.

433 - تنقيح المقال، ج3، ص132.

434 - تنقيح المقال، ج3، ص203.

435 - النجاشي، ص325.

436 - النجاشي، ص325.

437 - شرح توحيد المفضل، ص17.

438 - الإرشاد للشيخ المفيد.

439 - تنقيح المقال، ج3، ص237، وشرح توحيد المفضل، ص17، والإرشاد، والنجاشي، ص226,

440 - النجاشي، ص323، والبلغة، والخلاصة، ورجال ابن داود.

441 - النجاشي، ص319.

442 - النجاشي، ص333، والإرشاد، والغيبة، والكشي.

443 - النجاشي، ص335،والخلاصة، والكشي.

444 - الكشي، والوجيزة، والبلغة.

445 - تنقيح المقال، ج3، ص304.

446 - النجاشي، ص341.

447 - تنقيح المقال وتأسيس الشيعة، ص360.

448 - تأسيس الشيعة، ص360.

449 - تاريخ الإسلام للذهبي، ج5، ص56، وفرق الشيعة، ص6 و9 وتاريخ ابن كثير.

450 - هشام بن الحكم، ص55.

451 - تنقيح المقال.

452 - الفهرست، ص263.

453 - الفصول المختارة، ج1، ص24، وعيون الأخبار، ج2، ص15.

454 - الكشي، ص165-184.

455 - بحار الأنوار، ج11، ص291-292.

456 - هشام بن الحكم، ص221.

457 - الفهرست، ص264.

458 - الفهرست، ص264.

459 - النجاشي، ص338.

460 - النجاشي، ص346، والخلاصة، والحاوي، والبلغة.

461 - النجاشي، ص346، والحاوي، والفهرست، والوجيزة.

462 - منهج المقال، ص374، وتنقيح المقال، ج3، ص326.

463 - النجاشي، ص348.

464 - الكشي، ص301.

465 - نفسه.

466 - الفهرست، ص323.

467 - الخلاصة.

468 - ذكر هذه الكتب ابن النديم في الفهرست، ص323 وذكرها النجاشي.

469 - النجاشي، ص349.

470 - الفهرست للشيخ الطوسي.

471 - الكشي، ص304.

472 - تنقيح المقال، ج3، ص339.

473 - الكشي، ص302.

474 - سورة النساء، الآية 69.

475 - النجاشي، ص348.

476 - الإرشاد.

477 - تنقيح المقال، ج3، ص17.

478 - النجاشي، ص354.

479 - تنقيح المقال، ج3، ص39.

480 - سورة الإسراء، الآية 15.

481 - سورة الكهف، الآيتان 103-104.

482 - راجع: أخبار الدول، ص113، وفيات الأعيان، ج1، ص394، الاتحاف بحب الأشراف، ص 55، تذكرة الخواص، ص259.

483 - الاحتجاج، ج2، ص163.

484 - فدك: قرية في الحجاز على مراحل من المدينة جاء الإسلام وهي بأدي اليهود وبعد فتح خيبر ألقى الله جلّ جلاله في قلوب أهلها الرعب فصالحوا النبي (صلّى الله عليه وآله) على النصف من غلاّتها ونزل جبرائيل (عليه السلام) بالآية الكريمة (فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) ثم طلب من النبي (صلّى الله عليه وآله) أن يعطي فدكاً لفاطمة (عليها السلام) عوضاً عن أموال أمها خديجة التي تمّ إنفاقها في سبيل الدعوة الإسلامية.

بقيت فدك بيد الزهراء عدة سنوات في حياة الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) وهي تنفق ما يحصل منها على الفقراء دون أن تدّخر شيئاً لنفسها أو لأهل بيتها.

وبعد وفاة الرسول (صلّى الله عليه وآله) أخذها أبو بكر معتقداً أن أخذها يضعف جانب الإمام علي (عليه السلام) فطالبت الزهراء (عليها السلام) باسترجاعها حتى أنها خطبت في مسجد أبيها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) خطبتها المشهورة التي كادت تزلزل بالحاكمين.

ولقد عقد العلامة الكبير ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة فصلاً مطولاً عن فدك. ومما جاء فيه قال: إني سألت علي بن الفارقي ـ من علماء بغداد الكبار ـ هل كانت فاطمة صادقة في دعواها؟

قال: نعم. فقلت له: فلماذا لم يرجع فدكاً إليها؟

فقال: لو أرجعها لجاءت في اليوم الثاني وطلبت منه الخلافة.

485 - المناقب، ج2، ص381.

486 - عيون أخبار الرضا، الغيبة للشيخ الطوسي، البحار، المناقب، وقيل أن الساعي به هو محمد بن إسماعيل.

487 - الفصول المهمة، ص252.

488 - البحار، ج11، ص270-272.

489 - حياة الحيوان للدميري، ج1، ص77.

490 - سورة الحج، الآية 39.

491 - الكافي، ج2، ص373.

492 - سورة الأعراف، الآية 146.

493 - سورة البيّنة، الآية 1.

494 - سورة إبراهيم، الآية 28.

495 - البحار، ج11، ص279.

496 - سورة آل عمران، الآية 77، لا خلاق لهم: ليس لهم نصيب من الخير.

497 - سورة الحج، الآية 25.

498 - سورة الأنبياء، الآية 47.

499 - سورة المائدة، الآية 45.

500 - سورة المنافقون، الآية 8.

501 - البحار، ج17، ص296.

502 - المناقب، ج2، ص385.

503 - البحار، ج17، ص296.

504 - البحار، ج11، ص298.

505 - راجع تنقيح المقال.

506 - البحار، ج11، ص298.

507 - المصدر نفسه.

508 - المناقب، ج2، ص379.

509 - النجاشي، ص352.

510 - البحار والفصول المهمة.

511 - تاريخ الطبري.

512 - تاريخ بغداد، ج3، ص185.

513 - عيون أخبار الرضا وبحار الأنوار.

514 - البحار، ج11، ص298.

515 - سورة غافر، الآية 60.

516 - كان مسؤولاً عن دار الرشيد وشرطته.

517 - مروج الذهب، ج3، ص265.

518 - جاء في المناقب، ج2، ص370 أن الإمام (عليه السلام) رفض الهدايا التي قدمت له.

519 - وفيات الأعيان، ج4، ص394، وشذرات الذهب، ج1، ص304.

520 - البحار، ج11، ص270.

521 - الوسائل باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

522 - البحار، ج11، ص269.

523 - مختصر تاريخ العرب، ص209.

524 - مقاتل الطالبيين، ص303-304.

525 - هو مولى المنصور الدوانيقي ولي دمشق من قبل موسى بن عيسى في خلافة هارون الرشيد، ذكر ذلك الصفدي في كتابه: (أمراء دمشق ص39)، ونظمه في أرجوزته التي ذكر فيها أمراء دمشق بقوله:

وكان قد ولي بها بن شاهك***خلافة ولم يكن بمالك

وذكر الجاحظ حديثاً عنه في (حياة الحيوان حينما ولي الشام يتعلق في تسويته بين القحطانية والعدنانية، وذكر الجهشياري في: (الوزراء والكتاب ص188)، أن السندي في أيام هارون كان يلي الجسرين في بغداد، وقد وكل

بحراسة دور البرامكة لما أراد هارون النكبة بهم وجاء في (المصايد والمطارد ص 7)، كان له ولدان: الحسين وإبراهيم. وله حفيد الشاعر المعروف والكاتب المشهور كشاجم كان من ألمع شخصيات عصره في أدبه وعلمه ومن المتفانين في حب آل محمد (عليهم السلام)، وجاء في (الكنى والألقاب ج 3، ص93)، أن كشاجم كان من شعراء أهل البيت (عليهم السلام) المجاهدين وله في مدح آل محمد قصائد مشهورة. وذكر ابن شهر اشوب في (المناقب) أن الله سبحانه وتعالى انتقم من السندي في اليوم الذي توفي فيه الإمام (عليه السلام) فقد نفر فرسه به وألقاه في نهر دجلة فمات فيه.

526 - باب الكوفة: هو أحد الأبواب الأربعة الرئيسية لمدينة بغداد حينما بناه المنصور، وقد بنى على كل باب قبة مذهبة، وحولها مجالس ومرتفعات يجلس فيها فيشرف على كل ما يعمل به، وباب الكوفة هو الطريق الذي يسلك فيه إلى الحج، وكان باباً عظيماً لا يغلقه إلا جماعة من الناس، ولما غرقت بغداد في فيضان 330هـ هدمت طاقات باب الكوفة، وجاء ذلك في خارطة بغداد أن باب الكوفة تقع في قرية الوشاش الحديثة في محلة الكرخ. وقال بعض العراقيين أن المحل الذي سجن فيه الإمام معروف عند بعض الأوساط وهو أحد قصور آل الباججي.

527 - البحار، ج11، ص300.

528 - نفسه، ج11، ص305.

529 - هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الدورقي الأهوازي الإمامي النحوي اللغوي، كان ثقة جليلاً من عظماء الشيعة، ويعد من خواص الإماميين التقيين وكان حامل لواء علم العربية، والأدب، والشعر، له تصانيف كثيرة منها: تهذيب الألفاظ، إصلاح المنطق، قال ابن خلكان: قال بعض العلماء ما عبر على جسر بغداد كتاب من اللغة مثل (إصلاح المنطق) ولا شك إنه من الكتب النافعة الممتعة الجامعة لكثير من اللغة ولا نعرف في حجمه مثله في بابه، وقد عني به جماعة، واختصره الوزير المغربي، وهذبه الخطيب التبريزي، وقال ثعلب: أجمع أصحابنا أنه لم يكن يعد ابن الأعرابي أعلم باللغة من ابن السكّيت، قتله المتوكل في 5 رجب سنة 244هـ. وسبب قتله أنه قال له يوماً: أيهما أحب إليك ابناي هذان، أي المعتز والمؤيد، أم الحسن والحسين، فقال ابن السكّيت: والله أن قنبر خادم علي بن أبي طالب (عليه السلام) خير منك ومن ابنيك، فقال المتوكل للأتراك: سلّوا لسانه من قفاه ففعلوا ذلك فمات، ومن الغريب أنه قبل قتله بقليل قال:

يصاب الفتى من عثرة بلسانه***وليس يصاب من عثرة الرجل

فعثرته في القول تذهب رأسه***وعثرته في الرجل تبرأ عن مهل

جاء ذلك في الكنى والألقاب: ج1، ص303-304.

530 - النجاشي، ص319.

531 - محمد بن الحسن الشيباني، مولاهم الكوفي الفقيه، ولد بواسط، ونشأ بالكوفة، أخذ الفقه من أبي يوسف ثم من أبي حنيفة، وسمع مالك بن أنس، وأخذ عنه الشافعي وأبو عبيد وكان فقيهاً. النجوم الزاهرة، ج 2، ص130، وأنباه الرواة، ج2، ص268، توفي سنة 183هـ هو والكسائي في يوم واحد، دفنهما هارون. رثاهما اليزيدي:

سيفنيك ما أفنى القرون التي مضت***فكن مستعداً فالفناء عتيد

أصبت على قاضي القضاة محمد***فاذريت دمعي والفؤاد عميد

وقلت إذا ما الخطب أشكل من لنا***بإيضاحه يوماً وأنت فقيد

وأوجعني موت الكسائي بعده***وكادت بي أرض الفضاء تميد

532 - نور الأبصار، ص126-127، الاتحاف بحب الأشراف، ص57-58، البحار، ج11، ص251، وجاء فيه زيادة على ذلك أنهما رجعا إلى الإمام (عليه السلام) فقالا له: قد علمنا أنك أدركت العلم في الحلال والحرام فمن أين أدركت أمر هذا الرجل الموكل بك أن يموت في هذه الليلة؟ فقال (عليه السلام): من الباب الذي علّمه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) علي بن أبي طالب (عليه السلام) فلما ردّ عليهما بذلك بقيا حائرين لا يطيقان الجواب، وكذلك ذكره الأربلي في كشف الغمة، ص253.

533 - الجعفي الكوفي، من كبار العلماء، ومن عيون المتقين الصالحين، ومن أفذاذ عصره، له المنزلة المرموقة والمكانة العليا عند أهل البيت (عليهم السلام) اقتبس العلوم من الإمام الصادق (عليه السلام) وكان من عيون أصحابه الذين اخذوا العلم عنه ويكفي على غزارة علمه كتابه القيّم المسمّى (توحيد المفضّل) الذي أملاه عليه الإمام الصادق (عليه السلام). يعد الكتاب من مفاخر التراث الإسلامي الذي يعتز به. شرح توحيد المفضل، ص17.

534 - البحار، وأصول الكافي، عيون الأخبار.

535 - مثرب، مأخوذ من التثريب وهو التوبيخ والتعبير.

536 - المحوى، اسم المكان الذي يحوي الشيء أي الذي يضمه.

537 - أصول الكافي، ج1، ص316-317 والبحار.

538 - المكان الرتفع.

539 - المطهر: المصعد.

540 - العيص: الشجر الكثير.

541 - الغامر: الخراب.

542 - لا مثنوية فيها: أي لا استثناء.

543 - البحار، ج11، ص215-216.

544 - تاريخ اليعقوبي، ج3، ص125.

545 - البداية والنهاية، ج10، ص183. راجع سورة الجاثية، الآية 27.

546 - راجع سورة النمل، الآية 35.

547 - المناقب، ج2، ص263-264.

548 - البحار، ج11، ص299.

549 - كان يخلط السم في شراب العسل ويقدمه لمن يزيد اغتياله.

550 - البحار، ج2، ص301-302.

551 - السائي نسبة إلى ساية من قرى المدينة. روى عن أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) وقيل أنه روى عن أبي جعفر، وروى رسالة لأبي الحسن موسى (عليه السلام). راجع النجاشي، ص211.

552 - التحريش: هو إغراء بعض القوم ببعض.

553 - سورة النحل، الآية 112.

554 - الخنا: الفحش في الكلام.

555 - روضة الكافي، ص124-126. كما ذكرت هذه الرسالة في مرآة العقول.

556 - تاريخ بغداد، ج13، ص137.

557 - الجهشياري، ص97.

558 - تنقيح المقال، ج3، ص217.

559 - البحار، وعيون الأخبار.

560 - فرق الشيعة، ص89.

561 - الكشي، ص371.

562 - مقاتل الطالبيين، ص504.

563 - عمدة الطالب، ص185.

564 - عيون الأخبار.

565 - البحار، ج11، ص300.

566 - روضة الواعظين، ص185-186 وعيون الأخبار، والأمالي، وجاء في البحار أن الإمام (عليه السلام) التفت إلى الشهود، فقال لهم: اشهدوا على أني مقتول بالسم منذ ثلاثة أيام، اشهدوا أني صحيح الظاهر لكني مسموم وسأحمر في هذا اليوم حمرة شديدة، وابيضّ بعد غد، وأمضي إلى رحمة الله ورضوانه) فمضى (عليه السلام) كما قال: في آخر اليوم الثالث، وجاء في قرب الإسناد للحميري أنه (عليه السلام) قال للشهود: إني سقيت السم في سبع تمرات.

567 - مقاتل الطالبيين، ص504، والبحار، ج11، 303.

568 - عيون أخبار الرضا.

569 - وفيات الأعيان، ج 2، ص173 - تاريخ بغداد، ج 13، ص32 - تاريخ الطبري، ج 10، ص70 - ابن الأثير، ج6، ص54 - تاريخ أبي الفداء، ج2، ص17 - تهذيب التهذيب، ج10، ص340 - ميزان الاعتدال، ج 3، ص209 - عمدة الطالب، ص85.

570 - المناقب، ج2، ص383.

571 - الفصول المهمة، ص255.

572 - البحار، ج11، ص300.

573 - المناقب، ج2، ص384.

574 - البحار، ج11، ص300.

575 - البحار، ج11، ص303.

576 - الفصول المهمة، ص54!!

577 - عمدة الطالب، ص185.

578 - سليمان بن أبي جعفر المنصور، أمه فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبد الله التيمي: تاريخ ابن كثير، ج10، ص28، كان أميراً على دمشق من قبل الرشيد، ووليها من قبل الأمين مرتين وولي إمرة البصرة مرتين.

579 - سليمان هو عم هارون الريد من الشخصيّات اللامعة في الأسرة العباسية وأمره مطاع عند الجميع.

580 - البحار، عيون أخبار الرضا.

581 - المناقب، ج2، ص387.

582 - عيون أخبار الرضا، سورة يوسف، الآية 58.

583 - الأنوار البهية، ص99، وجاء فيه أنه حكى عن صاحب تاريخ مازندران أنه قال في كتابه: إنه مر بذلك المكان عدة مرات وقبل الموضع الشريف.

584 - الإتحاف بحب الأشراف، ص57.

585 - باب التبن: اسم محلة كبيرة كانت ببغداد تقع بإزاء قطيعة أم جعفر وفيها قبر أحمد بن حنبل وهي قريبة من مقابر قريش جاء ذلك في معجم البلدان، ج2، ص14.

586 - سورة آل عمران، الآية 185.

587 - هو من أعلام الأدب توفي في النجف الأشرف، 1285هـ.

588 - ما ذكره الشاعر عن الإمام الكاظم (عليه السلام) هو عام في جميع الأئمة (عليهم السلام) فقد روى الخاص والعام حديث رسول الله (صلّى الله عليه وآله): (علي مع الحق والحق مع علي يدور معه أينما دار) فهم صلوات الله عليهم ورثوا هذه المكرمة فيما ورثوه عن أبيهم (عليهم السلام) من مواريث الإمامة.

589 - قشاعمه: القشعم:المسن الضخم ويقال للحرب والمنية والداهية: أم قشعم.

590 - العالم: من ألقاب الإمام موسى الكاظم (عليه السلام).

591 - جراثمه: أصله.

592 - المغنى: المنزل الذي غني به أهله.

593 - حباه: أعطاه.

594 - سجم الدمع: سال.

595 - صب القلب: رق واشتقاق. والهيام: شدة العشق.

596 - تحت راية الحق، ص613 عن عيان الشيعة، ج10، ص189.

597 - تحت راية الحق عن المجالس السنية، ص614.

598 - من خطباء المنبر الحسيني في الحلة ومن شعرائها المكثرين في أهل البيت (عليهم السلام).

599 - تحت راية الحق عن أدب الطف، ص614.

600 - من شعراء النجف الأشرف ومن علمائها ومؤلفيها توفي سنة 1345هـ.

601 - تحت راية الحق عن أدب الطف، ص615.

وكما نلاحظ أن جميع القصائد التي قيلت في رثائه جاءت قصائد مدح للإمام الكاظم (عليه السلام) لأنه أحدث فراغاً كبيراً في الأمة الإسلامية.

602 - من علماء الحلة وشعرائها وكانت وفاته سنة 1345هـ.

603 - تحت راية الحق، ص615، عن أدب الطف، ج10، ص187.

604 - تحت راية الحق، ص610، عن كشف الغمة، ج3، ص84.

605 - ترجم له صاحب نشوة السلافة وذكر بعض شعره، والأمين في أعيان الشيعة.

606 - تحت راية الحق، ص610، عن أعيان الشيعة، ج10، ص129.

607 - تحت راية الحق، ص613، عن الترياق الفاروقي، ص130.

القسم الأول: بين يدي الكتاب

القسم الثاني: الإمامة

القسم الثالث: كيف نصر الله أنبيائه

القسم الرابع: الإمام الكاظم عالم في الاقتصاد

القسم الخامس: مناظرات الإمام الكاظم (ع)

القسم السادس: أسباب اعتقال الإمام الكاظم (ع)

القسم السابع: أوقافه وصدقاته